الأعمال الكاملة



تيسير سبول

الرواية والقصة
الشعر
الدراسات والمواقف

دار ابن رشد

تيسير سبول

الأعمال الكاملة

الرواية والقصة
الشعر
الدراسات والمواقف

دار ابن رشد للطباعة والنشر

مقدمة

لماذا انطفأ تيسير سبول منتحرا ؟

بقلم :
سليمان الازرعي

« ٠٠ انتقل الى جوار ربه في عمان امس الزميل المرحوم تيسير سبول عن عمر يناهز الرابعة والثلاثين عاما ، كان تيسير سبول واحدا من رواد الحركة الادبية الاردنية ، شاعرا ومفكرا عمل جهده في سبيل خلق حركة ثقافية وفكرية في الاردن وبفقدانه يفقد الاردن واحدا من ابنائه المفكرين وعقلا متفتحا للعطاء والخير ٠٠ رحم الله الفقيد » ٠

وكان سبول قد سدد يوم ١٩٧٣/١١/١٥ رصاصة الى رأسه وودع الحياة تاركا وراءه قصيدته الوداعية التي عثر عليها معه بعد انتحاره الى جانب مقاطع مكملة ـ لمرثاة الشيخ ـ :

« أنا يا صديقي
اسير مع الوهم ، أدري
أيمم نحو تخوم النهاية
نبيا غريب الملامح أمضي الى غير غاية
سأسقط لا بد ، يملأ جوفي الظلام
نبيا قتيلا وما فاه بعد بآيه

وأنت صديقي ..
وأعلم ، لكن قد اختلفت بي طريقي
سأسقط ، لا بد ..
هذي بعد أول قافلة
اسقط يملأ جوفي الظلام
عذيرك بعد ،
اذا ما التقينا بذات منام
تفيق الغداة وتنسى
لكم أنت تنسى ..
عليك السلام .. »

يعيش الانسان تجارب عدة خلال حياته . وقد تداهمه ظروف غير متوقعة فتضعه في تجربة لا عهد له بمثلها . الا ان تجربة الموت المريرة المرعبة تظل من اعظم التجارب التي يمر بها الانسان ويتشرب عناءها قطرة فقطرة ..

وقد اعتبر بعض الفلاسفة هذه التجربة جزءا من الحياة . ها هوذا الفيلسوف الالماني نيتشه يردد القول : من العبث اعتبار الموت مضادا للحياة . الا أن المتدينين يرون أن الموت نهاية كل حي وأن كل نفس ذائقة الموت .

وعلى كلا الحالين فسواء كان الموت جزءا من الحياة وامتدادا لها أو أنه نهاية كل حي ، فان من حقنا السؤال : لماذا يستعجل البعض هذه التجربة قبل اوانها فيزهقون أرواحهم بأيديهم ؟ ولماذا يستعذبها البعض ويستقبلونها كشيء رائع ؟

من السهل ان نفهم موقف الشاعر البلغاري - نيكولاي فابتزاروف - حين رفض أن يعصب الفاشيون عينيه معلنا أنه لا يخاف مثل هذا الموت ، ومنشدا : ان الذي يسقط في سبيل الحرية لا يموت .. لا يستطيع ان يموت .. فالشاعر هنا لا يستعذب الموت لذاته ، وانما يعني حبه للاشياء التي من اجلها يتقبل الموت راضيا .

وبهذا الفهم نستطيع ايضا ان نفسر قول الشاعر الكوري

- كيم تشي ها - : ان الموت لا يخفي عليكم شيئا • رائع انه لا يأتي الا مـرة واحدة •

وان كنا نفهم ابعاد ومعاني مثل هذه المواقف بسهولة ، فانه من الصعب علينا مثلا ان نفهم انتحار الشاعر المصـري - احمـد العاصي - الذي قدم احمد شوقي لديوانه بقوله :

ولتعلمـن اذا السنـون تطاولت
ان التشكـي كـان قبـل اوانـه

لقد سكب الشاعر على جسده مادة كاوية وظل يراقبها حتى وصلت الى قلبه • وترك وراءه وصية مختصرة : الـى مـن يهمه امري ، جبان من يكـره المـوت • جبان مـن لا يرحب بهذا المـلاك الطاهر ، انني استعذب الموت • فالمنتحر هنا يريد الموت لذاته الذي هو كالرائحة الذكية عنده •• وهو عنده : اشهى ثمرة يقتطفها كل راغب في السعادة • نحن اذن امام حالة انتحارية فريدة : الانتحار طلبا للموت نفسه ، على غير ما هو معهود في الانتحـار الذي يعد وسيلة خلاص من الحياة وتناقضاتها بمعنى ان الانتحار لم يعـد تدبيرا للخلاص من المعاناة والالام ، بل اصبح غاية بحد ذاته ، وهو ترجمة لفلسفة متكاملة ، توجت بطاب الموت لدى المنتحر • وربما تكون التناقضات القائمة بـين الشخصية والمحيط اساسا لنشوء مثل هذه الفلسفة ، اذا ما بحثنا في تاريخها لكنها اخـذت شكلها النهائي على هذا الوجه ، فاصبح الانتحار غاية وفلسفة لا تدبيرا للخلاص من المعاناة •

وشتان ما بين انتحار الشاعر المصري احمد العاصي والشاعر السوري - عبد الباسط الصوفي - حين اصيب بضربة شمس في حر غينيا وأصرت شركة الطيران على ان ترافقه ممرضة علـى متن الطائرة فرفضت سفارة بلاده هذا الطلب ، وجاء انتحاره اختصارا لالامه واحتجاجا على هذا الموقف •

والموت في مثل هذه الحالة ليس مطلوبا بحد ذاته بقدر ما هو وسيلة توصل الى غاية ، بينما نراه في انتحار الشاعر المصري ، وهذه حالة انتحارية شاذة ، على غير ما هو مألوف في الانتحار الذي

يأتي كأسلوب جذري يضع حدا نهائيا لالام المنتحر وتناقضاته ، فيقدم عليه مكرها ابتغاء الخلاص مما يعانيه من صراعات داخلية لم تعد تحتمل ..

لقد كان سبول رافضا محتجا على العالم من حوله ، فليكن في موته احتجاج اشد . وكان – مايكوفسكي شاعرا غاضبا وكذلك كان تيسير وبنفس الطريقة كان تيسير ، فانتبهوا جيدا ..

ولقد خبر تيسير لعبة الموت وواجهها بروحه الرافضة الطعينة لم يكن الموت بالنسبة اليه الا دهليز العبور نحو التجربة الاصعب والا المواجهة الحميمة .

ان التناقض الاجتماعي القائم والشعور الدائم بالاحباطات المتتالية على جميع الاصعدة والاحساس بلا جدوى الثقافة ، وعبثية التحدث بهدوء في وسط مشحون بالضجيج والتخبط والاحقاد واللا أبالية بكل شيء ، كان هذا سببا كافيا لانسان تتجسد امام عينيه انسانيته بكاملها وشفافيتها كي يلغي نفسه احتجاجا .
وكان تيسير ضميرا لكل الشرفاء لكن هذا الضمير اختنق بالدخان الذي يلف حياة الامة .

وقد رد – اسامة فوزي يوسف – انتحار سبول لسببين هما : الرفض والبحث . أما الرفض فيعني أن سبول كان رافضا لكل ما يدور حوله . وأما البحث فقد اعتمد سبول في بحثه عن الحقيقة – البديل – على عقله وشجاعته ولم يكن جنوحه الى التصوف ليحدث لو لم يكتشف بأن العقل اخفق – تماما كما اكتشف رامبو – ففاء الى التصوف . وحين اخفق تيسير في تحقيق مثله الاعلى في الوصول الى الحقيقة عن طريق التصوف .. انتحر ، ولم يكن انتحاره اعلان نهاية ، وانما كان اعلان بداية مرحلة في البحث عن الحقيقة .

هذه بعض من الاراء التي قيلت في موضوع انتحار سبول وهي كثيرة ومتنوعة ولا يتسع المجال لذكرها .. وقد حاول البعض ، التماس اسباب انتحاره من خلال قراءاتهم في اعماله الادبية والفكرية الى جانب تتبع سيرته الحياتية فأخفق بعضهم ،

وهوم البعض الاخر حول الحقيقة وربما يكون لعجالتهم في تناول الموضوع دور أساسي في عدم القدرة على اعطاء تشخيص دقيق لهذا الانتحار ..

وقد أجمعت الاكثرية ممن تناولوا انتحار أديبنا على أنه كان رفضا واحتجاجا صارخا ضد المحيط والمجتمع والظروف ، وقد دفعت هذه الاحكام الكلية السريعة بعض الباحثين لرفض مثل هذه التفاسير ، واعتبر بعضهم ان انتحار سبول بهذا المعنى لن يكون سوى تحذير واثارة زائفة للانتباه ، وذلك أمر مجانب لحقيقة انتحاره فالتحذير والاثارة لا يمكن ان تكون حياة الانسان ثمنا لهما .

ولا شك ان الانتحار بحد ذاته ينطوي على معنى الاحتجاج ضد الحياة . وهو تدبير من تدابير الخلاص من الامها ، الا انه المحاولة الاخيرة والجذرية ، لاستبعاد هذه الالام الواقعة على الذات . لكن التحذير - ومهما كانت ضروراته - لا يرقى الى مستوى يمكن أن تصبح الحياة مناله من هذا . حتى الذين ينتحرون احتجاجا على سلطة ما ولسبب ما - ربما يعلنونه على الملأ أو يتركونه في وصاياهم - فان انتحارهم هذا لا يتم من اجل التحذير واثارة الانتباه للسلطة المعنية ، وان كان هذا هو المعن . ان انتحار هؤلاء يجيء كاخر تدبير تتخذه الذات دفاعا عن نفسها وحسما للتوتر والقلق الناتج عن التناقض القائم بينها وبين الخارج ، في وقت اصبحت فيه غير قادرة على صب اعتداءاتها على مصدر القلق واجراء التغيير الذي يناسبها فيه ، فبعد ان تستنفد الذات كل فرصها في تغيير مصدر القلق هذا ، يرتد الاعتداء على الذات فتحكم على نفسها بالهزيمة في نهاية هذا الصـ[illegible]ـع . وتتجسد الهزيمة بالانتحار الذي يشكل العلاج الوقائي الـ[illegible]ـذري لتخليص الذات من قلقها وتوترها .

لم يكن انتحار سبول اذن احتجاجا بمعنى الاحتجاج الذي يقصد به الاثارة والتحذير والاغاظة لجهة ما ، فلا انتحار سبول ولا اية حالة انتحارية مهما كان نوعها تتم بهذا المعنى ، لان الانتحار

كما قلنا يتم كاخر اسلوب وقائي جذري للدفاع عن الذات للخروج بها من ورطة التوتر الناتج عن التناقض القائم بـين الشخصية والخارج ، ومن هنا تأتي ادانتنا نحن واحتجاجنا على هـذا الخارج ـ بكل ما فيه من ظروف ـ الذي لم يستطع ان يقدم لذات انسان سوي مثل سبول الظروف المناسبة للتعايش معها بسلام ، علما بأن هذه الذات ليست لديها اية مطالب شاذة تضعها امام تناقض مدان من قبلنا ، لن نفهم اية حالة انتحارية على انها احتجـاج الا بهذا المعنى ٠٠ نحن الذين نحتج اذا على هذا المحيط ، وهـذه الظروف ٠ أما المنتحر فلم يعمل الا على تخليص ذاته ٠ لقد احتج تيسير في حياته ، اما في مماته فلم يكن يطلب غير الراحة حيث كان الموت ملاذه الاخير ٠

ولكل شخصية طموحات متعددة ربما تكون طموحات شخصية وربما تتسع دوائرها لتعبر عن طموحات شعب أو أمة أو انسانية شاملة ، وعندما تتشعب التناقضات القائمة بين الشخصية ومصادر القلق الخارجي الذي اتسعت دوائره الى اقصى مدى ممكن ، وعليه فان حجم التهديد الموجه صوب ذاته اتسعت طموحاتها وخرجت عن دوائر الطموحات الشخصية اكبر من حجم التهديد الموجه نحو ذات لها طموحات شخصية بحتة واكثر تعقيدا ، والسبب بسيط جدا ، أن من يحمل عـبء تلبية رغبات شعـب وأمة وانسانية وسيظل حجم التناقض لدى الاخير اكثر من الاول ، ورغم احتمال اشتداد ازمة الاول حين تلح عليه رغباته الشخصيـة ، الا ان الاخير يظل معرضا للتأزم اكثر مـن غـيره مـن الناس ، ومـن هنا كان المفكرون اكثر الناس عرضة للتأزم ٠

ولا شك ان كثيرين ممن وقفوا عند انتحار سبول وركزوا على ثوريته ورفضه واحتجاجه واعتمدوا علـى هـذه الامور في تفسير انتحاره كانوا في غمرة الانفعال والفجيعة والاستياء لهذا الرجـل المفزع ، بحيث جاءت تفسيراتهم عرجاء لا تخلو من تطرف ينقصه المنطق والربط كأداة رئيسية لتفسير الامور ، وبهذا جاء رفضـه واحتجاجه وثوريته وكأنها مفروضة على الناس فرضا ، مما دفـع بعض الباحثين لالتماس أسباب أخرى لانتحاره ٠

لقد رد الدكتور عيسى الناعوري انتحار سبول لسبب واحد

فقط يتعلق بحالته الصحية ، يذكر الناعوري انه تعرف على مرض اديبنا اثناء زمالته له في مؤتمر الادباء العرب في بغداد ، حيث كانا يمثلان الاردن في ذلك المؤتمر . يقول الناعوري في مقال له : كان يختفي وراء مرح تيسير وضحكه المجلجل انسان معذب بالالم الشديد في رأسه وعينيه . الالم الذي لا علاج له ولا شفاء منه . وقد طال بتيسير الالم والعذاب وتحمل منهما ما لا يطاق ، مما جعله كثير الحديث والكتابة في شعره ونثره حول الموت والانتحار وكان يغطي ذلك بالثورة الدائمة العميقة ، وحين لم يعد له صبر على الالم ، وصار يشعر بأنه سيفقد بصره شيئا فشيئا دون ان يتخلص من الالام الشديدة أقدم على خطوته اليائسة ووضع حدا لحياته والامه .

وقد بالغ الناعوري في مرض سبول مبالغة شديدة حين اعتبره الدافع الاول والاخير لانتحاره ..

والواقع انني تتبعت مسألة مرض تيسير خلال اشتغالي بهذه الدراسة ولم اترك صغيرة او كبيرة حول هذا الموضوع ، وكنت حريصا على تحديد حجم مرض سبول فناقشت كل المعلومات التي اطلعت عليها : وتنبهت لما يمكن ان يخفيه الاهل والاقارب بدوافع حرصهم على طمس العوامل الشخصية في انتحاره الا انني وجدت تطابقا تاما بين ما قاله الاهل والاصدقاء وبين ما حصلت عليه من معلومات من المصادر الطبية التي كان سبول يتردد عليها للمعالجة .

وباختصار ، فان سبول كان يعاني من مرض نادر في عينيه يسمى - الصفراء الراجعة - ولم يكن هذا بالمرض الخطير الذي ينبىء بفقدان البصر - كما يقول الدكتور الناعوري - بل ان المرض هذا لا يعدو كونه اكثر من منغص تظهر اعراضه بشكل مؤقت يزوغ على اثره البصر وتخف الرؤية لوقت محدد . وهذا ما أكده الاخصائيون في مدينة الحسين الطبية التي كان أديبنا يتردد عليها للعلاج .

وقد روت لي الدكتورة - مي يتيم - أن سبول كان يدرك جيدا عدم خطورة هذا المرض وكان يثق بكلام الاطباء الذين اكدوا له

سهولة شفاء مرضه ،والدليل على ذلك ان اثنين الى جانب سبول كانا يعانيان من هذا المرض ولا يزالان يحتفظان بكامل بصريهما . واحدهما يعمل بمهنة دقيقة جدا ، يلعب البصر فيها دورا اساسيا .

اذن ، لم يكن مرض سبول السبب الاول والاخير في انتحاره ولا أظنه - على ضوء ما تقدم - السبب الاول ولا الاخير . لن يكون اكثر من مرض يمكن ان يعاني منه اي انسان ، شأنه شأن اي مرض ينغص على المرء راحته الصحية ، وربما كان رفض سبول لقبول بعثة المعالجة التي اقرتها له وزارة الاعلام الى المانيا ، دليلا على ثقته بعدم خطورة هذا المرض وعلى عدم حرصه على متابعته والشفاء منه .

الا ان فكرة رفض المعالجة بالذات ، فتحت أمامي بابا واسعا من أبواب البحث ووجدتني أعبر دهاليز مظلمة وليس لدي العدة الكافية للاطمئنان على مسيرتي حين تساءلت : لماذا رفض سبول العلاج ؛ كنت اطرح هذا التساؤل على نفسي وانا ادرك ان العين نافذة الجسد وهي جسر عبور الفرح والالم الى النفس البشرية .. وهذا الجحوظ الواضح في عيني أديبنا ايكون ارثا فزيولوجيا أم ترجمة للنظرة الحادة للخارج ، والاطلالة الجادة على هذا العالم ؟ وهذا المرض الذي اصاب عضوا حساسا من الجسد أيكون مرضا عضويا بحتا أم حالة عصابية ظهرت كشكل دفاعي عن الذات ؟

والحقيقة ان العارف بنفسية سبول ومدى معاناته يحق له أن يطرح هذه التساؤلات ، لان شخصية كهذه تظل غير بعيدة عن الاصابات العصابية .

ولقد نظر - فرويد - الى الكاتب والاديب نظرته الى اي عصابي يصون نفسه بواسطة العمل الابداعي من الانفجار . وقد نكص معظم الكتاب عن اتمام ما كان بعضهم قد شرعوا به من علاج بالتحليل النفسي . ورفض معظمهم ان - يشفى - أو - يتلاءم - .. اما لانهم ظنوا انهم قد يتوقفون عن الكتابة اذا تلاءموا ، او لان الملاءمة المقترحة مع المحيط كانت رجوعا الى حالة عادية أو محيط اجتماعي يرفضونه .

لقد استفسرت من مصادر طبية متعددة حول مرض سبول واحتمال كونه مرضا عصابيا فاستبعد بعض الاخصائيين ذلك وتشجع بعضهم حين ناقشتهم بمعاناته والامه النفسية ، لكنهم اكدوا ان الحكم في هذه المسألة يظل أمرا صعبا للغاية ، وأن المريض لا يساعد الطبيب في مثل هذه الحالة ·

واذا ما كان مرض سبول عاديا فلن يكون له وزن في قضية انتحاره ـ كما اسلفنا ـ لانه لم يكن بالمرض الخطير الذي ينبىء بفقدان البصر كما جاء في مقالات الناعوري ، اما اذا كان عصابيا فيكون قد خفف عنه بعضا من معاناته النفسية ـ التي امتدت معه حتى لحظة اطلاق الرصاصة ـ كما يفعل اي مريض عصابي·وعندها سنسقط من الحساب نهائيا دور المريض في انتحاره ، لان المرض الذي يتم بهذه الطريقة يجلب لصاحبه الارتياح ويستقبله لا شعوريا دون تبرم ·

واذا ثبت ان انتحار سبول لم يكن بدوافع المرض مهما كان نوعه ، عاديا ام عصابيا ، ما لم يكن بدوافع الاحتجاج واثارة الانتباه ـ بمعناهما الحرفيين ـ كما اسلفنا ، فلأي شيء طلب أديبنا الموت لنفسه ، وهو ما زال في مقتبل العمر ؟

ويحاول ـ دوركهايم ـ ان يحدد ظروف الانتحار العامة والخاصة بالنسبة للمنتحر ، وكأني به يتحدث عن أديبنا وظروفه ، فعلى الصعيد العامّ تتميز ظروف المنتحر الاجتماعية بالاضطراب المستمر والاختلال العام في جميع الاصعدة ، وعندها تقصر قدرة الفرد دون تخطيط اهدافه بسبب الايديولوجية المضطربة واسلوب الحياة السائد غير المستقر ، فيفقد الفرد ذاتيته ويعاني من مشاعر الفراغ والجمود ، ويصبح كائنا بيولوجيا دون التمتع بالجانب الانساني فيه ، وتفقد الحياة معناها لدى الفرد ، ويعاني من احاسيس العزلة المفزعة والفردية الضائعة ، ويفقد تلقائيته تدريجيا حتى تبلغ اقصى مداها في احساس داخلي بالموات يسبق الاقدام على الموت الفيزيقي وتنفيذ الانتحار ·

ولا تخفى على كل من تعاملوا مع أديبنا وعرفوه ، تلك السمات

الاساسية التي تبرز في شخصيته لمجرد اللقاء الاول معه ٠٠ الذكاء الخارق ٠٠ والحساسية المرهفة والانفعال السريع المقترن بالتفكير ٠ دائما القلق ٠٠ البؤرية ٠٠ اللامعقولية ٠٠ سرعة الخاطر والاندفاع ٠٠ عشق الطبيعة ٠٠ الخ ٠

وتشير جميع الصفات التي يعرفها الناس عن سبول الى انه كان من اصحاب المزاج العصبي كانت استجاباته المتطرفة باستمرار - كما سبق واشرنا - تعبيرا وترجمة لهذه الصفات النفسية ، كان يثور لابسط الامور ٠٠ ما اسرع أن يتخاصم مع صديق لمجرد خطأ يحس به من هذا الصديق ٠٠ وما أسرع ما يعود راضيا كالاطفال وما أسرع ان يكتشف ويكشف كذب منافق وتملق نذل غير هياب أو مجامل ، وغير آخذ بالحسبان النتائج المترتبة على ذلك ٠ وكان هذا التطرف مصدر شقائه الوظيفي الدائم ، فقد ترك العمل في ضريبة الدخل عام ١٩٦٢ لما يتعرض له الموظف في هذه الدائرة من الوقوع تحت التأثيرات المتعددة ٠ ولعل وظائفه القصيرة واعماله المتعددة - في اكثر من مجال - خير دليل على قلقه ورفضه وتطرفه وتبرمه وقد قضى اشهره الثلاثة الاخيرة في الاذاعة موقفا عن القيام بأي عمل ٠ كان يداوم ولا يعمل ، ولعل روايته - انت منذ اليوم - القصيدة الحارة التي تحكي كل نبضة من نبضاتها حس سبول المتطرف بالاشياء المحيطة غثها وسمينها دليل اخر على ذلك ٠

وقد أوتي سبول هذه الصفات الخطرة في ظروف بيئة صعبة وغير مستقرة ، لعلها لا تختلف عن ظروف المنتحر التي حددها - دوركهايم - ٠ فأبسط الناس يدرك ذلك الانقلاب الواضح السريع الذي شهده الاردن والعالم العربي عامة مع مطلع خمسينات هذا القرن ، وعلى جميع الاصعدة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي قلبت سمات المجتمعات العربية رأسا على عقب ، ففي فترة دراسته الجامعية المحدودة عاصر سبول عددا من الانقلابات السياسية - التي سجلتها روايته - في قطر عربي واحد ٠ وكان سبول واحدا من ذلك الجيل المخضرم الذي قدر له ان يعيش هذه الفترة الحرجة وهذا التغيير الشامل الذي ترتب عليه تغير الناس في اخلاقياتهم فيما بينهم بتغير سمات مجتمعاتهم ٠

ولم تكن مهمة مواجهة سبول لهذا الوضع بالمهمة السهلة ، وهو ابن الريف الذي شهد المدينة العربية تبتعد ابتعادا واسعا عن القرية ـ رغم ما طرأ على الاخيرة من تطورات · فلم تعد عمان وبيروت ودمشق امتدادا «للطفيلة» انذاك · وكان فشله في التعايش مع الوضع الجديد بسلام واضحا منذ الجولة الاولى حين عاد من بيروت تاركا بعثته الدراسية في الجامعة الامريكية وفي اقسى درجات الشعور بالغربة ، تلك التي جسدها في أقصوصته ـ هندي أحمر · كان تيسير سبول ذلك الشاب المهموم دائم البحث والتنقيب عن اجابات لتساؤلاته ، وعن حلول تجسد طموحاته ـ ينظر الى الانسان العربي عبر تاريخه فيراه مقهورا مكبوتا محاصرا خارج الاحداث يزيفون بطولته لتصبح خيانة متى ارادوا · وتعلق في ذهنه صورة الفاتح العربي الفتي ابن القاسم الذي ذهب ضحية غضب عابر للخليفة ثم ينظر لهذا الخليفة فيراه يسلم مفاتيح مدينته للقائد الغازي فيستشيط غضبا ويشد رحال البحث عن الحلول ·· اين الانسان العربي خلال هذه العصور جميعا ؟؟ هذا زمن لا بد ان يأخذ فيه مكانة ويصبح شريكا في القرار ··

ويطلع على الفكر القومي وهو في عنفوان شبابه ونشاطه وآماله الوطنية العريضة ·· وينتقي خطه السياسي على أمل ان يجسد احلامه وان ـ يحمل على يديه وشم دولة عظيمة ـ الا ان خطه ـ يخذله ـ ولا يستطيع ان يرضي طموحاته الوطنية والقومية الملحة من جهة ، ولا يستطيع هو الاخر فهم المواقف ـ التكتيكية ـ التي يعتبرها خروجا على منطلقاته ونسفا لاهدافه السياسية من جهة اخرى ، ويصطدم بخطه اخيرا فيتركه شارعا في رحلة بحث جديدة ·

ما أكثر من يتركون السياسة فيكتفون بالعمل والزواج وانجاب الابناء ·· لكن سبول ليس كذلك ·

وتعزز امام عينيه اللون الاسود من دون الالوان ، ودهنت روحه واستكانت امام عواصف الحزن والالم عندها انتهت لديه رحلة من دون الالوان ، ووهنت روحه البحث المعتمدة على الحقل ، وقفل عائدا الى نفسه ليجرب حظه مع الفكر المثالي ، بعد ان اعياه العقل

وفشل في العثور على اسباب راحته بواسطته · وحين تخفق ذات الانسان في التوصل الى شيء ما عن الطريق التي لا يوصل اليه الا بها ، تستكين للاسهل ·

ولا شك ان الفكر المثالي والديني يقدم للانسان من أسباب الراحة النفسية ما لا يستطيع أن يقدمه الفكر العلمي ، ذلك لان الاول يعتمد على الايمان الغيبي بمسلمات غير قابلة للنقاش تريح صاحبها من عناء التوصل اليها بواسطة مجموعة من العمليات العقلية المعقدة ، فهي تصله جاهزة ولا يطلب منه الا ان يتقبلها وعلى العكس تماما من الفكر العلمي الذي لا يقوم على الايمان الغيبي بل على العقل المناقش الرابط المستنتج المجرب ·

وقد جرب أديبنا حظه مع الصوفية بحذر شديد ، ثم توثقت علاقاته مع بعض المتصوفين ووجد في الصوفية بعض الراحة النفسية لوقت ما ·· واستنجد بقدرية ـ شبنغلر ـ في محاولة لتعزيز هذه الراحة · فكتب مخطوطه في القومية والفكر القومي ـ هذا المخطوط الذي يقوم على قدرية انتصار العروبة ـ محاولا حشد كل ما في جعبته من شواهد لتأييد ما ذهب اليه من اجل اقناع نفسه واقناع الاخرين · وقد تمسك سبول بهذه الفلسفة علة يجد فيها اطمئنانا لروحه المتعبة التواقة للراحة بأي ثمن · لكنه في الواقع عاش حالة من الازدواجية الفكرية مذ وقف على ابواب هذه التجربة فقد رتل القرآن بصوته الاجش ، ولكنه ظل يغني ـ يا بابا بدي انتصار ـ كما لم تنعكس الصوفية على مسلكه واخلاقه بشيء ·· فقد بقي يجالس الشباب ويجاملهم في المأكل والمشرب ولم تكن الصوفية لتطغى على فكره وتطمس خلفيته العملية الى الابد ـ كما لم تستطع قطعة من جذوره من الحياة اليومية ومعاناتها واهتماماتها ، بما في ذلك الاوضاع السياسية والاجتماعية في وطنه والعالم · ولهذا نراه يخرج من صوفيته كالثور ، يركض من بيت الى بيت يتحدث مع الاصدقاء بحرارة وهو يشم رائحة الفرح من بواريد تشرين ١٩٧٣ · يا لها من حرب الهبت المشاعر ، كانت طوفانا حقيقيا ، ولست اشك ان تيسير سبول قد اهتاج في ايامها الاولى ورقص على الدروب وصاح في الطرقات ·· وركض وخلع ثيابه وجن ·· ثم ماذا ؟؟·· في الخامس

عشر من تشرين الثاني ، اي بعد حوالي عشرين يوما من وقف اطلاق النار سدد سبول رصاصة الى صدغه وانتحر ·· ان صديقا له اعلن ذلك · يقول صديقه : منذ ان تكشفت حرب تشرين عن خيمة الكيلو (١٠١) بدأ الرجل يدخل حالة الجنون ، لم يعد عقله يحتمله ، ولقد حاول هو وحاولنا نحن معه ، غير أن عقله كان انفجر ···

لقد اعتقد سبول انه يعيش يوم الفرح الموعود مع تشرين فتذكر قول أم - عربي - لا بد للحزينة من يوم تفرح به - الا أن رائحة العبور المعاكس على - القناة - داهمت فرحه وذرته مع الرياح ، فكتب مرثية عن النصر المزيف :

« أدري بأنني لو بكيت مصير شعبي لو أعارتني ثكالى النوق حنجرة سدى ،
أزجي لسيناء العجوز
نحيب شعبي لا صدى ،
عشرون ألفا مقلة نقر العقاب
لا تهذ بالنصر الملفق انني انبيك
خذ :
النور غاب
والليل أطبق
فليكن ليل - وكان » ·

لقد تبينت لسبول اثر تشرين كذبته على نفسه ، تلك التي تردد في نشرها للناس - كما اسلفنا - فاكتشف بعدها نفسه على حقيقتها ·· هذه النفس التي لم تستطع - القدرية - والصوفية - بما فيهما من ايمان غيبي ، أن تقدما له اسباب الراحة ·

والواقع ان اديبنا لم يكن متصوفا حقيقيا في يوم من الايام · بعكس ما ذهب اليه بعض الدارسين ، فصوفية سبول وقدريته لم تكونا اكثر من حالة هروب لا شعورية مما جلبه له البحث العقلي من الام واخفاقات وليس هناك أي دليل على صوفيته الحقيقية

لا في مسلكه ولا حتى في افكاره ومناقشاته ومواقفه ، فالمعروف ان الصوفية تعزل صاحبها عن الامور الدنيوية فلا يعود له شأن بالدنيا وما يدور بها من قريب أو بعيد •• ربما يكون للصوفي رأي في هذا الامر أو ذاك •• هذه المسألة او تلك •• لكن هذا الرأي لا يصل الى درجة المبادرة الحامية من قبل الصوفي ، فالصوفي مثلا لا يكلف بالامور السياسية هذا الكلف الذي استمر معروفا عن سبول • ولن يكون للقضية الوطنية او القومية اي وزن بنظره الا من خلال تأثيرها في قضيته الكبرى ، بينما كانت المسألة الوطنية والقومية عند سبول هي قضيته الكبرى بحد ذاتها •

واذا ثبت بطلان صوفية سبول فان انتحاره قطعا لن يكون تتويجا لهذه الصوفية ، كما لن يكون الموت بالنسبة اليه بداية رحلة جديدة للبحث ، لان سبول يعرف جيدا ان جميع الرحلات تنتهي عند هذه المحطة •

لقد شعر تيسير في اواخر ايامه بأنه يموت من الداخل • وحين خبت جذوة الحياة في نفسه قلب الامور من جميع جوانبها واعتقد أن قضيته تكمن في بقائه في المدينة ، وفي محاولة لانهاء هذا القلق الذي يلازمه ، فكر بالعودة الى الريف والعمل في الزراعة ، في مسقط رأسه في ـ الطفيلة ـ •• وكانت هـذه الفكرة دليـلا علـى شعوره بالهزيمة والموت الداخلي والاندحار • أما في مجال الانتاج الادبي فقد كتب في العدد الثاني من مجلة ـ صوت الجيل ـ لعلي لن اكتب اطلاقا لانني لا أملك شيئا أقوله للقراء ، ولم يكن هذا الكلام صحيحا في واقع الحال ، وليس صحيحا ان اديبنا لم يعد يملك شيئا ليقوله للقراء لكنه الشعور الداخلي ـ بالموات ـ وعبثية الاستمرار • ذلك سر ـ الموات ـ الذي يسبق الاقدام على الموت الفيزيقي وتنفيذ الانتحار كما يؤكد ـ دوركهايم ـ • ان مرثية ـ القافلة الاولى ـ والرحلة ـ والسؤال ـ والمستحيل ـ واشباح الرجال ـ تؤكد هذا الشعور عند سبول ، رغم انها تنسف حديثه في مجلة ـ صوت الجيل ـ وتثبت أن سبول لا يزال يملك ما يقوله وانه لم يفلس من الكتابة والابداع ـ كما خطر للبعض ـ لكنه الشعور الداخلي بالموت •• يوحي له أن يردد هذا الكلام الذي ينبىء بالضياع ، وقد نشر الشاعر

السوري ـ علي الجندي ـ مقالا ضمنه مقاطع حوارية من اخر لقاء له مع أديبنا يكشف عن حقيقة هذا الشعور لديه ٠

دور الشعر ، الكتابة ، لماذا يا رجل ؟ ماذا يعني كل ذلك ؟ ماذا يعني كل شيء ؟ ماذا بقي للعيش ٠٠ حتى ؟

ـ تيسير ، هذا ليس منطقيا ٠ لنا من مبررات الكتابة ، بل الحياة اقوى والشعر حقيقة ٠

ـ ليسقط المنطق ، القهر أقوى ٠ الموت هو الحقيقة النهائية ٠

وقد ضاع سبول عبر طرقات البحث المرهقة ، وواجه القهر بحسه المتطرف ، وبحسه المتطرف ايضا ذاق طعم الهزيمة ، فكثر حديثه عن ـ الارض اليباب ـ و ـ شتاء الموت ـ ٠٠ ووجد نفسه يردد القول الذي طالما ردده ـ عربي ـ بلسان كل عربي عبر التاريخ : اضاعوني وأي فتى اضاعوا ٠٠ وفي محاولة يائسة لمواجهة الضياع ، خطر بباله خاطر غريب ، هو احدى خواطره اللامعقولة ، وكان ذلك قبل موته بأيام ـ فأسر لبعض اصدقائه بفكرة تشكيل جمعية لمكافحة الحزن ٠ وكان الاقتراح المعهود : تشكيل رابطة للكتاب الاردنيين ، لكن الاصدقاء ضحكوا واعتبروها واحدة من شطحات سبول اللامعقولة ، الا انهم عرفوا درجة الحصار الذي كان يعاني منه صديقهم حين سدد الطلقة الى رأسه ، وانكفأ الى الابد ٠ معلنا انتهاء الرحلة ٠

هذه قصة انتحار سبول : شاب ذكي ، عصبي المزاج ، حاد الطبع، حساس، وطني ثوري ، تطرفه وصدقه يجلبان له المنغصات الحياتية باستمرار ٠ يتجول حاملا احلامه القومية العريضة يحاول العثور على الموقع المناسب لتجسيدها فيفشل في اكثر من تجربة٠٠ تشكله النفسي يحول دون تصريف الامه التي تكبر معه وتتضخم ٠٠ وتضيف الاحداث اليها في كل يوم جديدا فتصل الى حد لم تعد روحه قادرة على التحمل ٠٠ ويصل الى درجة الانهيار التام من الداخل ٠ ولا يظل أمامه الا ان يحشو مسدسه ٠٠

هكذا تشكل سبول وساعدت الظروف في اعداده لتحكم عليه بالموت بهذه الطريقة ليس الا ٠٠

الرواية والقصة

أنتَ مُنذ اليوم

١

رأيته من النافذة ، واقفاً بباب المطبخ وبيده العصا ، ينظر شمالا من حيث أتت ، بيضاء منسابة الخطو ، وفمها يتلمظ . خشيت أنها قد تدخل الصالون فقررت أن أخرج .

رآني أنسحب فأشار واضعاً إصبعه أمام فمه ، وبيده الأخرى أمرني أن أبقى حيث أنا .

سار نحونا فعرفت أن القطة قد دخلت وأن العملية ستبدأ . لا أريد أن أراها .

سمعته يصفق الباب فعبرت إلى الصالون وهناك التقينا الثلاثة ولا مجال للخروج .

تلمست الزوايا وهي تموء بخوف . تبعها وضربها قاصداً الرأس فأصاب الظهر . تدحرج جسدها مرتين ولاذت بالنافذة .

وسمعتُ صوت مخالبها المحتكة بالزجاج . تقدمت ، فضربها وأصاب الرأس ، فنفر دمها ورش الأرض .

ارتدّت إلى النافذة الثانية تموء عالياً ، واحتكت مخالبها بالزجاج . وعاجلها على الرأس بضربة أخرى . سمعتُ صوت تنفسها المختلط بسائل الدم . وانتفضت نفضات سريعة واستلقت وجنتها على الأرض . ونفض أنفها مزيداً من الدم ، ثم سكنت ... عيناها ظلتا مفتوحتين .

في صحن الدار ، بين شجرتي الكرمة ، تحلقوا ينتظرون المدفع . رأيت الشمس تُسقط آخر شقفة من قرصها في الأفق الغربي ، وقد خلفت كثيراً من الشواظ الأحمر . ورأيت المؤذن واقفاً فوق صخرة على قمة

الجبل ينظر في ساعته ويعيدها إلى جيبه .

ورأيت أمي في صحن الدار تعبر حاملة صينية الرز ، والبخار يتصاعد إلى وجهها المحمر .

سمعت أمي تناديني .

— تعال وتعشَّ يا عربي .

ثم رأيت المؤذن يحلق يديه حول فمه ، ويصرخ :

الله أكبر الله أكبر

وانفجر صوت المدفع .

اللحم مطبوخ باللبن ...

أقبل على إعادة تنظيمه فوق الرز باهتمام صارم ، ولحيته الصغيرة البيضاء تتحرك مع حركة وجهه الناشف المدبّب .

ورأيت وجه أمي معروقاً ، وجلد ما بين عينيها منكمش بخطّين واضحين .

اللحم كله فوق الرز .

ليس كله بل تنقصه قطعة الكتف . كيف أمكنها — قطة بذلك الحجم — أن تلتهم القطعة بأكملها ؟ وما يدريك ، فلعلها أطعمت إحدى أخواتها أو ربما أطفالها .

انتزع أبي اللسان . قطعة مفضلة عنده .

لكن لماذا عادت ؟ لن يكون لها عشاء بعد هذا العشاء الأخير .

— كل يا ولد .

إنتهرني أبي .

ـ مالي نفس .

وانسحبت

قال لي صابر :

ـ هل تحضر الحفل ؟

ـ لا .

وفكرت انه ، بدوره ، غير راغب في حضور الحفل .

كان الأصيل يطبق على الجامعة . في الحديقة رأيت عدداً من الطلاب يسيرون مثنّى مع البنات وبعضهم يجلس على الكراسي الخشبية .

ـ هل تذهب معي إلى أبي معروف ؟

ـ ولكن الحزب هو الذي ينظم الحفل ...

ـ لن أذهب ...

ـ إلى أبي معروف ...

وخرجنا من البوابة الرئيسية فرأيت الأوراق الصفراء على طول الرصيف ، والأشجار نصف عارية .

صباح اليوم التالي كان رأسها مفصولا عن جسدها ومسلوخاً . رآه عربي عندما فتح الباب فاختبطت معدته . فأشاح ، وأسرع هابطاً إلى المدرسة .

فيما كان خطباء الحزب يعددون أعداء الأمة ويرسمون معالم الوحدة العربية الصحيحة ، جلسا يشربان العرق في البار الصغير الذي ليس

أكثر من غرفة شحيحة الضوء .

لغير ما سبب واضح يفضّل عربي هذا البار . أبو معروف أقل أصحاب المهنة اكتراثاً بالزبائن . مازاته قليلة . إذا استزدته قدّم لك القليل ، ووجهه واضح الاستياء .

لكنه مكان مناسب .

تحدث عربي عن مصرع القطة . وتحدث عن أماسي رمضان في القرية ، وعن أبيه النحيل ذي العينين كعيني الصقر .

سرد قصة الخناجر الستّ ، والحزام الجلدي العريض الذي يثنيه عندما يضرب زوجاته به ليكون أشد وقعاً .

رآه عربي يستعمل الحزام الجلدي كثيراً . لم يره في الهجيج إبّان رحيل بني عثمان ، إلا أن الرواة أكدوا أنه رجل بندقية ممتاز .

لكن من الذي سلخ جلدها عن رأسها ؟ إما الكلاب أو القطط الأخرى . لا يبدو لك الأمر مهماً ولكنه مهم . ألا ترى ؟ فالقطط هي أخت لها .

قال صابر انه يفهم كل هذا ، وإنه بدوره يذكر أمه المجنونة التي دفنوها على ربوة عارية ، لكنه يعتقد أن واجبها كان يقتضي المشاركة في حفل الحزب .

وقال عربي انه يكره جداً أن يذهب ليرى الشعراء الذين يضربون الأرض بأرجلهم ... فالإستعمار في الحقيقة ليس تحت أرجلهم .

وقال عربي ان أمه لم تكن مجنونة ، ولكنها كانت كثيرة البكاء . وقال انهم جميعاً ليسوا إلا واحداً من اثنين : غاضب يصرخ أو ذليل يبكي .

وقال عربي انه يذكر رسالة قديمة غامضة فيها كلام كثير . ما عاد في رأسه الآن إلا كلمات « باب الواد ، أزيز الرصاص ودوي القنابل ».
لكنه يعرف أنها من أخيه الكبير الذي حارب اليهود .
« بعد قراءة الرسالة » قال عربي « ظلت أمي تبكي طول النهار. »

كان الوقت صيفاً عندما عاد أخوه المحارب . وضع الطعام في صحن الدار بين شجرتي الكرمة وتحلّقوا جميعاً ، والمحارب في الصدارة ببزته العسكرية . حتى أبوه لم يكن مهتماً بالكوسا المحشي : استمعوا إلى قصص المعارك باهتمام . وكانوا يوقفون اللقم على حدود أفواههم عندما تصل القصة حداً مثيراً .

ــ اوقفوا الرماية !

صدرت لنا الأوامر . ورفضت الأمر .

لكن لا حول ولا قوة إلا بالله ... نفذت الذخيرة !

ثم اختلط الكلام بالغضب وتحدث المحارب عن أنهم كادوا يعدمونه.

ــ الله يجازي ...

وأطبق على حلقة الطعام الجو المكروب نفسه ، فكأن أخاً بعيداً لم يعد.

ورأى عربي أن المحارب لم يجلب معه مسرة فلم يحبه .

أدى الولد صلاة العشاء وجلس مثقلا .

سمع صوت أبيه آتياً من صحن الدار يحدّث مجلس الساهرين بقصة زواجه . قصة سمعها عربي مرة بعد مرة تروى للساهرين. فضجر وخجل منها .

قرأ في كتاب الدين صفحات لم يشرحها الشيخ بعد ، وفهم ان ما من امرىء مؤمن ذكر الله وحيداً فبكى من خشية الله إلا وأدخله الله الجنة .

لقد أدى فريضة العشاء وهي واضحة محددة ، إلا أنه لم يكن يشعر برغبة في البكاء فأسف .

سأله صابر عن أموره مع عائشة .

قال عربي إنها فتاة ممتازة تعرف الوقت الملحّ لتصعد إلى غرفته ، لكنه غير مرتاح لأنه يسبب لأخيها ألماً واضحاً .

– فليأخذه الشيطان .

لا يريد أن يأخذه الشيطان (كلنا له أخت) وهو عدوه دون أن يرغب .

قال صابر ان هذه بأجمعها قيم قسرية لا خير فيها .

– لي أخت متزوجة من عسكري فرسان مثل البغل . يضربها ولا تريد الطلاق بسبب الأطفال . هل تعرف بماذا نصحتها ؟

– بماذا ؟

– أن تتخذ لها عشيقاً !

وفكر عربي غير مصدق تماماً ... إلا أن الرواية أذهلته .

يقرأ في التاريخ ، يحب الطيبين ، يتخاصم مع السيئين ...

لماذا يتألبون على الامام ؟ هوذا واقف بباب الدار غروباً يشخص ببصره إلى السماء ودموعه تنسكب على لحيته البيضاء وهو يقول :

يا دنيا غري غيري

يا دنيا غري غيري
غـري غـــيري
قد طلقتك ثـلاثـاً
لكن المشكلة أن عثمان قد بشر أيضاً ...

وافق بسرعة على أهداف الحزب وتهيأ مضطرباً للانتساب .. المعلم بذاته سيقوم بالمراسم . وسار مع الطالب من الصفوف العليا إلى الموعد السري الخطر .

تحت شجرة جوز هائلة كان المعلم ينتظر . وخجل عربي من بنطاله القصير . انه لا يتناسب مع جلال الموقف ....

سمع كلمات الإطراء لشخصه ، وكلمات كبيرة تصل بينه ، ببنطاله القصير ، وبين بالأمة بأكملها .

كان مستعداً لأن يضيف الى كلمات القسم على الوفاء للحزب ، تأكيداً أكثر ، لكن الوقار المفاجىء أوقفه عند حدود القسم لأن القسم ليس لعبة ...

ثم تقبّل تهنئة الأستاذ وتهنئة الطالب بالصفوف العليا وشعر بخطورة ما يحتويه سراً ، وأمتلأ بشعور غير واضح ، لكنه رائع .

ودخّن السجائر في تلك الاجتماعات السرية وقرأ الكراسات الصغيرة .

صرخ ممسكاً برقبتي :
ــ أين النقود ؟
ــ لا أعرف .

– يا ابن الكلبة ، لمن أعطيت النقود ؟
– يا أبي ، والله لم آخذها .

هوية هائلة من الكف . رأيت شيئاً أحمر :
– يا أبي !
ولم أعد أرى .
– ما أخذتها ، والله ما أخذتها .

ثم لم يعد يجثم فوق جسمي . رأيته يضرب أمي وسمعتها تولول فهربت .

في المساء اتضح أن الأمر كله لا يعدو أن يكون غلطاً في الحساب .
– تعال وتعشّ .
– لا أريد .
– يا ولد تعال وتعشّ .
– مالي نفس ... مالي نفس .
والليل يجثم ثقيلا .

●

رأى أنه يجلس على السطح وأن الأفق مليء بالشواظ الأحمر . سكون. وفجأة تهب ريح عنيفة. يحاول أن يمسك بشيء فلا يجد. يقذف به من السطح العالي ويسقط على الأرض ... حيث لا يعود يجد جسده بل يرى ، رغم أنه دون جسد ، سائلا مندلقاً أصفر .
– إنه أنا بعد الموت ... وأسفت .
– أحلامي مختلفة .

قال صابر .
إنها تدور كثيراً حول الزنى بالمحرمات .

وقال صابر انه يؤمن بأخلاقية جديدة . وقال ان الحرية الحقيقية هي أن تكون خارج الخوف ، وأن الحرام هو الخوف .
وقال عربي ان هذه مسائل معقدة جداً وهو لا يجزم بشيء حولها .
وطلبا بطحة عرق أخرى .

٢

مدينة الغبار الكثير والشمس الحارة سماها فيما بعد في دفتر مذكراته « هجير » . تسمية مناسبة تماماً .

المحارب هنا أصبح له كرش . وهو ضابط عهدة للجيش . وما عاد أحد يريد إعدامه .

مدينة فريدة على أطراف الصحراء قامت على مخيمات اللاجئين والمعسكرات . بيوتها من الطوب الطيني ، تسفيها الرياح الخماسينية صيفاً بلا هوادة . إلا أنه يلاحظ الفارق . الطلاب أنظف ويتحدثون عن السينما والوطن والكتب والأحزاب بشكل باهر الوضوح .

قال للرفاق بأنهم عانوا من نقص الكراسات العقائدية هناك وإنه يعترف بنقص ثقافته ويريد المزيد فطمأنوه وامتدحوا رغبته .

أصائل هجير اللاهثة من الظهيرة ما تزال .

يجلس المحارب وزميلاه في الجندية – عبد الكريم النحيل ذو الوجه الأبرص ، وحمد القصير السمين الغليظ القول – يرشون الحاكورة بالماء فتصعد رائحة الأرض المبتلة . وتفتح زجاجة العرق وتجهز متطلبات الشراب . على الدكة المرتفعة يجلسون يتقارعون الأقداح . يقهقهون ويستعرضون سرقات العهد .

– صغرت يا خال !

ما من أحد منهم خال لاحد ، ولكنها طريقة في التعبير .

والسرقات الكبرى كما فهم عربي هي المحروقات والذخيرة . أما الحرامات والمواد الغذائية فيسخرون منها .

– هات يا عبد الكريم !

يضحك المحارب كاشفاً عن أسنان غير نظيفة .
وبصوته الرنان يغني النديم :

أماناً أيها القمر المطل ... ومن جفنيك أسياف تسلُّ
يزيد بهاء وجهك كل يوم ... ولي وجه يموت ويضمحل

وتفرغ الأقداح – وتملأ .

وكان جار للإمام الأعظم يسكر ليلا ويغني مبتدئاً بصوت « أضاعوني وأي فتى أضاعوا » .
وكان الإمام يحب الاستماع لِصوته بعد صلاة العشاء .
أما الفتى ابن القاسم فقد كان ينشد « لا اله إلاّ الله » على حدود السند ، حين غضب عليه الخليفة وأمر بإحضاره مقيداً على بغله .
عبر البراري ، وفي مسيرة الكرب ، تطلع القائد اليافع ورأى الشمس الغاربة ورأى أن الأمر عظيم . فهمس لنفسه :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر
وصبر عند معترك المنايا ... وقد شرعت أسنتها بصدري

ثم إنهم قدموه للخليفة الغضبان فأمر بجلد بقرة فوضع الفتى فيه وخيط عليه ، وأمر الخليفة بنار فأوقدت وأمر بالفتى فرمي إليها .
وفي هجير يغني عبد الكريم أحياناً :

واسترجعت سألت عني فقيل لها
ما فيه من رمق دقت يداً بيد

ندد المذيعون بصانعي المؤامرات .

وسموا أسماء معينة كثيرة . وقال عربي : طبعاً كلهم فاسدون .
وسُرَّ كلما قال مذيع بأن في مكان ما من العالم قام أناس بذبح حكامهم .
ولم يهتم بجلود رؤوسهم ، بل إن بعض الجلود سلخت ، وسُرَّ عربي بذلك .

ولاحظ عربي أن الخادمة التي يحشرونها تنام معه في الغرفة . وهي بيضاء الجسم حتى ينحسر الغطاء عنها .
كانت غائبة عن حسه لفترة . ثم عرّاها ورأى أن جسدها الداخلي نظيف جداً فجاس خلاله بلذة .
ويبتئس حين يرى أن وجهها ، بعد أن تضع ملابسها ، وسخ جداً .

وقال لنفسه :
أحب أن أحمل وشم دولة عظيمة . أنا متأكد من هذا . غير أن الكراسات الحزبية تضجره . لقد عرف بأنها متشابهة ولا معنى لتوزيعها كل اسبوع . يسقط الاستعمار . نعم ، لكن كيف ؟ لم تكن الكراسات مفصلة ولم تحمل له الاكتفاء .
لم يقل لرفاقه ذلك . ولم يقل لهم أنه ما زال يتفاهم مع شخصيات قديمة ميتة . وعرف أن شيئاً كهذا سيضحكهم. والحق أن أحب أصدقائه من خارج الحزب .

ولأن الخادمة ظلت وسخة الوجه ، أحب من بعيد صبية سمراء

تغدو لمدرستها كل صباح في الميعاد نفسه .

جمع شجاعات التاريخ مرة وحاول أن يعطيها رسالة فاعتذرت بأن الناس يرون .

كانت أمي تقول « نحن نرش السكر على الموت » . يقيناً أننا نفعل . كانت تحفظ كثيراً من الأقوال المكربة المشابهة .

قلت لأبي :

ـ لماذا يا أبي ؟ لماذا بهذا الحزام العريض تضربها ؟

تضاحك وعبث بلحيته الصغيرة . كان في إحدى لحظاته المرحة :

ـ الله يلعنك ويلعن أمك .

ليست فرصة المداعبة من طبع أبي حتى عندما يستخفه المزاح . إلا أن عينيه الصغيرتين تدوران في المحجرين .

لم يكن يلعنني في الحقيقة . طريقة في التحبّب ولم أسرّ بها .

ستة خناجر طعنت جسده . وسار عشرين كيلومتراً . من أجل الأرض ثُقب جسده تلك الثقوب الستة . تمدد على الفراش أربعين يوماً . وتهامس بعضهم مؤكداً أنه لن يعيش بعد .

ذات صباح ترك فراشه وخرج ليرى الأرض .

حلم :

يسير في الشارع قلقاً على شيء ما أضاعه . يمرّ باص . الكوى مليئة

بالوجوه . في المقعد الأخير تجلس هي . وجهها مختلف ، خفيف ومنفوش كوجه شبح .

– إنها ميتة .

جرى سريعاً وراء الباص دون أن يدركه . الوجه المنفوش يلتفت خلفاً . ينظر إليه كأنه يدعو .

أراد أن يصرخ « يا أمي » ، فاكتشف أنه بلا صوت .

وارتفعت أصوات تزمر من خلفه ، فالتفت . إنه يعيق حركة السير . الناس حانقون يشيرون إليه ويصرخون .

والتفت يريد الباص ولكن الباص اختفى .

استمر المذيعون يشتمون .

وقرأ عربي مزيداً من الصحف والشعر . كلهم غاضبون بسبب النكبة . إلا أن عربي لم يفهم .

كان قد سئم من الخادمة واستمر يجوس في جسدها الأبيض ، ثم يكتشف وساخة وجهها فيتقزز ...

وحين قالت له فتاة نظيفة الوجه أنها لا تمانع في أن يعرّيها فعل وكفّ عن الخادمة . وأيضاً ضجر من الأخيرة .

واستمر يقرأ ما يكتبه الأدباء والصحفيون والسياسيون عن مصير الأمة . واعتقد أن هذا الذي كتب يكفي لتسويد دجلة ثلاثة أيام كاملة .

وقال المذيعون بعد مدة ان الذين ذبحوا أعداء الشعب سابقاً هم أنفسهم أعداء الشعب ، وأن جلود رؤوسهم حرية بالسلخ . واعتقد عربي أن هذا سخيف .

وقلّت رغبته في قراءة ما يكتبون لأنه ، مثل الكراسات الصغيرة ، شيء معاد .

وحنق عربي على نفسه لأنه بعد أن يضجر من جسد البنت العاري لا يعود راغباً في أن يلمسه .

من حين إلى حين رأى أناساً يملأون الشوارع متصايحين بغضب ضد الحاكمين . فليذهب الحاكمون إلى جهنم . لا أسوأ منهم بشراً .

ينزل العساكر بخوذاتهم الفولاذية ووجوههم المطلية بلون أسود . يرشق الناس العساكر بالحجارة ويرشق العساكر الناس بالطلقات . تسقط اللافتات المنددة ويهرب الناس متفرقين . بعضهم يظل على الأرض ممدداً وربما يموت .

لم ير عربي ما يحدث للممددين على الأرض لأنه يهرب . ويشكون في المنزل من عدم وجود الخبز ، بينما الأناشيد الثائرة في المذياع تندد بعملاء الاستعمار وبعضهم الآخر يندد بالمخربين .

ثم يعود الخبز فيظهر ثانية . وتظهر الخضراوات .

ولم يعودوا يجتمعون أسبوعياً . « ظروف استثنائية » ، قال الرفيق المسؤول . حتى إنهم لم يجتمعوا مرة في الشهر .

وفكّر عربي بأن الأمر هكذا أفضل .

٣

في الساحة الأمامية كانوا يتراكضون . يمسك الواحد بالآخر ويضربه بيده ، ويضربه برجله . ويركض آخر من زاوية ويضرب الأول على رأسه بجذع غرسة اقتلعها للتو من الحديقة . يسقط هذا أرضاً ، ويسقط آخر واثنان وثلاثة ، وتركض مجموعات جديدة . ويعلو الصياح والشتم .

إحدى الجماعتين اكتشفت وجود كومة من الحجارة عند زاوية المبنى فاستولت عليه وقذفت الجماعة الأخرى بعنف . وسقط أربعة وسال دمهم على الأرض .

هرب المندحرون شمالا وصعدوا المدرج إلى مبنى المكتبة . تدافعوا وسقطت عليهم حجارة كثيرة . ثم أصبحوا جميعاً داخل مبنى المكتبة وأغلقوا باب الزجاج . وركض عدد كبير من الطلاب وراءهم وكسروا الباب وهم يشتمون .

ثم خرجوا يقتادونهم ، واحداً واحداً ، ويضربونهم على رأس الدرج ويدحرجونهم للأسفل .

عبر الأسوار وعبر باب الجامعة يركضون هاربين . لكن بعضهم يفشل في القفز فوق السور فيمسك به طلاب غاضبون من جديد : « يا شعوبي يا وسخ ... » . ويضربونه للمرة الثالثة أو ربما الرابعة .

خارج الأسوار كانت سيارات الشرطة والمخابرات تنتظر . تُملأ بالهاربين من فوق السور وتذهب بهم إلى مكان ما .

كان الزعيم غاضباً جداً من الشعوبيين ، فأعلن أنه يترك أمرهم

للشعب . في الجامعة قال لنا الرفيق الكبير أن نتأهب لنؤدب الشعوبيين .

ما أحببت الرفيق الكبير في الجامعة . أعتقد أنه ليس إلا أحمق كثير الكشف عن أسنانه ، فيما يعتقد أنه يضحك .

وأظن أنه كان يحب النساء أكثر من الأمة . وعندما كنت أسير مع طالبة شعوبية سمراء عرفتها منذ زمان سابق ، التقاني وكشف عن أسنانه وقال :

— عرفني عليها .

— لماذا يا رفيق ؟

— بلا رفيق بلا بطيخ — عرفني عليها ... هاها .

— إنها شعوبية .

— ما يخالف ، عيني ... ما يخالف .

لم أعرفه بها ، ولم أستفد ، أنا شخصياً ، من معرفتها .

قال المذيع إن الشعوبيين وحوش دون خلق ، وانهم قد دفنوا الناس أحياء أو سحلوهم ، وعلقوهم على أعمدة النور ومثلوا بهم ...

وقال الرفيق الكبير إن المقصود بالناس هم أعضاء الحزب وشهداؤه الخالدون .

لم يهتم بكونهم شهداء الحزب . كان ممكناً ألا يصدق كل هذا لولا أنه قرأ قصيدة لشاعر مشهور منهم تقول

سنصنع من جماجمهم منافض للسجاير

وقال عربي إن التفكير بمنافض من هذا القبيل أسوأ كثيراً من سلخ رأس قطة .

وأكد أنه لا يريد لنفسه منفضة مصنوعة من جمجمة ، سواء كانت جمجمة شعوبي أو سواه . فهو لا يحب الجماجم عموماً .

٤

غادرت المقصف ووقفت برأس الدرج أتأمل النيون يضيء قلب الحديقة الأمامية . كان العشب الأخضر واضحاً. وكان زنار من العتمة يحيط بالمنظر . وعبر الأسوار بدت أضواء الشارع ووراءها أضواء مركز شرطة .

عبرت الساحة إلى البوابة الرئيسية . هنا يكون مركز الشرطة قبالتك تماماً . رأيته قليلا ، ثم انحرفت يساراً وهبطت متردداً . فكرت أن أذهب إلى المكان رغم أنني غادرته حانقاً آخر مرة زرته .

بوسعي أن أصل المكان سيراً إذا اتخذت مسيرتي يمنة . لم أكن واثقاً من ذهابي . ثم إنني لا أريد أن أذهب مشياً . ذلك يزيد المشروع سوءاً .

جاوزت المتحف وسرت بمحاذاة النهر ولاحظت أن حركة السير قليلة وأن الأصوات قليلة أيضاً . وقت مبكر للنشاط الليلي . متأخر جداً للنهاري .

انتهيت إلى موقف التكسيات وكان علي أن أنتظر طويلا في جوف السيارة ، لأن الحركة إلى المكان لم تحمَ بعد . إنهم يذهبون بعد منتصف الليل عادة . لماذا ؟

وسمعت الأغاني الوطنية عبر مذياع السيارة . وكدت أهبط وأغير رأيي . غير أنني كنت محرجاً من السائق .

عندما وصلنا المكان وانتهت زمالة خمسة ركاب غرباء إلا في هذا الهدف ، تفرقنا دون تحية ...

هاجمتني روائح المكان الكريهة حالما عبرت البوابة الخارجية . رأيت زاوية المأكولات أول ما رأيت .. بسكويت ، فواكه ، معلبات الخ ...

اختبطت معدتي فأسرعت أمرّ بنساء الطابق الأول . إنهن الأرخص والأقذر .

في الطابق الثاني الروائح أقل والنساء أقل ضجيجاً . لكنهن يمضغن اللبان أيضاً ويضربن أمكنة خاصة في الجسم .

اخترت واحدة على وجهها معالم بثور ولكنها ليست من اللواتي يضربن أمكنة خاصة .

قالت لي انها لا ترغب في التعري التام وأنه يجب ألا يهمني تمام التعري . ولم أناقشها أكثر ، فحاولت أن تطيب خاطري بإصدار بعض الأصوات الخاصة أثناء العمل ، فرجوتها أن تكف .

فصرخت بوجه شيطاني :

ـ فاكر نفسك دون جوان؟

وعبثاً حاولت إقناعها بأن تقبل النقود هبة ، وظلت تصرخ في وجهي .

وأخيراً قدرت أن أهرب تاركاً المبلغ على حافة المغسلة .

صباح اليوم التالي ، استدعيت لدائرة المباحث العامة . أتى رجل قميء الحجم يعرفني ولا أعرفه وأخذني من فناء الجامعة قائلا إنهم يريدونك هناك .

استقبلني رجل وسيم ناعم الشعر أسوده . كان يبدو مهماً . صرف القميء بإشارة من رأسه ورحب بي مؤكداً أن معلوماته عني مشرفة .

زهوت قليلا إلا أن توقعاً خائفاً منعني من استكمال سعادتي .

ـ هل تعرف هذا ؟

مدّ لي جواز سفر مفتوحاً على صورة عرفتها للتو : صديق قديم يدرس الطب في بلاد أخرى حيث يصنعون من الجماجم منافض للسجائر .

ـ نعم أعرفه .
ـ هل هو شعوبي ؟
أطبق علي ولم يعد هناك شعور بالزهو .
ـ أستاذ عربي ، اسمعني جيداً ... لا مجال للتردد في قضية كهذه .
نحن واثقون من شعوبيته . عذبناه ولم يعترف . شعوبي حقير . استشهد بك فعرفنا أنك صديقه . لكن معلوماتنا عنك مشرفة . فقبلنا أن نكسر رأسه بشهادتك .
ومضى يشرح :
ـ مصلحة الوطن قبل الصداقة . هل هو شعوبي ؟
ـ نعم شعوبي .
قلت ... وسمعت صوتي الجاف .

ضغط جرساً فأقبل القميء يسعى ، ثم خرج ليأتي بالشعوبي وأدخله . بدا جلياً كم عُذّب . لم ينظر في عيني أحد ، ولم يعرف من كان في الغرفة .
ـ أنت استشهدت بالسيد عربي ؟
الآن نظر المعتقل وارتجفت عضلة وجنته عندما رآني . ثم أطرق بوجهه موافقاً .
ـ أستاذ عربي ، قل أمامه هل هو شعوبي ؟
كان الوقت قد فات على أي خروج . فسمع صوته يقول :
ـ نعم .
ولم ينظر إلى الصديق القديم ، ولم يصح أي ديك في العالم ، بل كان هناك صمت عظيم مطبق .

على امتداد الشارع الصامت المعتم ركضت . لخطاي السريعة دبيب سمعت صداه في جوف جسدي . تعيّن علي أن أركض فركضت أكثر ..
فجأة عند المنعطف برزت لي شاحنة عسكرية . فات الوقت لاتحاشاها فأدركت أني لا محالة ميت . سريعاً وددته أن يحدث ، فألقيت بنفسي تحت العجلات وقلت « تم الأمر ... » سمعت صوت عظامي المتكسرة . سمعته وانتظرت .
ثم استيقظت في رابعة النهار .

يغدو للجامعة صباحاً ، ومساءاً يشرب العرق مع الأدباء ، وكلهم متذمرون ... إما من الفتيات أو من السياسة .

قال الأديب
ـ أخي ... الأزمة أزمة ديمقراطية . اسرائيل والاستعمار قضية ثانوية . الأزمة هنا ... في الداخل ، الديمقراطية .
ووضع مخللة في فمه . التهمها بسرعة وشرب للتوّ جرعة أخرى من العرق :
ـ ما رأيك ، أستاذ عربي ؟
كنت مهتماً بالبحث عن حبة فستق جيدة ، وعبثاً وجدتها في الصحن كله .
ـ بماذا ؟
ـ بحقيقة الأزمة .
كنت أفكر بأن الفستق المخزون طويلا يعفن . وبحثت في رأسي

عن جواب فما وجدت . كل الفستق كان معفناً .

من غرفتي في الطابق العلوي سمعتهم يتصايحون . صوت الاب والابن يعلو أكثر ، ثم صراخ الأم . ثم سمعت خبطة لا بد أنها على الدرج الخشبي . مددت رأسي من النافذة فرأيت الاب يطأ في بطن الابن ويضع يده في فمه كأنه يريد أن يمزقه ... وفم الابن يزبد ويداه تطوحان في الفراغ بحركات غير مجدية . .

وكانت عائشة تصرخ أيضاً ، والأم تحاول أن تدفع الاب وهو يصرخ :

ـ خليني آذبحه ، خليني أذبحه !

أغلقتُ النافذة وانسحبت إلى سريري ، فخفَّ صياحهم ، ثم لم أعد أسمعه .

كان علي أن أنتظر طويلا قبل أن تصعد عائشة إلى غرفتي .

وقفت بالباب تنظر بعينين سوداوين ورموش طويلة ، كذئبة تبتسم بغموض .

ـ ادخلي يا عائشة !

واستمرت تنظر .

ـ ادخلي يا حلوة ، أحضرت لك بقرة شيكولاته .

رفعتُ الدمية الحلوة ومدَّدتُها لها ... ضحكتْ وكسرتْ رجلها للتو وابتدأت تأكل .

ـ ما هذا الذي جرى تحت ؟

ـ علي ... ضربه بابا .

ـ ولماذا يجب أن يضرب بابا علياً ؟

كسرتْ رجل البقرة الثانية وبدأتْ تأكلها .
ـ لا تعرف ؟
وابتسمت .
ـ لا ..
ـ شيطان أنت .
ـ كم عمر علي ؟
ـ ٢٥ سنة .
ـ سن مناسبة تماماً .
ـ مناسبة لأي شيء ؟
ـ لا لشيء . قولي : هل كان بابا يضربه قبل أن أسكن عندكم ؟
ـ كثيراً .
ـ كنت تصعدين لهذه الغرفة ؟
زمّت شفتيها بغضب .
ثم إنني نسيت علياً فأقبلت عليها وزوبعت رائحتها في جمجمتي .

مخطىء أنت يا صديقي .
لماذا تكرهني أنا ؟ لا شأن لي . إنها الغرفة في الأعلى . هذا ما يجب أن تكره . دفعتُ أجرة إضافية لها ... أجرة ترهق مخصَّصي الشهري من النقود . ولعلي أرفَقُ بك يا صديقي . فعلى الأقل لا أعتقد أنك يجب أن تذهب إلى جهنم .

ولماذا يزعجك شرفها إلى هذا الحد ؟ ألم تفقد أنت نفسك ما هو أكثر ؟ وإلا فلماذا أنت ، وهمْ جميعاً هنا ؟ في هذه المدينة ، البعيدة عن مكانكم ؟ وعليهم يا صديقي أن يؤجروا غرفة ، وإلا فكيف ستذهب للمدرسة يا علي ؟

واتفق أن كانت لهم عائشة ، وكان لا بد لها من أن تصعد للغرفة العليا . وهم لا يفعلون أكثر من أن يأخذوا بعض الليرات الاضافية . أما هي فصاعدة للغرفة في كل الظروف ...

ألا ترى أن من حقك ألا تشقى لمثل هذه الأمور ؟

كنت أراهم في كل مكان . في هجير . والعاصمة هناك والعاصمة هنا . في كل مكان هم موجودون ، أقلة لهم خدود نظيفة لم يعودوا منهم . أما في الأزقة وبين الخيام فأطفالهم دائماً وسخو الوجوه ، موحلون ، وكأنهم عصافير خرجت للتو من بوري صوبة .

دائما يتصايحون ، على الأبواب التي توزع البقج يتدافعون . يرفس الواحد منهم الآخر ، العجائز القبيحات والشبان بسحناتهم غير المسرّة والصغار الحفاة .

دائما يتصايحون ، حتى هنا عندما اتخذوا سقفاً وأجروا غرفة في الأعلى ، يشتم أحدهم الآخر ، ولديهم دائماً سبب للشتم والصياح .

ترى في تلك الجماجم التي يحملون ، هل يبقى سؤال معلق أبداً : لماذا هم هنا أصلا ؟

المذيعون يؤكدون أشياء كثيرة حول الموضوع . لا أريد المذيعين . أريد أن أسألهم هم ولكنهم دائماً في جلبة .

استيقظ عربي ذات صباح على موسيقى عسكرية :

ـ من ذبح من ؟ ومن يريد أن يحكم مكان من ؟

جسمه مرهق بفعل كوابيس البارحة . فليأخذهم الشيطان كلهم . عما قليل سيعرف الحكاية . لم يحلق ذقنه بل ارتدى ملابسه وهبط الدرجات الخشبية . قبل أن يتمنى لأم علي صباحَ خيرٍ أجهشت بوجهه :

ـ إنقلاب يا سيد عربي .. الله يخرب بيوتهم .

ـ إنقلاب أين ؟

ـ عندنا يا سيد عربي ، يا خراب بيتنا يا ذلنا .

غادر المنزل بفضول متزايد . هل فعلوها ؟ غير معقول . في الشوارع يتحلق الناس حول أجهزة الراديو . ليست موسيقى عسكرية بل أغنية عذبة :

أين الشذا والحلُم المزهر ... أهكذا حبك يا أسمر
أهكذا تمضي مواعيدنا ... وكان منها المسك والعنبر

ليس وقت مسك وعنبر . حقاً إن الضباط لا يخلون من روح الدعابة . طرب عربي واستعرض ذهنه للحظة بعض السمراوات اللواتي عرف .

ثم لاحظ أن الأغنية مقصودة لتكون وطنية . جميل !

قال المذيع « الديكتاتورية المنحرفة جعلت من البلاد مزرعة للمرتزقة من المريدين والأذناب . »

والله ، لقد فعلوها ...

إن عدد العساكر والسيارات الانقلابية قليل . أين هم المدبرون ؟ ماذا سيفعل الزعيم بهم ؟ إنه بعيد جداً .

ـ بيان رقم ٤ صادر عن ...

ـ هست ... انت وهو ... خلّنا نسمع !

رأيت صابر على ضفة الشارع الثانية يهرول ووجهه محمر :
ـ صابر ، صابر !
لوّح لي بيديه وأقبل محتضناً .
ـ ما هذا يا صابر ؟
ـ شيء لا بد منه .
ـ ولكن ...
ـ فهمان ، والله . لكن لا بد منه . هل أنت ضده ؟
ـ لا أدري .

مرت سيارة عسكرية ، لوح ضباطها للجمهور فهتفت أصوات مختلفة . لوّح صابر محيياً ... ووقف عربي ينظر .

ومن جديد نفس الأغنية :

أين الشذا والحُلُم المزهر أهكذا حبّك يا أسمر

وفيما كان عربي يتناول طعام الغداء في مطعم الطلاب الصغير المكتظ أعلن المذيع أن الانقلابيين سيفاوضون الزعيم لتصحيح الأخطاء (لسنا ضد الزعيم بل ضد الحاشية المستغلة التي قادت الانحراف ...)

هلل بعض الطلاب ، وبعضهم زم وجهه واختلط همسهم (مسخرة ، خدعهم ... الخ ...) في الشوارع حمل بعض الناس صورة الزعيم وساروا :

ـ هيك علمنا الزعيم . الخ ...

ثم عاد المذيع وقال إن الانقلابيين غيروا رأيهم وإن الزعيم في الحقيقة ديكتاتور ولا يرجى صلاحه .

ففرح بعض الشعب وابتأس بعض الشعب . وصمت كثيرون ، غير أن المذيع طالب الناس ألا يحزنوا . ووعد بوحدة صحيحة تقوم بين كل العرب .

إلا أن هناك من لم يصدق فبكى ما استطاع البكاء ، ووُجِد أفراد لزموا الفراش مرضاً ، ثم ابلوا بعد يوم أو اثنين ...

اجتمع بعض عرفاء القوم تحت سقيفةٍ ما وأعلنوا أنهم ممثلو الشعب وأنهم لا يريدون الزعيم (ديكتاتور منحرف) ووعدوا الشعب بنفس الوعد : وحدة صحيحة .

ــ وفق الله ذلك الشطر الحبيب ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قال الزعيم . وحزن عربي لهذه الجملة الوداعية .

كفّ خطيب مسجد الجامعة عن مهاجمة الاشتراكيين والملحدين وكرس خطبه لمهاجمة ملابس النساء القصيرة وأمور أخرى تخصصية .

ــ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى .

صرخ الخطيب عبر مكبرات الصوت .

(سبحان الله في طبعه) فكر عربي (حتى هو أصبح يلعب الدبلوماسية ويعرف الوقت المناسب للخوض في الموضوعات . لكنه لا يعدم ما يهاجمه .)

في خياله وضع عربي الإمام على كرسي رئاسة الجمهورية فتقلقلت الصورة وتشوشت . إنها أمور جمالية لكن حقيقية !

عائشة بدأت تتغير عندما تخلى أهلها عن غرفة أخرى لأحد اللاجئين السياسيين .

– كله بقر . بقر .

قالت له عندما أعطاها الدمية الحلوة . (من أين لي أن أنافس السياسي الجديد ؟) أعتذر بأن هذا ما ينتجه المصنع . فرغبتْ في غزال . فأكد لها أن المصنع لا ينتج إلا البقر .

– إن الأمور تسوء تماماً .

أكد عربي لنفسه .

٥

حزمتُ حقيبتي ، وعند أسفل الدرج تحدثت إلى أم علي .
ــ متأسف لأنني لم أخبرك من قبل .. أنا راحل .
ــ راحل ؟ لماذا ، جارنا ؟ هل أغضبك أحد ؟
ــ لا . لكني راحل .

رمقتني عائشة من باب المطبخ بصمت ودون ابتسام . وددت أن أن أحييها بجملة وداعية ، لكنني متعكر وحلقي جاف .
ــ أغضبته يا عائشة ؟
ظلت صامتة ترمقني دون أثر للالفة القديمة .
ــ ما أغضبني أحد ، لا والله ، جارتنا . أنا راحل دون غضب .
ــ اعملي لنا فنجانين بسكر خفيف يا عائشة .
تفضل ، جارنا .. إشرب قهوتك وقل لي ما بك .

ليتها تتركني . ذلك أنني تعبت يا أم علي ولا أريد مزيداً من الصفقات . لا حظّ لي بها . الغرفة العليا ستؤجر ، ربما بما هو أغلى . إنه ثمن مهذب ، ليته لم يكن مهذباً .
عدت أقسم على أنني لست غاضباً من أحد . وحملت حقيبتي وقلت « خاطركم » ... وعبرت في الصمت .

هبطت السوق . على الجانبين تقوم محلات ألبسة النساء الداخلية والخارجية ولزوم الماكياج .

على المصلبات ترتفع لافتات الدعاية الانتخابية .
(صوت الاسلام تحت قبة البرلمان ، انتخبوا ..)
(إليكم مرشح العمال والفلاحين ، ممثل الكادحين ..)
(من أجل القضاء على الاستعمار والصهيونية ، انتخبوا ..)
رأيت ملابس النساء في الفترينات ، ألوانها عديدة وكلها معروضة بشكل خلاب .
ورأيت مزيداً من اللافتات .
(من أجل حياة برلمانية وديمقراطية سليمة انتخبوا ..)
وتذكرت عائشة . لقد أضعتها إلى الأبد .
وبقيت أنقل بصري بين اللافتات والفترينات ، وفي داخلي خواء .

ما الذي قالوا له هناك ؟
قالوا انه يجب الثقة بالحزب أولا ، وأما المواقف المرحلية التي تقررها القيادة العليا فهي تكتيك موقت للاقتراب من الهدف .
ــ يا رفيق ، هل تنسى ما لقي حزبنا من اضطهاد وهو الذي ضحى بكل شيء من أجل الهدف الكبير ؟
ــ بلى ، أذكر .
ــ هل تنكر أخطاء الديكتاتور ؟
ــ لا .
ــ إذن ، يجب أن تؤيد موقفنا من المسألة ...
ــ لا أدري ، لا أظن ... لا ...
ــ ألا تثق بأهداف الحزب ؟
ــ لا أدري .

كان محرجاً ولم يوضح نفسه . لم يستبقِ شيئاً ليوضحه .

قال لهم انه شخصياً لم يعد قادراً على خدمة حزب ، وانه يخدعهم لو بقي بينهم .

– أوهام . يا رفيق عربي ، أنت شريف ولم تخدع طوال تاريخك الحزبي .

تاريخي الحزبي ، أين هو ؟ لم أساهم حتى بضرب الشعوبيين حينما كان ضربهم تسلية .

ما الذي فعلت منذ عمدت تحت شجرة الجوز الكبيرة إلى الآن ؟

لم يقل لهم هذا ، قال لهم انه يتمنى للحزب التوفيق ، أما هو فلا يملك إلا أن يتركهم .

قلت له:

– أبو زهير ، أريد غرفة بسرير واحد .

قال مداعباً:

–كلما طردوك من بنسيون تتذكر ابو زهير .... ها ؟

–لم يطردوني هذه المرة ، أنا تركتهم .

– بنت حلوة ؟

– دعنا من البنات ، الله يلعنهن . هل الغرفة التي على السطح مشغولة ؟

– فيها واحد مجنون ، يرحل بعد يومين ... تنام على السرير الثاني معه ليلتين ؟

– وبعدئذ سرير واحد .

– بأمرك .

صعدنا الدرج ، وقدّمني إلى المجنون : أسمر ، أصلع الرأس مع أنه شاب .

ــ الأخ من أين ؟

سألني . أجبت :

ــ أنا بدوي .

فهش مرحباً .

ــ الله يحييكم ، البدو . فيكم أصالة .

شكرته وأخبرته أن الأصالة معدومة لدينا كما لدى غيرنا . وفهم أنني أتواضع فحسب .

قال المجنون :

ــ عظيم ... كيف الأمور في الجامعة ؟

أخبرته أن كل شيء حسن .

ــ بعد أن صفى الشعب الديكتاتور كل شيء حسن .

عدنا ثانية للأمور المضجرَة والحديث الذي لا غناء فيه . كنت زاهداً في كل هذا فأومأت موافقاً . ها أنا أخيراً على سطح هذا الفندق من الدرجة الثالثة ، يقتحم رجل غريب حياتي ليكرر نفس الحكايا المضجرة .

ــ سوف يكتشف العرب أن الوحدة الطوبائية التي يدعو لها الكاذبون ليست إلا خدعة . وحدات تأخذ بعين الاعتبار العوامل الجغرافية والعرقية ، هذا هو الهدف العلمي والمنتج ... وعند ذاك سيعلم الناس قيمة الزعيم . قلت

ــ أي زعيم ؟

أخبرني أنني أخلط . وأن ليس هناك إلا رجل واحد استحق لقب

الزعيم ... ذلك هو الزعيم الذي أعدمه الجَهَلَةُ والأذناب .

شرح لي أن الزعيم لم يجبن ولم ترتجف خلجة واحدة فيه حين واجه الموت ، وأفادني أن الزعيم أعدم نصف واقف على ركبتيه . فدهشت وكنت أعتقد أنهم يُعدمون واقفين .

– حين سئل الزعيم إن كان له طلب أخير ، أجاب « نعم » .

طوح المجنون بيديه في الهواء وبدا أنه يستعيد لحظة هائلة في خياله

– هل تعرف ماذا كان طلب الزعيم ؟

– الحقيقة أنني لا أعرف .

– «نعم» قال الزعيم. «هناك حصاة تحت ركبتي إرفعها. »

وانحنى العسكري صاغراً وأزالها .

– لكنه الآن ميت .

– هل تموت الفكرة ؟ لا . الزعيم رمز الأصالة الفكرية الوحيد بين جماعة المهرجين .

عاد يطوح بيديه وكأنه يصرخ في وجهي ، فأنبأته أنني قليل الاهتمام بالسياسة وبالزعماء جميعاً .

– هذا سرير واحد وبسعر خاص لا تتركنا للبنسيونات .

– لا مزيد من البنسيونات ، أريد أن أستكمل مذاكرة دروسي وأتمشى على هذا السطح .

ذكرني أنني قلت مثل هذا سابقاً ثم غيرت فكري وحذرني من أن النساء والبنسيونات ستدمر مستقبلي إذا لم أتعقل .

عربي يعاني من الكوابيس ...

واحد منها تكرر كثيراً وزاد جسمه إرهاقاً . يرى نفسه يزاول رياضة قسرية ، ليس بهدف الرياضة وإنما هكذا دون سبب ... ترتفع رجلاه في الهواء ويدور على محور رأسه . رجلاه خفيفتان بل كأن لا وزن لهما . يحاول إسقاطهما ويفشل . تؤلمه عنقه . يقول لنفسه إنني نائم وهذا كابوس ليس غير ، يجب أن أستيقظ ...

يحاول أن يصرخ فيفشل في إيقاظ نفسه مرة بعد مرة .

يدعى الشعب ليختار ممثليه تحت قبة البرلمان فيختار النثار كله من أصحاب اللافتات . خطيب مسجد الجامعة يحظى بوفرة هائلة من الأصوات .

– حبيبي شعبنا شعب مؤمن والحمد لله

– نعم يا أبو زهير ... نعم .

أساتذة الجامعة يصبحون من ممثلي الشعب ومن الوزراء والرؤساء ، منهم من لا تزال كلمات مدح الزعيم مطبوعة في كتبهم التي يقرأها عربي ، ولا يبالي إن كان مطلوباً منه إعادتها في أوراق الامتحان أو تقرير عكسها .

وأقبل رمضان بأماسيه المشبعة طعماً خاصاً مليئاً بالتذكار . في الجامعة يطوف الطلاب المؤمنون ، في عيونهم غضب مهيأ . يفحصون المقصف والمطعم والزوايا بحثاً عمن تسول له نفسه شرب الشاي أو التدخين .

(والعصر ان الإنسان لفي خسر)

فضل عربي الاعتكاف في الفندق ليدخن ويعوض عما فاته من مذاكرة .

لم ير خلع أغراس حديقة الجامعة هذه المرة . وعلم أن الطلاب المؤمنين تصدوا لأحد المدخنين وضربوه فاتحد أعداء الصوم من أعضاء الحزب ومن خصومهم السابقين الشعوبيين وهاجموا المؤمنين .

قيل إن الطلاب المؤمنين استعانوا بقوات مؤمنة من خارج حرم الجامعة . وقيل ان هذا غير صحيح وإن خصومهم في الواقع جبناء .

ليس مهماً ، فقد خلعت أغراس الجامعة للمرة الثانية وانتهت المعركة بأن أخرج المؤمنون أعداءهم وراء الأسوار وحرموا عليهم عبورها طيلة شهر رمضان المبارك .

ظل المذيعون يملأون الأثير شتائم وإهانات متبادلة (ملحدون مخربون .... الخ.) ، (عملاء الاستعمار والرجعيون .... الخ.) ، (الله أكبر من كبوة الاسلام في .... الخ.)

سمع عربي هذا في الشوارع والمطاعم ولم يكن له خيار إلا أن يسمع.

ذات فجر ، قال مذيع غاضب إن ممثلي الشعب في البرلمان هم في الواقع خونة وانتهازيون بل وعملاء للاستعمار أيضاً ، وإنهم أخذوا ووضعوا في السجون . أما المقاليد ففي أيدٍ أمينة منذ خرج الجيش ليمارس مهماته الطليعية .

وفرح الشعب كثيراً .

٦

في المقهى كنا نجلس صباحاً ، وفي المقهى كنا نجلس مساءاً . نتحدث في السياسة ونستمع للمذيعين ، لأن في المقهى زبائن غيرنا .

قال ضابط المخابرات :

– شهادتك تصبح ورقة تافهة بمجرد أن أخط كلمتين هل تعرفهما ؟

ولم أجب .

– كلمتان فقط « لا أوافق » ... لا الحكومة ولا أية مؤسسة وظفك لديها .. مفهوم ؟

– مفهوم .

– ولا تبالي ؟

قلت له إنني أبالي جداً ، ولكنني لا أهتم بالسياسة . وكررت على مسمعه أنني لم أعد حزبياً .

– فهمنا . أنا لا أسألك عن نفسك . أسألك عن أعضاء الحزب العاملين ... أريد قائمة كاملة بهم وباجتماعاتهم التي تعرفها ، ولا أريد تضليلا أو معلومات ناقصة .

قلت له إنني لا أعرف هؤلاء الحزبيين . نعم كنت أعرفهم ولكن حوادث كثيرة مرت وكثيرون لم يعودوا عاملين ...

– تعتقد أنك بمجرد أنك خرجت من البلد أصبحت خارج مراقبتنا . لا . هل أدلك على تفاصيل حياتك أربع سنوات خارج البلد ؟

شكرته وأفدته أنني لا أعتقد شيئاً من هذا القبيل .

– والآن هل أنت معنا أم ضدنا ؟

قلت له إنني لست مع أحد ضد أحد .

ـ لا . إذا لم تكن معنا فأنت ضدنا . شكراً . هل تحب أن أقدم لك قائمة كاملة بتفصيلات كل اجتماعاتك واجتماعات غيرك ؟ ـ إنها لدي ... ولست بحاجة لمساعدتك . انتهت المقابلة .

أنا واثق من أن كامل التفصيلات متوفرة لديه . ليست هذه هي المسألة . لا . إنه مثل زميله في المهنة هناك ، ورغم عداوتهما الظاهرة . إنهما معاً يتدخلان في شؤوني الخاصة .

لم يكن الشباب متفقين على حل لقضية فلسطين . « إنها في السويداء من القلب » ، قال المذيع ولم يشرح .

كان الشباب متنبهين لموضوع الدعاية العالمية : (ظهرنا للعالم وكأننا متوحشون نلقي بالأطفال إلى البحر . يجب أن نركز على إزالة الكيان العدواني لاسرائيل).ولكن كيف ؟ لم يشرحوا الأمر بالتفصيل .

بالطبع لم يكونوا يتحدثون طيلة الوقت عن فلسطين . فهناك الورق والنرد وبعضهم يمارس الشطرنج . ولم يكونوا راضين عن أقوال المذيعين . إلا أن الشباب لم يشرحوا الأمر بالتفصيل .

وهنا مات أبي .

سرت إشاعة بين الشباب في المقهى أن المواطن عربي يكتب رواية فاتى بعض عرفائهم ووقفوا على عربي وسألوه عن صحة الأقاويل . خجل قليلا وأكد أنه يكتب شيئاً غامضاً لا يدري ماذا يسميه .

فحققوا معه حول السبب الذي يدعوه لكتابة مثل هذا الشيء ما دام غامضاً .

قال : أكتبه لأنه يزعجني .

فأقبلوا يفتشون مخطوطته الصغيرة وأتوا عليها بسرعة ثم تحلقوا حوله .

– جميل ، جميل . ولكن هل تلاحظ عدم التماسك في بناء روايتك ؟

– نعم .. هذا الشيء غير متماسك .

– أعد النظر ، ثم ... إنك تقسر التاريخ قسراً عليها .

حاول عربي أن يوضح لهؤلاء السادة أنه ما أحب القسر أبداً . وحكى لهم قصة عصفور صغير دخل عبر بواري الصوبة حتى اسود ريشه تماماً .

« كان لاجئاً » . قال عربي ببشاشة حزينة . « وكانت رجله مكسورة . واقترحت أمي أن تشويه لي . فحملته ووضعته على شجرة الكرمة العارية . أتعرفون ما حدث له بعد أيها السادة ؟ »

– لا .

– لقد جرشته قطة بين أسنانها .

قصة قد تحدث ، ولكن ...

– قصة حدثت يا سيدي ، ما الذي تعنيه بقولك « قد تحدث » .

– نعم .. نعم . ولكن لا علاقة لها بالموضوع .

– لها ، فقد أزعجتني القطة بتصرفها ...

كان فمه مليئاً بالزبد ، وكان يشتمني ويشتم أمه ويطوح بيديه في الهواء صارخاً « تعهدتك يا كلب ! » لم يضرب أحداً . همّ بأن يضرب وتوقف .

حدق بي وعيناه بارزتان :
ــ دجال . قل أنك تريد الفرس والبارودة .
ــ لا أريد أياً منهما ... لكن فكر بالنساء .
ــ هل أنت موكل بالنساء ؟ دجال .
كنا قد عدنا من المقبرة للتو ، حيث أودعنا جثمان الرجل الهرم . وها إنّا بدأنا التصايح .
وأقبلت أمي من المطبخ وسمعت أصواتنا فأنزلت دموعها على وجنتيها المترهلتين :
ــ هذا بيتي ، سجلوه باسمي .
ــ يا بنت الكلب ، من أين لك البيت ؟
أنزلت مزيداً من دموعها وحملقت بغرابة فخشيت انها قد تجن ..
ــ أنت لا تعرف الله . هذا بيتي . مهري .
قالت بكلام متقطع مثل كلام الأطفال حين يبكون . وشتمها من جديد ، وذهب ليؤدي الصلاة .
ظلت أمي تهذر وتبكي . قالت إن صلاته غير مقبولة وإنه حين كان سكيراً كان يعرف الله أكثر . وعجبت لأنها تستطيع أن تفكر بوضوح . تريد بيتها .
سيظلون يتصايحون شهراً بأكمله إذا احتاج الأمر . إلى الجحيم بالنساء وبالفرس والبارودة . (باب الواد وأزيز الرصاص) . كذابون ، منافقون .
قلت له انه يستطيع أخذ الفرس والبارودة . هش وجهه وأعلن أنه لن يهضم حق أحد ، وأنه ليس دنيئاً ليظلم النساء . أكدت له ثقتي واتفقنا على تسوية أمر التركة فيما بعد . ما الذي سيفعله بالفرس ؟
ثم نفضت السؤال عن رأسي ــ فليفعل بها ما يشاء .

٧

ساءت الأمور منذ زمان .

وما يدريني ، فلعلها لم تكن حسنة في أي يوم .

الرجل الممتاز ناشر « لا اله إلا الله » تخيطون عليه جلد بقرة . استراتيجيته هي النصر . ولماذا جلد بقرة ؟ هل كان ضرورياً ؟ منذ زمان . رأى الرجل هذا فعافه وعاف نفسه . « أقتلوني » صرخ بهم ، « تؤجروا بي وأكن شهيداً » ، فأشاحوا عنه مشفقين ... «لوثة في العقل» قالوا .

ثم رأوا أن الأمر أسوأ من لوثة فقالوا: والله نقتله . وفعلوا . لا بأس . لا علاقة .

قدم الجنرال التتري (استراتيجيته هي النصر) وكان في الواقع متأخراً عن الموعد .

وخرج الخليفة ممتقع الوجه وسلمه المفاتيح . لا تذكر كتب التاريخ فيما إذا كان الجنرال التتري قد أمسك بذقن الخليفة مداعباً .

لكننا لا نعتقد أنه فعل.لا بل إن الجنرال تكرم وأعطى الأمان للأرواح والأموال . وليس صحيحاً ما يروى من أن جنوده قد رموا إلى النهر بمكتبة المدينة . وليس صحيحاً أن ماء النهر قد اسودّ ثلاثة أيام بكاملها . هب أن هذا صحيح ، ألم يعد ماء النهر صافياً بعد تلك الأيام الثلاثة ؟ — ثلاثة أيام لا غير .

على الجسر المحطم كانوا يعبرون . الجندي لم يعبر معهم ، الجندي ميت منذ ثلاثة أيام . الجندي ملقى بكامل ملابسه الرسمية الصفراء

بجانب الجسر . حذاؤه الثقيل لا يزال يلمع . ثلاثة أيام . رائحته فظيعة .
غير أن حذاءه الثقيل يلمع .
وجنته على الأرض . لم أر عينيه . ربما كانتا مفتوحتين . لم أرهما .
عندما لا يكون الجندي ميتاً يأتي في الظهيرة حاملا البطاطا والبندورة
والبصل .
الجسر فوق النهر . لا مزيد من البطاطا . الظهر يأتي والجندي
بجانب الجسر .

مرة سمعت مذيعاً يقول : إغضب يا أخي .

ذلك النهار ...

استيقظ المواطن عربي متأخراً كعادته . من تحت اللحاف رأى أشياء الغرفة . الغرفة صامتة . ليس مطلوباً لأية وظيفة فبقي يجيل ببصره . وأحس برجليه تحت اللحاف . عضوان ليس مطلوباً منهما القيام . وأحس بطعم فمه ممتقعاً بفعل التدخين ، فذكّر نفسه بأن عليه مراقبة هذه الناحية .

حاول أن يقسر نفسه على عدم التفكير بجهاز الترانزستور . إنهم يملأون الأثير بالصراخ . شهادتك تصبح ورقة تافهة بمجرد أن أخط كلمتين . من الضروري إقناعه بتغيير الكلمتين إلى واحدة . يقال بأن هناك سياسة جديدة تتعلق بالاضبارات . يخلط الشباب هذا بالقضية الكبرى وبالتقارب العربي ... من الضروري أن توجد سياسة جديدة

ــ لقد عفنا ... حقاً إن الأمور متأزمة ... كأنها ستظل متأزمة . ما الذي

عناه الجنرال بوعيده – وقح متبجح – استراتيجيته هي النصر اللعنة عليهم .

مدّ عربي يده وجذب الترانزستور : كان العالم مخبوطاً بعضه على بعض .

(إذن فقد وقعت أخيراً) .

مضى إلى دورة المياه وهو يحمل الترانزستور بيده . لم يستطع أن يفارقه لحظة . صنع قهوة وهو يستمع إلى البيانات الحارة والأرقام العظيمة .

(لا ... يجب أن أتحرك .)

خلع المواطن عربي بيجامته على عجل . لم يحلق ذقنه . قرر أخيراً أنه لا بد أن يتخلى عن الترانزستور . سيستمع إلى البيانات عند حمزه . لا يمكن أن يكون نائماً الآن . أبوه يوقظه عندما تحدث أمور مهمة .

رأى الشمس متوهجة ورأى المواطنين يتراكضون . الموسيقى تملأ الشوارع والناس يتحدثون بفرح وصخب ... والله لقد وقعت أخيراً .

استقبله حمزه صارخاً كهندي أحمر . ليس نائماً بل أشد يقظة من الشيطان . تبادلا القبل – وجلسا يستمعان إلى البيانات والأناشيد .

تبادلنا الجمل المشجعة والفرحة . كنا نصفق بعد كل بيان جديد . وبحثنا عن خارطة لنلاحق بعض الانتصارات البرية ... فما وجدنا إلا واحدة صغيرة لم تف بالغرض .

ثم أعلن حمزة أنه لا يستطيع الجلوس هكذا واقترح أن نتحرك فوافقت فوراً .

عبرنا الساحة الرئيسية متدافعين مع الجموع الراكضة وأصوات الإذاعات المختلطة تملأ الفضاء . اقترح حمزه أن نذهب لزيارة صديقنا عيسى في وزارة الاعلام فوافقت .

هذه المرة سيخوض أخي حرباً مختلفة . سعيد أنني أعطيته الفرس والبارودة ، مع أنه باعهما .

استقبلنا عيسى راقصاً . تبادلنا القبل معه أيضاً بفرح وجلسنا نستمع للترانزستور . ودخنّا كثيرا حتى إننا اضطررنا لارسال أحد السعاة ليشتري لنا مزيداً من السجاير .

ثم إن الوزير دعا الموظفين لاجتماع عام فذهب عيسى وفهم أن مهمة رجل الاعلام لا تقل عن مهمة الجندي في الجبهة . عاد عيسى وأخبرنا بذلك . واستاء حمزه لأن تسارع الأرقام قد أصبح أبطأ ... وأفهمه عيسى بأن المسألة ليست لعبة وأن هذه الانتصارات كافية جداً .

ثم إن أصوات المذيعين تعبت فانخفض صراخهم قليلا غير أن معنوياتنا ظلت قوية . واقترحت على حمزه أن نتحرك فوافق .

رأينا الناس يتدافعون على المخابز فتدافعنا واشترينا كميات إضافية من الخبز ولم نشترِ خضروات .

أشرت لحمزه فسأل :

ـ طائراتهم أم طائراتنا ؟

ـ طائراتهم .

ـ غير معقول .

وأخيراً سمعنا صوت الزامور ، كانت الطائرات قد بدأت تضرب المطار ورأينا أعمدة الدخان السوداء تتصاعد . غير أننا لم نسمع أصواتاً . ركضنا طويلا لنجد أول مكان نلجأ إليه . مدخل عيادة طبيب . انحشرنا مع خليط من المواطنين . « غارة تجريبية »، أوضح رجل في الأربعين . وحين قلت له إنها حقيقية صرخ غاضباً وطلب مني أن أكفَّ عن نشر الإشاعات .... وصمتُ .

ثم سمعنا الزامور يعلن الأمان فتراكضنا . غير أن الطائرات ظهرت مرة أخرى . وسمعنا الزامور من جديد ولم نستجب هذه المرة . كان القصف بعيداً .

وقصد كل منا بيته .

٨

بعد أن تم الأمر ،

سار المواطن عربي في الشوارع هائماً دون قصد ، متأرجحاً كذبابة دائخة . شاهد السيارات العسكرية العائدة ملطخة بالوحول وفهم أن هذا قد تمّ للتمويه . معظم السيارات هي من الشاحنات تحمل جنوداً صامتين مقاربين ما بين عيونهم . قليلا ما رأى سيارات محاربة . سمع أحد الجنود الداهلين يحاول أن يوضح الأمر لسائق سيارة مدنية (الطيارات يا عمي ، الطائرات ...)

وعربي نفسه حلم كثيراً بالطيارات . ورأى أن أحد الجنود الهابطين بمظلة يسقط فوق صحن الدار ... رغم أن عربياً سُمّر مكانه ولم يفعل شيئاً . فقد ضربه الجندي بحذائه الثقيل على وجهه ... وسقط عربي أرضاً .

وفي الأيام اللاحقة حاول الناس جميعاً أن يستعملوا ما في رؤوسهم ليفهموا كل هذا . وتحدثوا ، بعضهم مع بعض ، وتحدثوا إلى السيد عربي كثيراً حول الأمور الحربية .

وأوضح المذيع أن البترول هو عصب الاستعمار وأكد أنه سلاح عظيم . وحاول عربي أن يفهم صلة هذا بالموضوع ... ولم يفهم .

لم يفهم المواطن عربي هذه الناحية .

وذات ليلة ، في غرفتي ، بقيت وحدي .

« مالي نفس » ، يقول الواحد منهم في قريتنا عندما لا تكون له رغبة في الطعام . كنت أعتقد على الدوام أنها تعني عدم الرغبة لا في

الطعام وحسب ، بل في أشياء كثيرة أخرى أيضاً .

لم أتناول طعام الغداء . لم يكن لي نفس . وعوضاً ، نمت ساعات الظهيرة وجزءاً كبيراً من ساعات العصر .

لا أرغب في الانضمام إليهم في المقهى . لا أريد أن أرى ورق اللعب ولا طاولة النرد . أبداً لا أريد .

لدي بعض ما يؤكل . خبز ولبن مصفى وبعض الزيتون . وضعت إبريق الشاي على السخان الكهربائي . إنه بطيء جداً ، وهو الأداة الوحيدة المتوفرة .

إنسان كامل نامٍ يحلم في النهار .

حاولت أن أصرف نفسي عن التفكير بهذا متشاغلا بتنظيف الطاولة الخشبية وإعادة ترتيب السرير .

أوضح لي ضابط المخابرات أنهم غير مهتمين بإعادة النظر فيما يتعلق بالاضبارات وأكد لي أن أحداً لا يحقد على أحد . وكل ما هناك (أنك لا تستطيع أن تجد وظيفة يا عربي — فكما تعلم ضاع نصف وطننا) ... وقال لي انه بمرور الزمن لا بد ستحل مشاكل الاضبارات وأكد لي أنه شخصياً قد سئم من الاضبارات .

رأيت من النافذة أضواء العاصمة تتماوج . إنها بعيدة . لا أحب هذا الوقت . لقد انتهى النهار ، وهذا وقت هدفه الوحيد أن تكيف عينيك وروحك لليل .

لعله سئم الاضبارات . ما همّ ؟ إنه الآن وجميع ضباط المخابرات وسواهم ونظائرهم تحت تلك الأضواء ، لهم بيوت وعمل وزوجات .

حاولت أن أنبذ هذا أيضاً عن فكري .

أعدت النظر في مجلة قرأتها . استعرضت صور النساء ، الفساتين تنحسر عن أفخاذهن . لا يحدث هذا عبثاً . إنها حركة مدروسة ، جزء من خطة هدفها النصر .

المهم أن تكون خطتك ناجحة .

سؤال : كيف قبلت أن تمثلي دور غانية صهيونية ؟

جواب : من أجل وطني أنا قبلت هذا الدور — أول الأمر خفت على صورتي في ذهن جمهوري الحبيب . ولكن عدت وقلت لنفسي إن الجمهور سيفهم .. الخ ... كشف مخططاته .. الخ ...

ألقيت بالمجلة جانباً .

أخيراً جهز الشاي . وضعت الصحنين والشاي فوق الطاولة . جررت الكرسي . وقبل أن أبدأ جاءت ذبابة وحطت على اللبن . طردتها بحركة من كفي ، فحامت وحطت ثانية على اللبن .

وقع بصري على منديل التنشيف ، ليس نظيفاً . غير أنني تقززت . أقتلها بالحذاء ؟ لا .

ذبابة حقيرة في الليل ، حتى في الليل .

ضربتها بكفي على الطاولة فقتلتها . وأزحت الطعام مبقياً الشاي فقط .

ودخنت سيجارة . (شهادتك تصبح ورقة تافهة .. تافهة.) ما هو الشيء الذي لم يصبح تافهاً ؟

في أحلامه ضاجع فتاة ثم أكتشف أنها ميتة . كاد يجن وهو نائم ... ميتة .

في أحلامه تحدث مع نفسه كما الآن .... ومات مرة بعد مرة ... وعاد فصحا . لماذا ؟

فكر بالموضوع على أنه دفتر تجاري . أين حساب الربح وأين

حساب الخسارة ؟

لقد جره المحارب إلى ما أسماه عملية تصفية التركة وبقي يحسب له بأرقام تقنع الشياطين ، وقسم حسب الشريعة ... وطرح الديون ... مصاريف الجامعة ... فإذا رصيد حصته مدين .

دائماً هذا الرصيد مدين .

ستكون أعظم خدعة لو كان الموت بأحلام . خدعة عظيمة بعد تلك السنوات الطويلة من الأحلام .

غادر غرفته هابطاً المدينة . التقى بالأضواء والحركة ، لكنه ظل هناك بعيداً . وراء الزجاج رجل سمين يشتري كنافه ... شابان يشتمان فيلماً ... إمرأة غير جميلة تعبر الشارع . إلى أين تمضي ؟ إلى أين يمضون جميعاً ؟

(طلبت علبتين اثنتين – أستاذ ؟) – حدجني من وراء نظارتيه. (نعم علبتين ..) نقدته ثلاثة شلنات . وأعاد لي قطعتين حمراوين . لمست معدنهما .

في غرفته وضع العلبتين فوق الطاولة . لم يعد عقله يفكر بشيء . غير أن معدته كانت تختبط لقلة الطعام وكثرة التدخين ... ولمرارة فمه الجاف .

الحقيبة بارزة من تحت سريره. سطحها مغبّر . الخزانة الصغيرة مفتوحة وعلى حافة بابها بنطال آخر يتدلى . الغبار متوفر على الأرض وأينما حطّ نظره .

أخرج الحبات من الأنبوبة الورقية ، وكدّسها فوق المجلة . قام وأحضر الكأس نصف مليئة بالماء وأسقط الحبات ثم حركها .

دارت الندف البيضاء واختبطت على سطح الكأس الداخلي . كفَّ عن التحريك فترسبت الندف بسرعة .

ليس على عجلة ... وضع الكأس على الأرض وجلس على السرير يدخن مراقباً الطبقة الكلسية البيضاء في قاع الكأس . ليس له خبرة سابقة في هذا الوضع ، فبقي ينظر .

في خياله حاول أن يشرب المزيج دفعة واحدة ... حرّكه ورأى الندف المتراكضة تلطم الزجاج ، همَّ أن يفعل ...

وشعر بمعدته تتكوم متحجرة في رأس صدره . وتصلبت يده تماماً كما كانت تتشنج في الأحلام .

رغبت في سماع شيء – أي شيء ... تناولت الترانزستور ورأيت يدي ترتعش . فتحته وألقيته على السرير .

(حتى صلاة العشاء مع هذه التقاسيم على الناي ..)

ليست هذه موسيقى ... إنها شيء مختلف . نفس إنسان عبر قصبة . ليست لتمتعك ، بل لتغرس شيئاً مدبّباً في القلب .

كانت أمي تكرر على مسمعي قصة مولدي . أكدت لي أنها تركتني أسبوعاً كاملا أبكي دون أن تعنى بي ، وأن جارتنا العجوز تعهدتني باليانسون ، وإلا لما كان هنا الآن عربي .

لم يعد أبي من الحج في موعده مع مجموعة الحجاج . قيل انه ضل الطريق وقتل . ظلت أمي تندبه . لم تكن لها رغبة في الطفل ...

الله اكبر الله اكبر .

فكرت دائماً بأن هذا عمل يخلو من اللطف ، تماماً كسلخ الجماجم .

« مرحباً بذكر الله » ، كانت أمي تقول عند سماع الآذان .

وكانت تردد دائماً « لا بد للحزينة من يوم تفرح به . » ولم أرها تفرح .

أطفأ سيجارته على أرض الغرفة . ثم قام وحمل الكأس ومضى به إلى المغسلة حيث سكبه وفتح الصنبور .

عاد واضطجع على السرير .

«طاف رجل معظم بلاد العالم ورأى كثيراً من الكوارث إلا أنه لم ير شعباً بأكمله يغرق في الحزن مثل شعبي » ، هكذا قال .

٩

في حزيران ، في العاشر من حزيران هبطت إلى نهر الأردن لأرى ما الذي حدث لبلادي . على طول الطريق كانت السيارات الحربية محطمة محروقة . قبيل الوصول للنهر رأيت على قارعة الطريق بغلا مقتولا وكان منفوخاً بشكل عجيب .

ثم رأيت الجسر المحطم ، ورأيت خليطاً من الناس ، وكان هناك لغط . الآن لا أذكر كلمة من كل اللغط . نعم ، هناك أصوات وحركة لغير ما هدف واضح . لا يرى المرء ما الذي ينجز هنا .

كان الجسر محطماً بشكل فظيع ، إلا أن أجزاءه ما زالت متماسكة . وكانت هناك امرأة تحاول العبور ، وهي تتسلق الحطام وتمسك بما كان مقبضاً للجسر . وكانت شديدة الخوف من أن تسقط . إنني أذكر وجهها الصغير حتى الآن . ورغم أنني سمعت دائماً من يتحدث عن صفرة الوجوه الخائفة فلم يحدث أن رأيت وجهاً صغيراً كهذا مصفراً تماماً كقشرة ليمونة دون رواء القشرة . كان الناس ينظرون إليها بيأس ثم يتحولون .

وقفت على آخر نقطة صالحة للوقوف في الجسر . الآن أعرف أنني كنت أبحث عن آخر شبر مما تبقى وطناً لي . وكنت حريصاً أن أقف على آخر جزء يمكن الوقوف عليه .

رأيت النهر ورأيت قمم الجبال العالية البعيدة . لم أر جنوداً .

وبحثت عبثاً . كنت واثقاً أنهم لا بد يرونني من هناك ولا أراهم . نظرت عبر الجسر . لم أعد أهتم بالناس . رأيت الأرض ذات الرائحة الحارة . كثيراً ما عبرت هذا الجسر إلى الضفة الأخرى – هناك . وبدأت أنظر إلى المعالم الصغيرة : شجرة شوكية ... حجر عادي ... تعمدت أن أراها .

ثم انتبهت أنني منزعج طوال الوقفة . واستبنت رائحة كريهة ولم أجد مصدرها . ثم انسحبت خلفاً وانثنيت إلى الزاوية اليمنى . وازدادت الرائحة. هنا رأيت تحت منخل مشبّك جندياً ملقى بكامل ملابسه.

في طريق العودة صُعُداً بين الجبال حلّ الليل . كنا نتحدث بكلمات قليلة غير مستكملة المعنى . ربما لطبيعة المكان أو لأنه الليل . ربما لسبب آخر لا أدريه . كانت الكلمات تدوي وكأنما تسمع مضاعفة . ولم يحدث أن عرفت ليلا كهذا . شيء ما فيه كان يقربه من الليلة الأخيرة للبشرية .

حاولت تقريب الأمر لنفسي ، ولم أفهم . نطقت بكلمات بصوت عالٍ « هزيمة . هذا ما هي » . ولم أفهم . ليست هزيمة بل شيء آخر . رأيت مرة في عرض الطريق قطة مدهومة . الدم على أذنها وجانب من وجهها وهي تتحرك في دائرة لا يزيد قطرها عن متر ، وعيناها في نفس الوضع وتظل تدور . لم أدر ماذا كانت ترى وماذا كانت تريد .

وكان هناك مذياع في كل مكان ولم أفهم لماذا يجب أن يتكلم مذيعونا بعد . وخيل إلي أن المسألة كلها سؤال واحد : شعب نحن أم حشيّة قشّ يتدرب عليها هواة الملاكمة منذ هولاكو حتى هذا الجنرال الأخير .

وما الذي يسمونه ؟ — جيش الدفاع .

حتى في هذا يطوّوننا . ويا لها من سخرية . غثاثة وكذب . كل ما يقال غثاثة وكذب ، لا أريد أن أراها ولا أن أسمعها .

إنها لشهور حرية باسم عصور الظلمة . إنني أتحدث عما أسدل في جمجمة واحدة . وأعتقد أنها مسألة شخصية بحت . فهنا مواطن أراد على الدوام أن تحمل روحه وشم الدولة القوية . ولم يكن ممكناً أن يقدم

لنفسه أيما سلوان . شعب أم حشيّة قش ؟

تربّع الجنرال داخل تلك الجمجمة . كان بوسعه أن يحل عقدة عينه . ويمد رجليه ويستريح . ليس في بيته ولا في مكتبه العسكري المتحف المرصع برسوم النصر ... بل داخل جمجمة . وكان بوسع الجنرال أن يُري رباط عينه الأسود وأن يسخر من العيون السليمة ويقرر بأن الأصل في العيون أن تكون عوراء . ولم يكن هناك صوت يناقشه — في تلك الجمجمة .

طاف رجل معظم بلاد العالم ورأى كثيراً من الكوارث إلا أنه لم ير شعباً بأكمله يغرق في الحزن مثل شعبي . وبدا وضحاً أن هذا الشعب قد استحال كائناً واحداً ضخماً ومجروحاً — يترنح ببطء.ولم يكن قط ذهول أبعد من هذا .

(والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .)

منذ ألف لم يبك عربي . مرت به كل مذلات التاريخ والأحداث ، واحداً تلو الآخر . معزولة تافهة مرت كلها . لم يبك عربي .

ترك الفلاحون قراهم . ربات البيوت خرجن بملابس النوم . الرجال والأطفال بعضهم دون أحذية ... خرجوا جميعاً ... كانت الأنوار مطفأة وجعلوا يتكاثرون . وكانوا يصيحون بكلام غير مفهوم . ثم لم يعرفوا ماذا يصيحون أكثر ، فانخرطوا يبكون .

ما الذي حدث له ؟

في لحظة واحدة نفضت خياله – دون صور ، دون صور – كل مذلات تاريخه . دون صور ، لكنها هناك . الف الف مرة دهم هذا الجسد ... ومرت فوقه الأقوام وركلته .

لا يبكي زعيماً . ولا يدري ما الذي يبكيه .

بل دفن رأسه في الفراش وبدأ ينتحب . وسمع صوته المتقطع الأكثر جراحاً من أية قطة ، فهاله الأمر . واجتاحته عاصفة هائلة من البكاء . وجعل ينتحب بصوت أعلى . ولم يعد صوته متقطعاً فعلا نحيبه . وقبض فراشه وهو خائف من أن لا شيء هناك يُقبض . . فقبض أشدّ وبكى أكثر . وزالت من ذهنه كل صورة إلا وجوده هناك في فراشه . وكان الوقت ليلا . وكان قد جمع في جسده كل مذلات تاريخه فانتحب أكثر وسمع نفسه فازداد انتحاباً .

وبعد ،

فقد آن لكل هذا أن ينتهي ، كما تنتهي كل حقارة أخرى . قد يكون شعبي أحمقِ ، تماماً كما يعرض المعرضون . وقد يكون أن شعبي ذهل إلى هذا الحد ، وهم يضربونه ، وظن أن الأمر كله لا يصدق. وقد تكون مسألة شخصية بحت لمواطن واحد عكف على نفسه محاولا أن يفهم موضعه من التاريخ .

كان معلمنا يشرح لنا حكاية اوروبا كأنه يراها . وكان يسمي الفترة ما بين القرنين الخامس والعاشر ميلادي « عصور الظلمة » . وكان للكامتين رنين غريب . وأعتقد الآن أن مصدر ذلك الرنين هو الفخر . الفخر الإنساني الكلي ... فأنت حين تحقر خمسة قرون كاملة وتختزلها بكلمتين مذلتين « عصور الظلمة » ، تفكر من حيث تدري أو لا تدري بالنور .

عصور الظلمة ، أي أنه كان هناك نور وانطفأ خمسة قرون ثم عاد

واشتعل وأنت فخور بهذا .

(ما عسى أن يهمني أمرهم ؟)

عمن يتحدث الجنرال ؟ عن شعبي وعني أنا . من الذي سأله الاهتمام بأمرنا ؟

رأيته نافخ الصدر ورأيت عينه فاحتقرته . رأيت شعبي رأيت الصحراء والجنود الهائمين عطاشا ورأيت الصيف ورأيت جنود الجنرال يلوحون بالماء ثم يخفونه ويضحكون . رأيت شعبي يسقط باسطاً يديه على الرمل الحار ، ومحضته حباً عذباً ليس يكبره إلا القسوة المرة التي محضت نفسي وشعبي شهور الظلمة الطويلة .

وليست المسألة أن الجنرال صغير كذبابة ، بل إنه قذر كذبابة ولا ان هذا الشعب محارب أم لا .

(حاربوا أفضل من سنة ٥٦ ... يتكرم الجنرال فيقول .)

ولكن المسألة في أنه شعب انتدب ليحارب من أجل أن يظل الرنين الغريب كلما قال معلم التاريخ للصغار : الفترة الممتدة ما بين القرنين الخامس والعاشر ميلادي هي المعروفة باسم « عصور الظلمة » .

الله يرحمهم
سيناريو تلفزيوني

اولا :

الكاميرا تستعرض منظرا طبيعيا من خلال سيارة · موسيقى تصويرية ناشطة ··· مختلف الاشجار المثمرة وخاصة بيارات الحمضيات ·

ثانيا :

تتوقف الموسيقى الاستعراضية بشكل مفاجيء ·· ومن عل نرى مقبرة تضم حوالي خمسين قبرا ·· الموسيقى مطلع الكونشرتو الثاني على البيانو لرحمانينوف ·· تهبط الكاميرا ببطء ـ وفوق صورة المقبرة تظهر كتابة : ـ الله يرحمهم ـ

في المقبرة ثلاث نساء في البستهن السوداء الطويلة ··· كل واحدة تزور قبرا ·· واحدة تصطحب طفلا يفضل ان لا تبين ملامحه بل ان يظهر من الظهر ·

تستعرض الكاميرا المقبرة عموما ثم تتوقف عند قبرين أو ثلاثة ونقرأ على شاهدة كل قبر اسماء الشهداء · يجب ان يتضمن الاستعراض قبرا واحدا على الاقل تجلس بقربه امرأة من الزائرات ويفضل ان لا نرى كامل وجهها مع ذلك :

١ ـ الشهيد الشيخ سليم احمد بشير ٠
٢ ـ الشهيد الطفل طلال شاكر عيسى ٠
٣ ـ الشيدة فاطمة داوود صرصور ٠

شكل شواهد القبور يتضمن الاسلوب الاسلامي المعروف في اعلى كل شاهد (بسم الله الرحمن الرحيم) ٠٠ و (الفاتحة) ٠٠٠ وتحت كل اسم تاريخ الاستشهاد ٢٩ / ١٠ / ٥٦م ٠

تركز الكاميرا على التاريخ في اكثر من شاهدة ثم يقطع الاستعراض لقطة على البوابة الحديدية للمقبرة التي بشكل قوس فوقه (بسم الله الرحمن الرحيم) ، (الفاتحة) ٠٠ (مقبرة شهداء كفر قاسم) ٠٠

ـ قطـع ـ

ثالثا :

هذا المشهد في محكمة عسكرية اسرائيلية ٠٠ رئيس المحكمة برتبة عقيد ٠٠ عضو اليمين برتبة (ميجور) رئيس ، وعضو اليسار برتبة رئيس ـ الى اليمين يقف محامي المتهمين ووراءه في القفص عدد من العسكريين من مختلف الرتب (من ٨ ـ ١٠) افراد وفي مقدمة المتهمين العقيد شدمي ٠٠

الشاهد دافيد امام المحكمة ٠

الى اليسار في مواجهة محامي الدفاع يقف محامي المدعوين (وهم اهل ضحايا المذبحة) وكاتب المحكمة ٠

يبدأ المشهد بلقطة قريبة لمحامي الدفاع يقول :

محامي الدفاع : اعترض على هذا السؤال ٠٠ واعترض على كل الاسئلة التي لا تتعلق مباشرة بما حدث في ليلة ٥٦/١٠/٢٩ ٠

محامي المدعو السيد حسين : ولكن يا سيدي الرئيس لا مجال للاعتراض فالذي حدث ليلة ٥٦/١٠/٢٩ ليس بالحدث البسيط ، ولا بالظاهرة المنقطعة الجذور عن صلب التربية العسكرية التي اسأل الشاهد عنها ٠

لقد قتل خمسون عربيا بريئا في مجزرة لا مبرر لها واذا لم يكن لهذه المحكمة ان ترى الاسباب العميقة التي جعلت حدوث فاجعة انسانية كهذه امرا محتمل الحدوث ٠

اقول اذا لم يكن لمحكمتكم ان تنظر في هذا ، فان سمعة ما تروجون له باسم (الديمقراطية الاسرائيلية)كلها تكون محل ارتياب في العالم كله ٠

ان خمسين بريئا بينهم المرأة والطفل والشيخ قد ذبحوا في مجزرة جماعية لا مثيل لها ٠ امام مثل هذه المجزرة لا يبقى لاعتراض محامي الدفاع اي مبرر ٠

(الرئيس يتهامس مع اعضاء المحكمة قليلا) ٠

الرئيس : تفضل باعادة سؤالك على الشاهد يا استاذ حسين ولكن تذكر ايضا ان هذه المحكمة محكمة عسكرية قبل كل شيء ، وليست مجلسا للنقاشات الفلسفية والمنطقية ٠

المحامي حسين : والان يا ادون دافيد سؤالي هو ما يلي :
هل صحيح انك تعمل في البلاد وانه طول ايام حياتك أدخل اليك الشعور بأن العرب هم أعداء الداء لدولة اسرائيل ؟

الشاهد الجندي دافيد : نعـم ٠

المحامي حسين : هلصحيح انك تحمل هذا الشعور نفسه تجاه العرب داخل اسرائيل والعرب خارجها ؟

الشاهد : نعم ٠٠ ليس عندي اي فرق ٠

المحامي حسين : هل صحيح انك شعرت بأنك اذا لم تنفذ الامر بقتل كل عربي في كفر قاسم اذا رأيته خارج بيته فانك تكون قد خنت الروح التي تثقفت بها في الجيش وفي حرس الحدود ؟

الشاهد : نعـم ٠

المحامي حسين : لو كنت تسير ايام الحرب في احد شوارع يافا مثلا ولقيت عربيا فهل تطلق الرصاص عليه ؟

الشاهد : لا اعـرف ٠٠

المحامي حسين : اسمعني جيدا لو جرى معك ما يلي :
بعد الساعة الخامسة مساء ٠٠ في الخامسة وعشرين دقيقة

على وجه التحديد ٠٠ رأيت امرأة تعبر الشارع تتجه نحو بيتها ٠٠ هناك امر بمنع التجول ولكن المرأة تتجه الى بيتها ٠٠٠

رابعا : « فلاش باك »

« امرأة بلباسها القروي المألوف تتجه نحو بيتها ٠٠ انها على بعد عشرة امتار من كوخها القروي البسيط ٠

الجندي دافيد : قفي ٠٠ قفي مكانك ٠٠

المـرأة : هذا بيتي ـ تشير باصبعها ـ هذا هو ـ يخرج طفل في العاشرة من باب الكوخ ٠

المـرأة : تتجه مأخوذة الى ابنها فيما يصرخ الجندي ٠

الجنـدي : قفي مكانك ٠٠ و (بسرعة يطلـق عليها عـدة طلقات من رشاشه فتسقط متخبطـة بدمها ٠٠ والطفـل يبكي بحرارة واقفا مكانه ٠٠٠) ٠

خـامسا :

ـ في المحكمة ـ

المحامي : تقتلها هكذا ؟

الجندي : انها الاوامر يا سيدي ٠

المحامـي : ولكن لم يكن هناك اي خطر ٠٠ فقط شخص مـا بسبب خطأ ما او بسبب انه لم يعرف بأمر منع التجول ، توجه اليك ٠٠ واراد باذن منك الوصول لبيته ٠٠

السؤال انه برغم ذلك كله كنت تشعر ان واجبك يقضي قتـل كل واحد وما كنت تفرق ؟

الجندي دافيد : لا ما كنت افرق ٠

رئيس المحكمة : كنت ستقتل كل واحد ٠

الجندي دافيد : نعـم ٠

رئيس المحكمة : كنت تقتل كل من تراه ؟

الجندي دافيد : نعم ٠٠ اطبق الاوامر العسكرية بحرفيتها٠٠ تلك كانت الاوامر ٠٠

ـ قطـع ـ

سادسا : (فلاش باك)

في مكتب العقيد شدمي ٠٠ خمسة ضباط من مختلف الرتب شدمي يبلغهم الاوامر ٠

شدمي : الاوامر مشددة جدا ٠٠ منع التجول يسري على جميع قرى المثلث ابتداء من الساعة الخامسة مساء ٠٠ (يتطلع في ساعته) بعد ساعتين من الان ٠٠ وكل من يخالف الامر ويظهر خارج بيته تطلق عليه النار فورا ٠٠

ضابط١ : دون استثناء يا سيدي ٠٠ اعني دون التحقق من سبب خروجه او مدى خطره على الامن ؟

شدمي : لا نستطيع ان نحقق في مثل هذه الظروف ٠٠ ان الجيش الاسرائيلي يقوم الان باكبر مغامرة في سيناء ٠٠ ويجب حماية ظهر جيشنا من العرب ٠٠ طبعا تعرفون ان كل عربي في الحقيقة خطر على امن اسرائيل ٠

ضابط٢ : وما هي طريقة ابلاغ اهل القرى بمنع التجول ؟

شدمي : تقومون باشعار مختار كل قرية فور خروجكم من الاجتماع ٠٠

ضابط٣ : سيدي ٠٠ ماذا عن الفلاحين والعمال الذين يكونون خارج قراهم حتى الساعة الخامسة وما بعدها ٠٠ ان عدد هؤلاء كثير جدا كما تعلم وهم منتشرون في حقول المنطقة الشاسعة ٠

شدمي : (لقطة قريبة) هؤلاء ٠٠ هؤلاء ٠٠ الله يرحمهم ٠٠ بدون عواطف ٠٠ بدون اعتقالات ٠٠ بدون جرحى ٠٠

قطـع

سابعا : (في المحكمة)

الضابط رقم واحد واقف والمحامي حسين يستجوبه ٠

المحامي حسين : ماذا فهمت من قول العقيد شدمي (الله يرحمهم) ؟

الضابط١ : بالطبع فهمت ان على ان اقتلهم ٠

المحامي حسين : الا تعتقد ان الامر ينطوي على سوء فهم ما ؟

الضابط١ : لا ٠٠ ليس هناك سوء فهم ٠٠ انه امر عسكري ٠

المحامي حسين : ولكن ٠٠ الا تشعر انه اسلوب غريب في الرحمة ؟

الضابط : هذا ليس اختصاصي ٠٠ انما انا عسكري ٠

المحامي حسين : لا بأس ٠٠ هل لك ان تخبرنا بما قمت من اجل اعلام سكان كفر قاسم بمنع التجول ٠

الضابط : نعم ٠٠ اصطحبت جنديا وذهبت الى القرية الى بيت المختار ٠

قطع

ثامنا : (فلاش باك)

الضابط : يا مختار ٠٠ بأمر من جيش الدفاع الاسرائيلي يمنع التجول اعتبارا من الساعة الخامسة من هذه الليلة وحتى اشعار اخر ٠٠ مفهوم ؟

المختار : ولكن الساعة الان هي الرابعة والنصف ٠

الضابط : وقت كاف لابلاغ الموجودين في القرية ولكن كل الفلاحين والعمال خارج القرية تعرف ٠٠ جميعهم لا يعودون قبل الخامسة ٠ كيف ؟ ٠٠ كيف يمكنني ان ابلغهم ؟

الضابط : انت اهتم بتبليغ الموجودين في القرية واما من خارجها فنحن نهتم بهم ٠

قطع

تاسعا : في المحكمة

المحامي حسين : ماذا كان يدور بذهنك وانت تخبر المختار بانك سوف تهتم بأمر الموجودين خارج القرية ؟

الضابط : لقد قلت امام المحكمة ما كان في ذهني ٠

المحامي حسين : ان تطلق النار عليهم ؟ اليس كذلك ؟

الضابط : بالطبع ٠

المحامي : واضح ٠٠ ولكنني فقط احاول فهم هذه اللغة الجديدة التي تستعمل في الجيش ٠ كنت اود ان نفهم هنا معنى

(الرحمة) و (الاهتمـام) في لغـة جيش الدفاع ٠ ألا ترى انها كلمات تسيئون استعمالها ٠

محامي الدفاع : سيدي ٠٠ اعترض على الخروج المتمادي عن موضوع هذه القضية ٠

رئيس المحكمة : الاعتراض مقبول ٠٠٠ المحكمة تطلب من محامي الادعاء ان يظل قريبا من الوقائع في اسئلته ٠

المحامي حسين : لا بأس ٠٠ اكتفي بهذا القدر واقدم شاهد الادعاء صالح خليل عيسى ٠

يعود الضابط الى قفص الاتهام ٠٠ يتقدم صالح ٠

رئيس المحكمة : اسمـك ٠

صالح : صالح خليل عيسى ٠

الرئيس : عمـرك ؟

صالح : ٢٩ سنة ٠

الرئيس : عملـك ؟

الرئيس : اقسم على قول الحق ٠

صالح : اقسم بالله ان اقول الحق ولا شيء غير الحق ٠٠

المحامي حسين : والان يا سيد صالح هل تذكر اين كنت يوم ٢٩/١٠/٥٦ ٠

صالح : نعم ، كنت اشتغل في بيارة برتقال ٠

المحامي : من كـان يعمل معك ؟

صالح : اولاد عمي ٠٠ اسعد وعيد سليم عيسى ٠

المحامي : وبقيتم في العمل حتى اي ساعة ؟

صالح : حتى الرابعة والنصف تقريبا ٠

المحامي : وبعد ذلـك ؟

صالح : ركبنا دراجاتنا عائدين الى القرية ٠

المحامي : كم من الوقت تأخذ منكم المسافة الى كفر قاسم عـادة ؟

صالح : في حدود الساعة الا ربعا ٠٠

المحامي : وبعدئـذ ٠

صالح : في الطريق التقينا بعمال اخرين قالوا لنا ان في القرية منع تجول واطلاق رصاص ولا احد يعرف لماذا ٠ هكذا سمعوا ٠٠ بعد تردد قررنا مواصلة السير ٠٠ وعلى الطريق كان عددنا يزداد حتى

اصبح خمسة عشر عاملا على دراجاتهم واصبحنا على بعد كيلومتر من القرية ·· لم تكن عندنا مخاوف جدية ·· احتمال واحد كنت افكر فيه ··

قطـع

عاشرا : فلاش باك

على طريق ترابية للسيارات تمتد بين الحقول والبيارات خمسة عشرة عاملا يركبون دراجاتهم ويتقدمون· فتى او ثلاثة في كل صف اعمارهم تتراوح بين فتيان في الخامسة عشر ورجال في الاربعين، بينهم شيخ عمره ستون سنة هو الشيخ سليم احمد بشير · صالح وولدا عمه اسعد وعيد من جيل واحد في حدود (٣٠ سنة) · يسيرون جنبا الى جنب على دراجاتهم في مقدمة الموكب ·

عيـد : انا والله بالي غير مرتاح يا صالح ·

صالح : طمن بالك اكثر ما يمكن ان يحدث لنا ان يمسك بنا بلـوم ·

اسعد : وعندها سنأكل من الضرب حتى نشبع ·

صالح : والله هذي ما هي مقبولة مع بلوم وعصي بلوم ·· لعنة الله عليه ·· والله ما انه انسان ·

عيـد : ولكن يا رب الى متى تدوم هذي الحال ؟

اسعد : ما فهمت سبب منع التجول هذا الذي يقولون عنه ··

صالح : لا بد ان في المسألة شيئا مهما ·

(في هذه الاثناء يسمع صوت طلقات رصاص اتية من بعيد)

صالح : سامع يا عيد ··· سامع يا اسعد ·

عيـد : اي والله ··· صوت طلقات ···

(يتوقف الثلاثة ·· ينظرون قليلا بينما نرى الدراجات تصل تباعا) ·

صالح : سمعت يا خليل ·

خليل : اي والله ·· المسألة فيها ما فيها يا اخوان · انا غـير مطمئـن ·

عبد الله : انا افضل ان نعود ونبحث لنا عن مكان ننام فيه ·· ننام تحت الشجر حين اللزوم ·

(يصل الشيخ سليم على دراجته الى حيث تقف الدراجات··)

عبد الله : ما رأيك يا شيخ سليـم الحديدة حامية والمسألة فيها رصاص وما هي بسيطة ٠

الشيخ سليم : يا اخوان « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » ٠ نحن على مسافة قصيرة من بيوتنا ٠٠ ولازم نطمئن على اهلنا وعيالنا ، والليل دخل فتوكلوا على الله ٠

اسعد : يا الله يا اخوان ٠٠ هي اما حياة او موت ٠

عامل اخر : يا الله يا اخوان ٠

عامل ثالث : وصلنا بيوتنا (يركب دراجته) يا الله يا اخوان٠

(يركبون دراجاتهم ٠٠ تأخذ الكاميرا لقطـة عامـة بعيدة لمجموعتهم بعضهم يتحدث مع بعض بكلام غير مسموع) ٠

(عدة لقطات لمسيرة الدراجات ٠٠ حتى تبدو القرية الان على بعد امتار ٠ فقط تقصر المسافة بين الدراجات ٠٠ وفجأة يظهر جندي من حرس الحدود معترضا طريقهم) ٠

الجندي : قفـوا ٠

بعض اصوات منهم : من كفر قاسم ٠

الجندي : واين كنتم ؟

عامـل : في العمـل ٠

(الجندي يتأخر خمسة امتار يرفع رشاشه وهو يقف مع اثنين من جنود حرس الحدود برشاشاتهم) ٠

الجندي : اصطفوا هناك ٠

(يتراجعون تاركين دراجاتهم ويصطفون بمحاذاة عربة خيل كانت واقفة قبل ان يجيئوا) ٠

الجنـدي : احصـدوهم ٠

(يطلقون رشاش رصاصهم٠ يتساقط الرجال اولا على الارض٠ من خلال الدم والاصوات المختلفة نرى ان الشاهد صالح عيسى قد قفز بعد اصابة رجله واصبح وراء عربة الخيل دون ان يراه الجنود، انه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة وهو جريح يحاول كتم صوته لئلا يشعروا به ٠ الاضاءة خافتـة في هذا المشهـد طبقا للوقت المسائي وظلال الاشجار الملتفة مما يساعد على غموض الرؤية ٠٠ يتراجع الجنود ونسمع اصواتهم المختلطة مأخوذة من خلال مـا يسمع صالح ٠٠ من بين الكلمات التي نسمعها منهم :

ـ ماتوا جميعا ٠

ـ راقب الطـريق جيدا ٠
ثم نرى صالح يزحف ببطء جارا نفسـه مختبئا وراء ساق شجرة تتيح له الاختفاء ·· في هذه الاثناء نسمع صوت شاحنـة تقترب ··
الجنود الان على مبعدة عشرة امتار من مكان الذبح الاول ثم نرى الجندي وقد اعترض طريق الشاحنة من بعد ٠
نسمع صوت الجندي يسأل ٠
الجندي : من تحمـل ؟
السائق : عمـال ٠
الجندي : كم عاملا ؟
السائـق : ٢٣ ٠
الجندي : من اين انتم ؟
السائق : من كفر قاسم ٠
جندي ثان : (يدور خلف الشاحنة) منع تجول ·· لمـاذا انتم متأخـرون ٠
اصوات العمال : لم نسمع ٠
ـ لم نـدر ٠
ـ منع تجـول ؟
الجندي : انزلوا كلكم ·· انزلوا ٠
جندي٣ : اصطفوا هناك ·· اصطفوا ··
(يتراجع الجنود ويصطف العمال وهم يتساءلون) ٠
العمال : ما الحكاية ؟
ـ منع تجول ٠
ـ لا حول ولا قوة الا بالله ٠
جندي : احصدوهم ٠
(رشات متلاحقة ، اصوات توجع تظل تسمع فيما نـرى صالح يزحف ويلفه الظلام) ٠

احدى عشرة : في المحكمة

(رئيس المحكمة يتلو القرار النهائي بينما الموقوفون واقفون في القفص) ٠
رئيس المحكمة : وبعد أن استمعت المحكمة لاقوال شهـود

الادعاء وشهود الدفاع ، تبين لها أن العقيد شدمي رئيس حرس الحدود في جيش الدفاع الاسرائيلي قد اصدر امرا عسكريا ملتبسا اساء تفسيره الضباط مما أدى الى لبس وتشوش نتج عنه مأساة مؤسفة ٠

ان هذه المحكمة لتنظر بعين العطف الى اهل الضحايا ولا سيما الذين فقدوا معيليهم في هذه المأساة المؤسفة وترى من حقهم الحصول على تعويض مالي مناسب ٠ وتقرر ٠٠٠

ـ قطع ـ

ـ اثنتا عشرة ـ

(لقطة قريبة ليد ترمي قنبلة يدوية) ٠

القنبلة تنفجر بسيارة عليها النجمة الاسرائيلية وفيها عدد من الجنود ٠

(وربما يرى المخرج استخدام مزيد من الصور للدلالة على المقاومة التي هي رد على الظلم والى تلفيق ومحاولة شراء دم الضحايا بالنقود ٠٠٠) ٠

لقطة عامة للمقبرة فيما يقرأ صوت من خارج الكادر :

« كفر قاسم
انني عدت من الموت لاحيا
فدعيني استعر صوتي من جرح توهج
واعينيني على الحقد الذي
يزرع في قلبي عوسج ،
انني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي
وأمشي ثم أمشي واقاوم » ٠

□

يعاد منظر استعراض الطبيعة الاول وبدلا من الموسيقى تستعمل مؤثرات صوتية حربية مختلفة واثناء ذلك تكتب اسماء المشتركين في اعداد واخراج الفيلم والفنيين ٠٠

هنــدي أحمر

انا فتـــى اهوج سريع الانفعال احـب النساء ولا سيمـــا البيضاوات ٠ وفي طفولتي كنت اربت على القطط البيضاء وألقي خطبا على الثلوج ٠ أما ان يلوح حمار اسود او كلب احمر فالويل كل الويـــل ٠

كان أبي اقطاعيا عابثا كثيرا ما يترك الاطيان ويصطحبني الى العاصمة حيث لا نفعل الا ملازمة صالات السينما نشـــاهد افلام الهنود الحمر ٠ ويا لها من ضوضاء تلك التي نثيرها عندما يشد الهنود وثاق المرأة البيضاء ويهيئون القدر لطبخها ٠ أروح ازمزم وأمأمي٠وابي يلوح بطرف عباءته متحمسا للبطل الابيض الذي يعدو لنجدتها ٠

ـ ايوه النشمي ٠

يصرخ ابـــي :

ـ عفيه عليك ٠ اخو اختك ٠

والبطل يجندل الهنود واحدا تلو الاخر ٠

ـ اخسوا ٠٠ اخسوا !

يندد ابي بالهنود التعساء والناس ينفضون من حولنا وابي لا يبالي ٠ يقسم ابي ونحن نغادر الصالة انه سيزوجني واحــدة امريكانية ، لو أمدّ الله في عمره ، وعندما تستخفه الحماسة اكثر يعدني بأربع زوجات منهن دفعة واحدة ٠

ما ألذها من اوقات بصحبة والدي الطروب ، غير أن القدر كان يترصد مسراتي اذ دقّ الله عنق ابي في عهد ميلاده المئوي الاول وخلفني يتيما وحيدا الا من امنية ظلت تراودني ، وبضع الاف من الدونمات صفيتها سريعا ونشرت نعيا مناسبا في الصحف تحت عنوان (زهرة تذبل) وأشرت الى مائة عام امضاها في اعمال البر والتقوى وانتقل بعدها الى جنان الخلد . ثم شددت الرحال الى بيروت ابحث عن زوجات لي وقد بلغني ان الامريكانيات متوافرات هنـــاك .

تباركت يا خالق بيروت ونساء بيروت . اقسم ان الحليب يخجل من لونه في بيروت . تلك الفساتين القصيرة كثيرة الفتحات من حيث تتسلل نظراتي ويرتكب شيطان خيالي الفظائع ولا احد يحاسبني .

– قوم ممتازون ! قوم بيض ! قلت لنفسي . ولكنني لا افهم عليهم . هذه مشكلتي انا . تعسا لي ما أحمقني . كيف تراءى لي أن اتزوج امريكانيات دون أن ألم بكلمة واحدة امريكانية !

وهكذا استرقت من ساعات السينما والبصبصة وقتا لمعهد اللغات . وكان اشق الاوقات على نفسي وأبغضها . وبعد طول مثابرة قال لي البروفسور :

– مسيو . لا تغلب حالك . عمرك ما بتتقن لغات اجنبية .

فودعت المعهد حزينا ومعي قائمة ببضع كلمات بسيطة قال لي البروفسور ان أداوم على مذاكرتها لعلها تعلق في ذاكرتي وتفيدني ، وتمنى لي زواجا سعيدا .

في هذا الوقت العصيب التقيت بالدكتور مهمد سميث . كان ذلك في صالة سينما طبعا . الفيلم ليس عن الهنود الحمر بل كان عن الكوريين الصفر .. لا يهم . الويل الويل ما دام ان الضابط الابيض متورط يكاد يسقط في الفخ المبيت .

استمرارا لتقاليد الاسرة رحت اصدر تلك الاصوات البدائية وألوح شاتما محذرا ، واتهدد الكوريين بسوء العاقبة . ولا بد في

حمى جلبتي قد اصبت عين جاري بسوء فقال :
- مسيو خليك رايق شوي ٠
صرخت ساخطا :
- مسيو انت كوري اصفر ٠
قال بلهجة رقيقة :
- باردون مسيو ٠٠ لا مش ممكن ٠

رب صداقة حميمة بعد شجار ٠ لقد غادرت السينما متأبطا ذراع زوجته البيضاء التي ما فتئت تزقزق بما لا ادري غير انني اهز رأسي موافقا ٠

- وي مدام ٠ يس يس يس ٠
افادني الدكتور مهمد بعد أن جلسنا في مقهى على الروشة انه استــاذ يدرس مــادة الانثروبولوجي في الجامعــة وانزلقت متســائلا :

- يعني ماذا يا دكتور ؟
- أوه !
قال الدكتور :
- التراديشنز والكوستمز ٠ يعني الناس الناس ٠ ! يو سي ؟
- أوه !
أجبت متذكــرا :
- يس يس يس ٠
وسألتني زوجته :
- المسيو من وين ؟
ففهمت هذه وقلت :
- انا من الاردن ٠
- أوه مهمد ٠٠ ريفيوجي ٠

خاطبت زوجها وهي تربت على خــدي كما لو انني كلــب محبــوب ٠

- اوه ٠٠ بيه ٠٠ الاردن بلد ابضاي ٠
راح الدكتور مهمد يهز قبضته الحماسية فاصاب الجرسون الذي يطل محملا بالكباب والمازات العظيمة ، فضحكنا وضحك

الجرسون وكان الجميع سعداء ٠

وما ان افرغت الكأس الثاني الى جوفي حتى اعترتني النمنمة المعهودة وراحت عيناي تتسللان عبر فستان المسز سميث ٠٠ بيضاء ! بيضاء ! ولكن لغيري ٠ آن لي ان انهي مسألة زواجي واعود للوطن ٠

ـ اوه ٠٠ ذات ازفيرا ٠
باغت الدكتور مهمد تأملي ٠
ـ آند هنـان ٠
لوحت مسز سميث وهي تزقزق ٠
ـ جوين اص ٠

يا لتعسك يا فتى ٠ فالبنطال البرتقالي ايضا عظيم ٠٠ كل شيء عظيم على النساء هنا ٠٠ وحق الشيطان لا يسعك الاختيار بين واحدة منهما ٠ فلتكن كلتاهما اذن ٠ بنطال برتقالي وميني اخضر هذا ما تحتاجه ٠

ـ هابي برؤياك ٠
قلت لفيرا متفحصا بنطالها ٠
ـ هابي اني اشوفك ٠
قلت لهنان متزحلقا على ما تحت الميني ٠
وقدمني الدكتور مهمد :
ـ مستر ألي من الاردن ٠
وحق السماء ان هذا الاسم اجمل من علـي ٠
زقزقـت العصفورتان فرحتـين بي وجلسنا سعداء نتحدث ونشرب مزيدا من العرق ٠
ـ ليبرتـي ٠
صرخ الدكتور مهمد ٠
ـ هذه هي صيحة العصر وكل الافكار الثانية كلام فالصو ٠
ـ وي ٠ وي ٠
اجبته والتهمت ملعقة اخرى من الكبة النيئة قدمتها مسز سميـث ٠

ـ اذن المسيو من الاردن ؟
سألتني فيرا البرتقالية ·
ـ وي · مدموازيل · يس ·
اجبت وتمنيت لو ان بروفسور معهد اللغات الاخرى يرى تقدمي السريع ·
ـ اوه ·· هاو بور !
قالت هنان الخضراء ·
ـ وي مدموازيل ، وي ·
ـ الاردن هاوبتي ·· اعتداءات ويمبز ·
فهمت هذه فقد كانت امي تسمي القنبلة بمبه فقلت :
ـ يس · يس · بمبز كثير ·
شرقت بجرعة ضخمة من العرق ورحت اسعل وانفث ، وروحي تكاد تفارق ، فهب القوم البيض لنجدتي ·
ـ استعمل كلينكس ·
قالت فيرا ·
ـ فاي احسن ·
قالت هنان ·
ـ الجنتلمن يفضلون فاين ·
قالت مسز سميث ·
ـ نثنج بت ذا بست : تمبو ·
قال الدكتور سميث ·· وايديهم تمتد عارضة تلك الاوراق الملونة والدمع يطرز عيني وانا اجاهد لابقاء روحي ضمن بلعومي· فوقفت اخيرا وعاودت جلستي بين ضحكهم المتصاعد · لم يعجبني هذا الضحك في غير أوانه فبدأت ارتاب بنيات جلسائي ·
استأنفت النسوة القامي الكبة النية والربت على جسمي مرددات : هاوبور هاوبتي !
وانا لا افهم المقصود تماما غير انني انكمشت مثل قنفذ حزين اسمع ضحكهن واصلح من هندامي ·
ـ لكن شعب الاردن كله أبضايات ·
قالت فيرا ·
ـ معلوم ·· البدو كلهم ابضايات ·
قالت هنان ·

والتمعت عينا الدكتور سميث فقال :

ـ شعب الاردن كله غوريللا .

وهنا هاج جنوني فوقفت محتدا :

صرخت به .

ـ انت فهمان غلط .. غوريللا بالامريكاني يعني ..

قال الدكتور وقاطعته : هست يا دكتور لا تقل غوريللا ابدا .

ـ كريزي . سوفاج .

ولولت الحريم وهن ينظرن الى يدي . كنت قد نسيت السكين دون قصد فطاف بذهني هاجس ان اطبخهن في قدر ضخمة .

ـ هست يا حرمه .. انت وهي وهي وهو .. هست اوهو هاييه.

وقذفت سكيني فنشبت واقفة بخشب الطاولة وراح البيض يتدافعون بغير انتظام وانا احملق بالدكتور سميث مستعدا لان اطبخه ونساؤه في قدرة واحدة ، لكنه لاذ مندفعا وكنت متخما تماما فقررت تركهم .

وانا اغادر المكان خفيفا لاح لي ابي مبتسما وقال :

ـ الدنيا سينما يا ولدي .. سينما !

ـ وانا هندي احمر يا والدي .

قلت له .

ـ انت رأس فارغ دون مخ ، تماما مثل امك .

قال لي فسألته عرضا :

ـ هل تقضي وقتا طيبا عندك ؟

فأجاب :

ـ الجو حار جدا هنا . ولكنني الهو .

ـ يا لتعس مصيرك ايها الشيخ ـ ولكن ما الذي فعلته بلحيتك الطويلة ؟

ـ احرقوها بالصحيفة التي نشرت عن اعمالي في البر والتقوى .. اللعنة عليكم وعلى صحفكم .. من كلفك بهذا الهراء يا ولد ؟

ـ جميعهم يكتبون هذا . ما ذنبي .

ـ وتحرق لحانا هنا بالصحف نفسها .. هذه عقوبة اضافية تحل بنا . اخبر اهل الدنيا بهذا .

ـ سأفعل . سأفعل . قل لي ما هي مشاريعك للمستقبل ؟

سأتزوج ·
لوح لي مبتسما ·
ـ حتى في جهنم ؟ ومن هي تعيسة الحظ ؟
قلت مستغربا :
ـ امرأة هائلة اسمها مارلين مولرو ·
ـ مونرو · ايها الشيخ الجاهل ·
ـ مونرو وليست مولرو ·
ـ عجيب ·
ـ قال الشيخ وضم يده ظانا انه سيمسك بلحيته فامسك بالفراغ ·
ما العجيب ؟
سألته ·
ـ عندنا واحد مزعج يظن نفسه رئيس امريكا ، واسمه مونرو ·· ويطالب برئاسة جهنم ـ انه يغلب العفاريت هنا ·· قل لي هل هو أبوها ؟
سألني الشيخ وغمز بعينه ·
ـ لا أدري · لست مطلعا على اسرار القوم · ولكن ما بالك لا تقع الا مع الامريكان ؟
ـ يعجبونني ·· لطفاء وبيض ·· بيض جدا ·
فقلت له :
ـ يا لكم من شلة جهنمية يليق بعضكم ببعض · انا هندي احمر ·
قلت له وكررت : هندي احمر !
ـ انت رأس فارغ دون مخ مثل امك ·
ذكرني الشيخ ثانية وغمز مودعا :
ـ الدنيا سينما · باي باي ·
ـ وعليكم السلام ايها الشيخ العابث · الله جيدا ·
كنت اعبر شوارع بيروت ورأسي يدور بشدة · في طريقي الى مكتب السفريات رأيت محلا لبيع الدجاج · مددت يدي من خلال قضبان القفص وانتزعت ريشة من ذيل ديك راح يتصايح · شبكت الريشة في شعري الكثيف ومضيت اختال كهندي احمر ·

صيـاح الديـك

(١)

في الدقائق الاخيرة من النهار فتحت البوابة وخرج السجين • انه رجل مشعث نحيف البنية يتقدم بخطى بطيئة متفحصا ما حوله • لم يطمئن لهذا الشحوب الذي يغلل وجه الفضاء • لون رمادي لا يساعده على وضوح الرؤية ، فاخفض عينيه واعاد النظر الى الشجيرات الصغيرة التي تحف بمسيرته وتمد ظلالا باهتة طويلة فبدا المنظر بمجمله غير حقيقي اشبه بلوحة طبيعية كئيبة • وسارع من خطاه والحقيبة القماشية الخفيفة تلامس في حركتها فخذه الايسر انها تكاد تكون خاوية فيشعر بعدم ضرورتها •

عما قليل سيدخن لفيفة من عثمان • حتى في هذه الرغبة هو غير متعجل • لقد بدأ يستقبل العالم الخارجي تدريجيا • صوت حركة السير وزعيق بعيد فيما هو يتقدم من السور الضارب حول المساحات المشوشة •

عثمان يضحك ويلوح بيده وقرص الشمس يكاد يسقط وراء القلعة العالية • وقت غير مناسب لخروج سجين • وقت متأخر جدا • غير انه نفض الفكرة من رأسه وحث خطاه واصدر صوت ضحكة غريبة فيما راح يعانق عثمان مراوحا بين الكتفين ويسمع طقطقة القبل المتبادلة وعثمان يكرر (الحمد لله على السلامة) • الى يساره

رأى صفا من الحوانيت • ازرار الكهرباء تتدلى فوق الفواكه والخضراوات المنضده ، والتفت غربا فاذا الشمس قد سقطت نهائيا •

عثمان قصير سمين ويرتدي بزة غامقة وقميصا شديد البياض• لم يكترث السجين بهذا • انهما صديقان قديمان قادا حياة متشابهة في السجن • ولكن لماذا هو منقبض دونما سبب واضح ؟

قال عثمان :

– ما اشد حاجة الخارج من السجن الى سيجاره • دخن •

– نعم ، نعم •

قال السجين وابتدأ يملأ رئتيه دخانا ويفرغهما • ان عثمان لأقصر قامة مما يظن ولعل هذا عائد الى سمنته ثم ان شعر حاجبيه كثيف جدا •

وقال عثمان مشيرا بكفه :

– سيارتي • ستعتاد عليها مع الزمن •

دخل السجين واغلق عثمان الابواب • اضواء السوق هنا وهاجه حتى لتكاد تنسى وجود العتمة • اما حين رفع عينيه الى الجبال المليئة بالبيوت والتي اضاءت ازرارا كهربائية فقد شعر ان الغلبة للعتمة وان تلك الازرار تجاهد بيأس في وجه العتمة الوافدة •

– لحظة واحدة •

قال عثمان •

في الواجهة الزجاجية كتب مرتبة • على الجانبين تتدلى الجرائد والمجلات المغلفة بصور النساء ، والضوء الابيض ينطفىء ويعود في قلب النيون •

– لا استطيع النوم دون قراءة جريدة •

قال عثمان • واضاء زرا صغيرا وقدم الجريدة •

– اتريد ان تقرأ اخبار الدنيا ؟؟

– نعم لا بأس •

قال السجين ومر بالعنوان الاكبر فالاصغر • ثمة كثير من

القلاقل في الدنيا ، ولايضاح ذلك ها هنا صورتان عن قتلى وجرحى ، انه يزداد انقباضا .

من جديد توقف عثمان واستأذن للحظة اخرى . رأى السجين الجزار يضرب بساطور ضخم جسد خروف متدليا من خطاف معدني . وعاد عثمان يحمل ظرفا .

ـ بيض غنم لافطار غاده .
قال عثمان . واستأنف :

ـ غدا عندما تتزوج تعرف هذه الاشياء . مجلة المرأة وافطار المرأة وحليب الطفل و ... و ... يا سيدي ... أكمل عثمان تعداده بضحكة رد عليها السجين بضحكة ، وعجب لهذه الاصوات التي يتوجب عليه اصدارها بين الحين والحين . وسارت العربة .

لو ان الوقت صباح اذن لكان كل شيء افضل . في الصباح ثمة فسحة للتفكير والتدبر بدل ان يقاد هكذا بقسر ، ينتظر كلما توقف عثمان ويضحك كلما ضحك . يا لها من بلبلة يستقبل بها العالم الخارجي . وعثمان يقول :

ـ العمل اولا ، ثم ومن ثم الزواج . كل صعوبة تذلل ولكن عليك ان تبدأ سريعا .
ـ نعم طبعا .
قال السجين وقلب الجريدة وقرأ نتفا أخرى .
ـ هل تصدق ، شهر واحد ومع ذلك يحمل ملامحي كاملة .
كان هذا بصدد مقبل طفل عثمان الاول .
ـ جميل . جميل جدا .
قال السجين ، وقال عثمان .
ـ لا تعرف جمال الابوة الا عندما تصبح ابا . هذه خبرتي .
ـ بالتأكيد .
طمأن السجين . حقا ان خبرات عثمان كبيرة .

□

وحين فتح الباب عن مجال من الضوء الساطع وهي واقفة تقول :

(اهلا وسهلا) ومدت ذراعا عارية تنتهي في الكتف المسورة باللون الاسود الملتمع ٠

الفستان اسود والشفتان حمراوان ٠ قال :

ـ اهـلا بـك ٠

عثمان يشير بكفه مقدما احدهما الى الاخر بحركة مسرحية فيما السجين مرتبك بحقيبته السخيفة ٠ ليته تركها في السجن ٠ ثم يخطو متقدما الى الصالون في اذنيه اختلاط صوتيهما وحين يرى وجهها يبلله ذلك التوهج ويروح يبحث عن كلماته التي سيعدها ٠

لوحات تتدلى ٠ مقاعد سماوية اللون ٠ خشب اشقر ٠ طاولات متباينة وهرم من التفاح الاحمر في آنية زجاجيـة ٠ لقـد استوعب الصالون بنظرة متجولة ثم وضع حقيبته في الزاوية وجلس ٠

ـ تصرف كأنك في بيتك ٠

قـال عثمان ٠

ـ بيتـك واكثـر ٠

قالـت غـادة ٠

والسجين يكرر : شكرا ٠ شكرا ٠

تتحرك في مجال عينيه بذلك الوهج الاسـود وتتكلـم باسنان بيضاء صغيرة ٠

ـ كلنا نخرج من السجن اخيرا ٠

قال عثمان وقد شمر عن ساعده وقدم سيجارة ٠

ـ ٠ نعم بالتأكيـد ٠

قال السجـين ٠

ـ وننسـى ٠

قال عثمـان ٠

ـ ننسى سريعا ٠ احيانا ، عندما يرهقني العمل اتذكر السجن كمكان هادىء ـ واقول لنفسي ـ والله انها ايام لطيفة ٠

ـ لطيفة ربما !

هز السجين رأسه متأملا ٠

ـ المهم اننا سريعا ما ننسى ٠

نفخ عثمان الدخان من منخريه الضيقين وهو يكرر حقيقته

البسيطـة ٠

ـ وما هو الشيء الذي لا تنساه ؟

ضاحكة قالت غادة فضرب عثمان كفا بكف وقال :

ـ بيض الغنم على الاقل ٠ لا انساه ابدا ٠

همّت غادة الى الظرف وسعت به الى المطبخ ٠ في مجال اذنيه تنقر الارض نقرات سوداء متوهجة ويلمح هرم التفاح ويخشى أن يمسك متلبسا بالنظر ٠

هل ان في البيت تهيؤا خاصا به ام ان هذا ما يحدث كل مساء ؟ الخشب الاشقر يلمع كل مساء ٠ هرم من التفاح كل مساء ؟ كـل مساء ؟ يا له من سجين قليل الخبـرة ٠

ـ تعبان ؟

تنقره بسؤال فيتراجع بجلسته ٠

ـ لا ابـدا ٠

اسنانها الصغيرة البيضاء وبؤبؤا عينيها ثقيلا السواد وهو مرهق بالتأكيد ٠ ليود ان يسمي لون بشرتها لولا هذا الاحجام الذي يتولاه وعيناه تبدآن المسيرة على امتداد ذراعها ٠ بل هو يمضـي سائرا وصوت انسكاب الماء في المغسلة ونفيف عثمان يأتيه من الداخل ٠ ان منبت كتفها يصب مرة واحدة في بئر فستانها الاسود ٠ وعندما تحركت قليلا رأى مطلع استدارة اكثر تألقا ببياضها ، ثم تلك الاضمومة من شعيرات قصيرة غامضة الظلال ، فرفـع عينيه والتقى بالبؤبؤين الاسودين وتحرك مضطربا في المقعد ٠ ان شفتيها مطبقتان ومع ذلك فكأنهما تخفيان ابتسامة سرية ٠

اقبل عثمان يفرك وجهه بمنشفة بيضاء ٠

ـ ما رأيك في ان تغسل وجهك ؟

سأل عثمـان ٠

ـ يـا ليـت ٠

ـ آه ٠ هل تظن نفسك في السجن ! اطلب بنفسك ٠ قلنا انك في بيتك ٠ لا ٠ لا ٠ قم ولا تتظاهر بالتأدب مرة ثانية ٠

اتراه يترنح في مشيته ام انه هكذا يظن بنفسه الظنون دون

مبرر • انه حانق ويريد ان ينفرد ليناقش بلبلته • وها هو بدل ان يحاول فهم اسباب ضيقه يجول بعينيه في المكان ويعجب من ان دورة المياه هذه نظيفة اكثر مما يتوقع •

(٢)

الطاولة شقراء وفوق لوح الزجاج وضع الطعام • بطل الوجبة هو الديك الجالس في صينية مشويا حتى الاحمرار ، يشرئب عنقه قليلا لينتهي مطأطئا ، وفي نهايته ما يزال الرأس معلقا مدفون المنقار في المعكرونة الطرية • وتحف المعكرونة بجسد الديك من كل جانب • سلطات بيضاء • سلطات خضراء • وسلطات حمراء وصحون صغيرة اخرى لم يميز ما فيها •

- اعددت لك غادة وجبتها المفضلة •

قال عثمان وسحب للسجين مقعدا هو رأس المثلث في الجلسة •

- وجبة فاخرة •

قال السجين وتناول المنديل الابيض من يدها ، وتأمل الديك التعس يمرمغ رأسه في المعكرونة • ديك مهيض الكرامة •

وقال عثمان : ضيفيه يا غادة بدل ان يظل يتأمل •

فانتزعت وركا وهي تميلّ الديك وتحرك منقاره في المعكرونة يمنة ويسارا • ووضعت في صحنه خليطا من السلطات ايضا •

- وانت كالعادة تأكلين الصدر •

قال عثمان وانتزع لنفسه الورك الاخر • فمزقت صدر الديك وهي تقول :

- الصدر اطيب مع ان كل الناس يحبون الورك •

الان وهي تحرك ذراعيها رأى السجين منبت كتفها وتلك العتمة المخبوءة ، وراح يزدرد الطعام بصعوبة •

قال عثمان :

- كل كما يأكل سجين خرج للتو • وعلى قدر اكلك ترضي غرور غاده •

- طعامي طيب • لا احد يستطيع ان ينكر •

رنين المعدن على الزجاج واصوات مصمصة العظام والالـوان والوهج الاسود والوهج الابيض وحتى المعكرونة السلسه يشعـر بمرورها حادا عبر بلعومه ٠

قال عثمان :

ـ لا ٠ اكلك لا يعجبني ٠ ما بك يا رجل

ـ انني آكل على قدر طاقتي ٠

قال السجين ، وقالت غادة :

ـ ابدا والله ٠ انت مهموم ٠

وقال عثمـان :

ـ كلنا نخرج من السجن مهمومين ٠ فعلى الرغم مما يسمونه ظلام السجن يجد الانسان نفسه مكفولا هناك ٠ له مكان ٠له طعام ٠ آ ٠ انا افهمك يا صديقي ٠ طبعا !!

السجين يسمع ويحاول ان يفهم وعثمان يستأنف :

ـ ولكن لا تبال كثيرا فالسجين سرعـان مـا ينسى ويبـدأ ٠ البداية صعبة حقا ٠ اذكر اول عملي مع شركة التأمين ٠ كنت جوابا ادلف الى البيوت والمكاتب واتحدث ساعات طويلة لاظفر بزبـون فاظفر بعموله اتحدث واتحدث وكثيرا ما لا افوز بغـير الخذلان ٠ واعود مهموما واظن ان السجن افضل ٠ خواطر حمقاء ! تعلم !

ثم انتبه وقـال :

ـ لماذا توقفت ٠ بامكان من يسمع ان يأكل ٠

فقالت غـادة :

ـ الحديث عن التأمين يقتل الشهية ٠

ـ ابـدا ٠

قال السجـين :

ـ ولكنـي انتهيـت شكرا ٠

قال عثمان وهو ينكش اسنانه :

ـ على راحتك ٠

وسألت غـادة :

ـ تأكل التفاح هنا أم في الصالون ؟

ـ ليست بي رغبة للتفاح الان ٠ هل نؤجله ؟

ـ طبعا · اذن نشرب القهوة هناك · تفضل واغسل يديك · في الصالون استمـر عثمـان :

ـ سأتكفل بتدبير عملك في شركتنا وهذا يوفر عليـك عناء البحث · حتى وظيفة الجوال ليست مفتوحة ببساطة هذه الايام ·

لقد طال العهد عليه منذ غادر السجن · عثمان يعرف كثيرا من الحقائق وهو الان يكاد يبدأ النسيان ثم راح يسمع ·

ـ الموظف الجواب يشقى لان الناس حمقى لا يدركون الاهمية الحيوية للتأمين · كلهم ينجب اطفالا فـاذا حدثـت احدهم عـن مستقبل الاولاد هز رأسه وقال لك : (ما من دابة الا وعلى الله رزقها) نعم ولكن الله يحب ان تعمل دوابه من اجل تأمين ارزاق الاولاد ·

عثمان ينفث الدخان وقد تلبسته حماسة ادهشت السجـين بل أفزعته قليلا · من المطبخ تأتي اصوات قوقعة الاواني وارتطام بعضها بصفيحة القمامة · لا بد ان رأس الديك قد قذف هناك ·

ـ ولكن الموظف الجواب الحقيقي لا ييأس بل يجرب مرة بعد مرة · ان مهمته تنطوي على شيء من عمل المنوم المغناطيسي · يا طالما تحدثت مع واحد من الحمقى وخذلني ثم اعاود الكرة بطريقة اكثر تسللا الى القلب حتـى تسقط منـه تلـك الجملـة الذهبية (جهز البوليصة) قد يندم فور موافقته ولكن الوقت قد فات · البوليصة سرعان ما تجهز والقسط الاول يدفع · لقد دفع الزبـون وتحققت العمولة · معظمهم يكف عن الدفع بعد عدة اقساط ويخسر ما دفعه ولكن ما الذي يهمك انت ؟

اقبلت غادة تحمل صينية القهوة متصاعدة البخار وقالت :
ـ حرام · قرقعت دماغه بالتأمين ·

ـ طبعا · ماذا على النساء غير أن يسخفن اعمال الرجال · قل لها بالله عليك من اين تأكل وتلبس لولا شركة التأمين ·

ـ فهمنا ولكن يكفي ثماني ساعات للتأمين ·

ـ يا عزيزتي الغيورة حتى من شركة زوجها مع انها في خدمتك ·

رنت غادة بضحكة لم يحبها السجين · لم يحب كل هذا الحديث ولا ما يثيره وراح يشرب قهوته ببلادة ·

ثم سمع صوتا كالمواء يأتي من الداخل ·

ـ ها ها · استيقظ مقبل · احضريه ليراه صديقنا ·

قال عثمان بحماسة ·

وعادت غادة تحمل لفيفة فيها مقبل وانحنت تقدمه الى السجين الذي بوغت ، وتذكر فجأة حديث عثمان عن الطفل ·

ثم وازن نفسه وحمل اللفيفة · ما الذي انجب هذان الزوجان ؟ وجهه نحيل متطاول ولسانه متدل يغلق فمه الباهت وعيناه ثقبان ضيقان ·

ـ ما شاء الله · ما شاء الله !

قال السجين وسمع كلمات نفاقه غريبة غرابة احداث الليلة بمجملها ·

ـ ملامح والده مئة في المئة ؟

قال عثمان ·

اجاب السجين واغلق عينيه مرهقا · ليود فقط ان تعم العتمة المكان وينام ·

(٣)

السجين نائم والكوابيس تجتاحه ·

بدأ الامر بداية مازحة · هو وعثمان في شارع خال · عثمان يعابثه بحركات بهلوانية وضحك صامت · عثمان يخلع قميصه ويفك ازرار قميص السجين ويختطفه في عملية مبادلة كاريكاتورية ثم يركض هاربا · السجين يضحك ولا يسمع صوت ضحكه ايضا· ويكتشف انه متوجس · يحاول اللحاق بعثمان ومخاوفه تزداد · انه غريب هنا ويخشى ان يضيع عثمان ، ويرى الان ان الضباب يكتنف المكان ويضاعف من ركضه بينما ينأى عثمان ويختفي وراء المنعطف · الحجارة الصغيرة تنهال عليه · مجموعتان من الاولاد تتبادلان قذف الحجارة ·

المطر يبدأ بالتساقط ، قميص عثمان فضفاض عليه وهو لم يغلق ازراره ، لم يتطلع الاولاد اليه ولم يستطع ان يبلغهم رجاءه ان يكفوا فركض مطأطئا رأسه وهلعه لفقد عثمان يزداد ، الحجارة تصيب رأسه المبتل ، مسح مواضع الوجع بكفه ورأى دمه المختلط بالماء واستمر يركض ، انعطف هابطا بين عدد من البيوت ولم يجد أي أثر لعثمان وهنا ادرك انه غريب تماما فوقف حائرا ، تقدمت منه امرأة في منتصف العمر فرجاها ان تدله على الطريق الى قلب المدينة ،

ـ انت غريب ؟
قالت لـه المرأة ،
ـ نعـم ،

فأدخلته بيتها وهي تقول انه بحاجة لان يجفف ثيابه ، جلس في غرفة شحيحة الاضاءة ، ثم لمح المرأة تجوس هناك غير منتبهة له وكأنها نسيته ، لم يستطع أن ينادي ، راح يمأمئ محاولا ان يجد منفذا ولسانه الضخم يحتبس الصوت ، لوح بيده واشار الى فمه فاختفت المرأة دون ان تحس به ،

□

فتح السجين عينيه وادرك انه نائم في غرفته وانه انما يحلم ، لحظة واحدة ثم سقط ،

□

في غرفة واسعة شحيحة الاضاءة يجلس فوق دكة عالية ورجلاه تتدليان ، امرأة جميلة الى يمينه ورجل قصير الى يساره ، يود أن يكلم المرأة ولكنه لا يعرفها ، دخل رجل طويل يلبس بنطالا اسود وجاكيتة بيضاء وقال منحنيا بصورة احتفالية :
ـ ماذا تأكلون ؟

التفت السجين يمنة وفوجئ بأن الذي الى جانبه ليس الا دمية كبيرة من البلاستيك ، لقد لمحها بهيئتها الجامدة وما أن

رآها حتى حركت عينيها متظاهرة بأنها امرأة . نظر يســـارا فوجد ان الرجل الطويل بعد منحن وانه بلاستيك ولكنه تحرك في اللحظة التي سقطت عليه نظرة السجين قائما مثل الرجال . فزع السجين وراح يلتفت هنا وهناك . ان هلعه من تظاهرهم يتضاعف لكنه لا يستطيع الفرار .

□

الان فتح السجين عينيه لحظة اخرى وتأكد من انه يحلم وهو لن يسمح لنفسه بأن يغفو ثانية . انه خائف جدا . ومن جـديد سقط للعالم السفلي .

□

انه في مستشفى طويل ابيض . يدخل الطبيب وهو عملاق حسن الهندام يتخلل الشيب شعره . الامر الغريب أن رأسه يلمع وكأنما دهن بمادة صقيلة جدا .

أمـــره الطبيب ان يتمدد ويرتاح . وكـرر عليه ان يرتاح ولا شيء اخـر .

قال الســـجين :

ـ انا مستعد لان اقول قصة حياتي .

قال الطبيب :

ـ لا . لا . الوقت مبكر . عليك ان ترتاح فقط .

يحاول السجين أن يرتاح فيما جلس الطبيب عند قدميه وبدأ يمازحه بأن يمرر اصابعه على راحتي قدميـــه ومـــن جديـــد قال السجين :

ـ انا مستعد لان اقول قصة حياتي .

والطبيب يبتسم ويزغزغ قدميه . ثم فجأة انتصب ودفـع الطاولة التي يستلقي عليها السجين وهو يقول بوحشية :

ـ بنتّجوه .

والسجين يشير بيده . انه يريد ان يقول قصة حياته .

ـ افتح فمك ٠
صرخ به طبيب صغير وهو يسدد حقنة مليئة بالبنج ٠ ان عينيه جاحظتان واسنانه غليظة ٠ فتح السجين فمه ودفع الطبيب الحقنة في لثته السفلى حتى اخترقها ٠

ـ اسنان غير سليمة ٠
قالت ممرضة شابة ٠ وبدأوا يكسرون اسنان فكه الاسفل والممرضة تنزع الجذور المتبقية باصابعها ٠

ولاح الطبيب العملاق فرفع السجين اصبعة ليوضح انه مستعد لان يقول قصة حياته ٠ يلحف بمد اصبعه ولا يستطيع كلاما غير ان الطبيب العملاق يمر بـه دون اكتـراث ٠ ورآهـم يحضرون كيسا قماشيا ابيض ليدخلوا رأسه ضمنه وهو يصرخ دون صوت :
ـ لست مجنونا ٠ هذا غلط ٠ لست مجنونا ٠

وهب مستندا فور ان فتح عينيه ٠ لقد استنفر قواه السرية ضد السقوط من جديد ٠

(٤)

لا بد ان عدة ساعات قد مرت على مولد الصباح ٠ هو لم ينم ثانية الا مع اول خيوط الفجر ٠ اذ ذاك شعر انه بامان وان بوسعه ان يغفـو ٠

خطواتها تنقر ارض الصالون وصوتها يدنـدن باغنية لـم يستبنها ٠ من المؤكد ان ضوء الشمس في الخارج قد بلغ النضج ٠ حرك جسمه واصدر سعالا وهدوء غير صاف يشمله ٠ نقرتان ونصف اطلالة عبر فتحة الباب ٠

ـ صباح الخـير ٠
ـ صباح الخـير ٠

معتدلا في جلسته اجاب ٠ وسألته مبتسمة :
ـ تحب الحليب مع القهوة ؟
ـ آ ٠٠ نعم ٠٠ لو سمحت ؛
انسحبت موافقـة باغماضـة مبتسمـة ٠ مسيرة عنقها الـى الصدر متفتحة تحت جاكيتة البيجاما البيضاء المرشومة برسوم

زهور صغيرة ٠
(زنبقة سوداء مضمومــة في الليــل ٠ قرنفلــة متفتحة فــي الصباح) ٠ سره ان يهتدي الى هذه الكلمات وقال لنفسه انــه ليس بحالة رديئة رغم الكوابيس ٠

اقبلت تحمل كوبا طويلا يتصاعد منه البخار وانحنت قريبا فرأى مزيدا من مسيرة عنقها الى ملتقى النهدين فاضطربت موجات لذيذة ترعى جسمه النحيل ٠

ـ كيف كانت ليلتــك ؟
ـ آ ٠٠ لا بأس ٠ لا بأس ٠

انها تجلس على طرف السرير الخشبي غير بعيد عن امتداد ساقيه ٠ رشيقة طليقة كمهر بري ٠

اقبل على كوبه يرشف منه او ينظر اليه منتظرا منها ان تقول شيئا فقالت :

ـ كنت م تاجا للنــوم ٠
ـ حقا ٠ حد ي كنت محتاجا للنوم ٠
ـ عثمان اوصا ان اتركك حتى تصحو من تلقاء نفسك ٠
ـ شكرا ٠ اين عثمان ؟

ضحكت وقالــت
ـ اين ؟ ٠٠ في شر ة التأمين طبعا ٠

تتكلم دون جهد وتنقر الخشب وتبتسم ٠
ـ انت تحب النوم مثل مقبل ٠

وثبتت فيه نظرة فكأنما تدق مسمارا تسره الملاحظة ولكنه مضى مع خيط الحديث ٠

ـ مقبل ضعيف البنية لماذا ؟
ـ ممكن ان الحليب لا يناسبه ٠ جرب كل الاصناف التي فــي السوق دون فائدة ٠ مشكلة ٠
ـ ولكــن لمــاذا ؟

تساءل بحماس ٠
ـ لماذا حليب السوق ؟ حليبك انت اكثر فائدة له ٠
ـ ابوه يريد ان اوفر حليبي ٠

ونظرتها تدق مزيدا من المسامير فتساءل كأنه غاضب :

ـ ولكن لماذا ؟
ـ لادري وجه له السؤال ٠
وقفت وهي تسقط ابتسامة حادة وانحنت على الكوب ثم قالت :
ـ حمامك جاهز ٠
وخرجت تنقر الارض فيما هو يتساءل ما الذي يمكن ان يدور في رأسها الجميل ٠

(٥)

النار تهدر في موقدها الداخلي وهو يوازن صنبوري الماء ٠ لا يريد ماء حارا ولا باردا ، وهو يعاود الاسترخاء في الحوض الذي يستعصي لونه على ان يسمى ٠ لا هو بالزهري تماما ولا هو بلون الخوخ به هو لون بيتهما ٠

لا ٠ انه لا يريد لسعة الحرارة هذه ٠ ويفتح صنبور الماء البارد ٠ ثم انه لا يريد ماء فاترا ومن الصعوبة بمكان ان يجد درجة الحرارة المناسبة

في الوقت نفسه هو مشغول بقطعة الحرير الصغيرة المثبتة فوقه على مشجب ذهبي اللون ٠ وفكر بها المرة تلو المرة ٠ انها راية تطل عليه ٠ ومع ذلك فهي ليست اكثر من قطعة حريرية سوداء ٠

لم يكن السجين يعرف ان درجة الحرارة الضائعة والتي يحاول عبثا ان يصطنعها هي ٣٧ مئوية ٠
ان الحوض املس تماما وصنبوري الماء طوع يده وهو متمدد يحلم بأن يرتاح ٠ هذه الفكرة الصغيرة (ان يرتاح) تستولي على خاطره وهو يجاهد عبثا ليحققها ٠
ليس هذا تماما ٠ بل جسمه النحيل المعذب في الحوض تحت لسعة الحرارة العالية او قرصة البرودة ٠٠ او فتاخة الفتور ٠ وتلك القسوة ! الراية القاسية ٠ بل القسوة في هذا كله ٠
من اين له ان يعرف بان درجة الحرارة ٣٧ مئوية هي تماما ما ينشده ٠ وهب انه عرف فما الفائدة ؟ انه لن يصطنعها في هذا الحوض مهما حاول ٠ لا ٠ ان السجين مبلبل ٠

ليكاد الان ينسى كل شيء عن عالم السجن الذي خلفه • ليكاد لا يصدق انه كان هناك يوما • ومع ذلك فان غيثا بليدا يطبق عليه • وهو لا يعرف على وجه التحديد شيئا من امره • كدخول خنجر خاطف • ثم من جديد تلك البلادة والماء الذي لن يكون في درجة الحرارة المطلوبة •

ان هذا بمجمله لا يعجبه وهو على غير وفاق مع نفسه فاقتطع الاسترخاء غير المريح وراح يجفف جسمه شاعرا بنوع من الاشفاق يجتاحه • اشفاق ينصب في الحقيقة على جسمه النحيل •

ابتسم بحزن وهو يرتدي الملابس المستعارة من عثمان • ملابس فضفاضة ، تنثني حول جسمه وتتركه وحيدا في الداخل •

قالت له عندما خرج :
ـ نعيما •
وقال لها :
ـ شكرا •

غير انه اشاح بوجهه • انه الان متعب ولا يريد اية ابتسامات قاسية • ولا يريد ان تدق في جسمه مسامير اخرى • انه رجل متعب ولا شيء اخر واتسع في روحه شعور بالاشفاق على نفسه داخل تلك الملابس المستعارة الفضفاضة •

وقالت له :
ـ الافطار جاهز •

رمق تلك الصحون الزجاجية البيضاء • ثم هناك بيض دجاج مقلي • بيض غنم مقلي • لبن ابيض • جبنة بيضاء ابريق زجاجي ابيض يتصاعد منه بخار الشاي • وكاسات زجاجية فارغة •

وما زال هناك هرم التفاح الموضوع منذ البارحة • اية بارحة ؟ بل هي ليلة بعيدة جدا • هرم التفاح منقوص حبة او اثنتين • هما اكلا التفاح البارحة • اما هو فظل يعتذر • ان هذا كله لبعيد جدا عن ذاكرته •

يجلس الى المائدة يأكل ببطء ويشعر باللقيمات تعبر بلعومه دون راحـة ٠

ـ مـا بـك ؟

تسأله وفي عينيها طيف تلك الابتسامة الدائمة ٠

وهو يتساءل لماذا يجب ان تكون الامور هكذا ؟ ابتسامة يقظة فيها قسوة لا يريدها كقسوة راية الحرير السوداء فـوق مشجب ذهبي ٠ ولماذا ؟ لماذا ؟

كان السجين مرنحا بفكرة النوم ٠ ليس النوم تماما بل ان يسترخي ويرتاح ٠

ـ لا شيء ٠٠ لا شيء ابدا ٠

يجيب السجين ٠ وحقا ليس به من شيء بل هو فقط يريد ان يرتـاح ٠

ـ لا ٠٠ انـت حزين ٠

كأنه ركل وهو يسمع ذلك ٠ وفيم ٠٠ نعم فيم التشفي ؟ انه متعب ولا يريد ان يؤذي احدا ٠ ويا لها من مفارقة بين ابتسامتها المشهرة وهذا الرجل الذي لن ينازل احدا لانه ٠٠ لانه تعس ويود ان يرتاح ٠ بيض ودجاج مقلي ، وبيض غنم مقلي ٠ وكـل تلك الجهارة المضنية مع انه لا يريد ان ينازل احدا ٠

وقالت له :

ـ انت لم تأكل شيئا ٠ هل انت خجلان ؟

وقـال :

ـ ابدا والله ٠ اكلت حسب شهيتي ٠

ـ لا يعجبك اكلـي ؟

فقـال :

ـ لا والله ٠٠ بل اكلت على قدر شهيتي ٠

هل اكل حقا على قدر شهيته ٠٠ ام ان طعامها لا يعجبه ؟ هو لا يعرف ٠ حري به ان يأكل باقبال عظيم ٠ ومـن المؤكد ان بيض الدجاج وبيض الغنم عندما يقليان ليسا بالوجبة الفقيرة ٠

كانت هناك البيجاما البيضاء ذات النجوم المرشوقة تبتسم وتسأل ٠ ليود هو ان يعرف ما باله هكذا عازف لا يريد الطعام ٠

لا · انه حقا ليس بحالة طيبة · لماذا ؟ ليس يدري تماما ما الذي يسوؤه ، ليته يدري · بل يمضي الى المغسلة غير بهيج النفس وينظف يديه مع انهما لم تتسخا ، ويؤوب في هذا اللباس الغريب الفضفاض ، ولا يدري تماما ما الحكاية ·

من سجائر عثمان يخرج واحدة ·
ـ ممكن ؟
يسأل بغصة فتجيب بهدوء متمعن ·
ـ تفضل ·
ويشعل سيجارته ويضطجع على الاريكة الطويلة يدخن ·

بليدا وذلك الغبش يكتنفه يدخن ، ولكنها طليقة تذهب بالصحون الى المطبخ · لماذا المطبخ ؛ لماذا الصحون ؟ ·· لماذا ؟ لماذا ·· لماذا ··؟ لماذا رأس الديك يجب ان يظل معلقا الى جسده وهو يشوى لماذا ؟

نعم انه ذبح وشوي · ما من احد يغضب ·· ولكن ·· فقط ·· نعم ·· ان ذلك المنقار جميل ولطيف في الحقيقة وهو كان يوما يصيح عند الفجر أو ليس عند الفجر بالضروره · بل هو ينقر ، ويعلو رقبة زوجته بفرح ·· ثم انه منقار لطيف ·· لا ·· ليس جميلا هذا التشفي · ما من احد ضد احد · بل هو ديك لطيف يجب ان يؤكل ولو انك ناقشته الامر وقلت له :

ـ من الضروري ان نذبحك ·· فكما ترى ان لحمك لذيذ عند العشاء ·
مؤكد ان هذا الديك الجميل ما كان ليغضب ·· ثم انه من المؤكد ان المرء لا بد سيذبح يوما · لا بأس · لا بأس · لا احد يغضب لامور كهذه · اما ان تذهب لتبول على قبر ميت لماذا ؟ لماذا ؟

ان السجين لمتعب حقا · هو يدخن لفيفة لعثمان ، وهو يريد فقط ان يستريح · ثم انها اكملت تنظيف المائدة · انها رشيقة ولطيفة · بيجاما بيضاء مرشوقة بالزهر · ان الزهور اصلا

لطيفة ومن المؤكد انه في هذا العالم لو وجدت لغة مشتركة بين الزهور والديكة والناس لفهم الجميع بعضهم بعضا ولقالت الزهور :

- انا سعيدة أن أقطف ، انني ازين صدر الدار .

وقالت الديكة :

- ليس محزنا اننا نذبح ، فان البشر يحبوننا ويدعو احدهم الاخر على وليمة من لحومنا .

وقال الناس :

- نحن لا نريد ان نؤذي احدا ، ولكن الزهور جميلة ، والديكة لذيذة .

ولربما ضحك الجميع في سعادة غامرة . كان السجين يدخن ويتأمل ، ثم انها عندما فرغت من تنظيف المائدة أتت رشيقة وجلست على الاريكة الى جانبه فانسحب يترك لها مجالا وقالت :

- شغل البيت اصعب مما يظن الرجال .

اللعنة اذن على ظنون الرجال ، فهو لا يقيم كثير اعتبار لظنونهم ، بل هو يعطي من حيز راحته مساحة لها وهو فرح بهذا .

وقالت له :

ممكن سيجارة ؟

فتح العلبة واخرج لها واحدة واشعلها ، انها جميلة حقا ، انها مثل الزهور عندما لا تبتسم بشماتة ، وقالت له :

- ما افطرت .. هذا فطور كذب .

قال :

- ابدا .. ابدا ، انا اشكركم .

وابتسمت بشماتة فحزن هو ، ثم ما الذي أدراه فلعل كل هواجسه اباطيل ، انه رجل مبلبل يصعب عليه ان يطمئن لافكاره .

وقالت له :

- انت مهموم .

ومدت يدها ببساطة فامسكت بيده ، وكان يعرف انه مهموم ، نعم هو حقا مهموم ، لا يدري لماذا هو مهموم الى هذا الحد .

وقـــال :
ـ لا ادري ! هناك خطأ حولـي •
وعادت تسألـه :
ـ لماذا انت مهموم ؟
وما زالت تمسك بيـده وكـان ثمـة دفء • دفء •• وهـذا ما يريده • لا الحرارة اللاسعة ولا البرد القارص ، ولا الفتور • بل الدفء • وكانت تنظر بعينين لا اثر للشماتة فيهما • بـل دفء ولا شيء اخر •
قـال :
ـ ابدا • انا غير مهموم •
وقالـت لـه :
ـ حرام •• انت مسكين •

وكان ذلك دفئا • وهو الان خدر وهو يكاد يرتاح • فرفع يدها قليلا محاولا تقبيلها وهو لا يقصد سوءا • بل هو يريد ان يكـون قريبا ودافئا • لقد شعر اذاك بقليل من المقاومة وهو يحاول رفع يدها • غير انه ظل يرفعها مؤملا انه سيدفأ • وعندما كادت ان تلامس شفتيه انتزعت يدها بسرعة خاطفة مذهلة ونأت عنـه الى طرف الاريكة •

فوجيء السجين بهذا • اطبقت عليه البلادة بشكل اكثـر احكاما • كان هناك غبش لا يعرف كنهه • كأن ساعة وقفت وهو لا يدري لماذا • هو لا يفهم • ليس الجو حارا ولا باردا ولا فاترا ، بل غبش بليد طويل • ولا شيء اخر •

ـ ولكن لماذا ••؟•• لمـاذا ؟
البلادة ولا شيء •• وهو يسأل وهي هناك في اقصى الاريكة •
ـ لمـاذا ؟
جر جسده ببطء نحـوها • ظلت تنتظـر • اخـيرا وصلها ، امسك بيدها • هناك الغبش وبلادة طويلة تمتد حتى اخر الدنيا •
انه ممسك بيدها من جديد ، غير انه بعيد وزحف بجسمه الصغير زحفا حتى شارف فمه فمها •

وقال لها :

- ارجوك .

ولم تكن تبتسم . غير انها ثبتت عينيها فيه . وهو لا يدري تماما ما الذي يحدث وسمع صوته يقول لها :

- ارجوك .

متعبا قرب فمه من فمها . وعيناها انخفضتا تراقبان الذي يحدث . غير ان قلبه يدق منعزلا عنه . دبيب كبير عجب له .

قريبا كان من فمها . ويعرف ان عينيها مخفضتان تريانه ، ولم يكن لديه وقت ليشعر بالخزي بل كرر :

- ارجوك .

ورمى برأسه محاولا ان يغمض عينيه .

- لا .

سمع صوتها الناشف يقول . ثم ادرك انها تنسحب بعيدا . وقد هوت محاولة اضطجاعه .. ولم يعد يشعر بشيء بل راقب نفسه منكفئا هناك وهي تنسحب الى اخر الاريكة .

لا شيء دار في رأس السجين . بل جسده انسحب تلقائيا في محاولة للم شعث كل هذه العملية التي شارفت به على الضحك. هذا هو اول ما دار في رأسه : أن يضحك . وهو لا يدري لماذا يجب ان يضحك . ثم انه لم يضحك . بل جر جسمه الصغير ، هناك حيث كان في البدء . صغر من جلسته وحاول ان يضجع كما كان قبل هذه البلبلة الخائبة . ولقد قدر انها تراه الان . تراقب ضجعته غير المريحة ، ومن الممكن أنها تهزأ بهذه الضجعة ومحاولته ان يعيد الانتظام لتنفسه . هذه اشياء تفلت من قبضته وهو لا يعطيها كبير اهمية . هو يعي ان تنفسه المسموع غير منتظم وحركة قلبه تضخ اكثر مما ينبغي وكل هذا سينتهي عما قليل . وهو واثق من ان هذه الاعضاء المتحركة في فوضاها ستعود تعمل كالمعتاد . ان اطلالتها من فوقه كما يقدر . وتلك النظرة ولا بد ! فانه لا يفهم .

بدلا من ان تتحرك خيوط دماغه بعملها المطلوب . التمعت هناك داخل الجمجمة صورة رأس الديك المطأطىء في المعكرونة ،

والفكرة السخيفة نفسها ان ثمة صيحة مجهضة في منقار الديك الذبيح المشوي ·

ـ يا له من رأس هذا الذي احمله ·

فكر السجين ·

ـ اريد ان افهـم ·

والحق ان السجين كـان يريد مساعـدة مـن نـوع خاص الكلمات ، هذا تماما ما يريده ، اما فوضى تنفسه وضخ قلبـه فهما يعودان تدريجيا للحالة الطبيعية ·

ـ نعم ما الذي يحـدث ؟

الان سيقصر دماغه على العمل · فليعد الى تسلسل الامور · الخروج في وقت غير مناسب · نعم من هنا تبدأ المشكلة · ثـم نفض هذا التعثر · فهو قد خرج في اخر النهار ولم يكن بوسعه ان يقرر الوقت المناسب · وما من سجين اخر قرر الوقت الخاص بخروجه · لا · ليست هذه المشكلة تماما · اذن فاستقبال عثمان له · هل كان عثمان مبتهجا به ؟ هل كان مهتما كما بدا له ؟ اذن لماذا لم يبتهج هو · الا تنقر الفرحة في القلب على القلب الاخر ؟

ثم الباب المفتوح والفستان الاسود الذي يتحرك بنمنمة ·· ماذا ظن ؟ احتفال خاص به ؛ لماذا فكر انه سيستقبل باحتفـال خاص ؟ ومـن هو ليستحقه ؟ نعم ·· ولكـن ديك كبـير مشـوي أليس له · وهرم من التفاح ، و (كأنك في بيتك) ·· ليس له بيت ·· نعم لا بيت لديه · فكيف سيشعر اذن ؟ ثم ·· نعم ·· ماذا ؟ ثم الحقيبة ؟ اين الحقيبة ؛

ـ اين حقيبتي من فضلك ؟

ـ تريد منها شيئا ؟

ما زالت تملك صوتها تماما ·· اما هو فنفقـد اصـدر السؤال نغمة اقرب الى ان تكون سعالا · تسأل وترمش بتلك الابتسامة ·

ـ اريد ان اطمئن عليها ·

ـ ما بها شيء تخاف عليه ·

ـ اذن فانت فتحتها ؟

ـ ما بها شيء مهم ·

يطلق تنهيدة ليست اقل بلادة من كل حركاته · ولكنه يشعر بالخزي · اذن فقد فتحت الحقيبة لتعرف ان ليس بها شيء مهم · انها حقيبته على كل حال ولا يريحه ابدا ان يفتحها احد ، ولا سيما هي · انها حقيبته · وان هذا لكثير · ما من سجين يحب ان تفتح حقيبته ·

ـ هل تسرين لو ان احدا فتح حقيبتك ؟

وهذا الصوت المتسائل الان به رنة غريبة · صوت عاتب ·· بل ابعد من العتب ·

ـ هل تريدين ؟ قولي ·· هل تريدين احدا يفتح حقيبتك ويطلع عليها ؟

ولم تجب ·

وسواء كان فيها شيء مهم ام لم يكن ·· هبيها حقيبة فارغة تماما · فهل تودين ان يفتح حقيبتك ؟

وهو لا يراها بوضوح · ولا بد ان غشاوة ما تغطي عينيه · بل هي حقيقة ان في عينيه دموعا تولد ·

ـ لماذا ؟ يا الهي ·· لماذا ؟ لماذا ؟

قبضتاه مشدودتان أهوتا على الاريكة فلم تصدرا غير صوت استجابة الاسفنج · فالقى برأسه وسمع نشيجه وهو بعد يحاول ان يلقي سؤاله ·· ما الذي بعد يلح عليه ليظل يسأل من خلال النشيج ؟

ـ لماذا ؟ لماذا ؟

واحس بثقل فوقه وبيدين تحيطان بصدره وصوتها :

ـ انت زعلت مني · انا متأسفة ·· ما كنت اقصد ··

ليود ان يذهب الثقل والا تحاول اليدان رفعه · فكما بسكين حاد قطع نشيجه ، حتى نشيجه غير مستكمل ·

فمهما يكن لقد احب ان يظل ينشج بضع دقائق اخرى على الاقل · اين ذهب النشيج ؟ انه يرفع كما كيس من الدقيق ، تجره وتسنده على عظام صدرها وترفع ذقنه بيسراها لتطل بعينين مخفضتين · وتقول بصوت خافت :

ـ لا تزعل مني ٠

وتنقر خده باصبعين فلا يصدر خده صوتا ٠ اما خشب السرير فقد كان يصدر صوتا حين تنقره ٠

ـ تبكي من أجل حقيبة ليس بها شيء مهم ؟

وتمر بيدها على ظاهر عنقـه ٠

ـ لا احـد يريد ان تفتح حقيبته في غيابه ٠

واستهجن هذا الصوت الطفولي على نفسه ٠ انه لا يريد أن ينتزع من على صدرها مع أن هواجسه ارادت لرأسه راحة افضل من هذه ٠ ليت ان كل شيء افضل ٠ غير انه يريد هذه ايضا ٠

ـ طيب ٠٠ وانت ؟ ألم تحاول تقبيل زوجة عثمان في غيابه٠٠ هل ترى ؟ كلنا نفعل الشيء نفسه ٠ لقـد شعر بضغطة يدها الخفيفة جدا فيما هي تسأل :

ـ اعمل لك فنجان قهـوة ؟

ضغط يـد تقتـرح عليـه ان يقطـع اتكاءته علـى صدرها ، فاستجاب بسرعة خاطفة وفكرة العار تلهبه مرة واحدة ٠

ـ فنجان قهوة شيء جميل ٠ جميل جدا ٠

انتفض واقفا وهو يطلق ضحكة مقطوعة وطوح بيـــده في

ـ لو كنت أدري ان فنجان قهوة يرضيك لهذه الدرجة لعملت لك عشـرة ٠

ـ يرضيني ؟٠٠ طبعا ٠ يا الهي ما من شيء يرضيني قـدر فنجان قهوة ٠ فنجان لا عشرة ٠ انـني اكتفي بالقليل عادة ٠

خفـت الى المطبخ وهي تفكر أن امرا غريبا قد طرأ علـى الرجل ٠ ما الذي جد عليه ؟ يتحرك بها شوق لأن تفهم ٠ سمعته يطبق باب الحمام ويرتجه ٠ وتخيلت مسيرته عبر الامتار القليلة ثم هو هناك ٠ ان بها لفضولا حول ضحكته الغريبة وهو يثير كل تلك الضوضاء حول فنجان من القهوة ٠ ما أغرب الرجال !

لم يكن محتاجا لاستعمال الحمام ٠ انه يريد ان يخلو لنفسه هناك ويفكر ٠ به حاجة ماسة لان يفكر ، وهو يشعر براحة ومقدرة على العمل الذهني اكثر مما في الصالون ٠ نعم انه جالس يفكر ٠

ـ الم تحاول تقبيل زوجة عثمان في غيابه ٠٠ هل ترى ؟

قلب السؤال مستحضرا لهجتها وعينيها ايضا ، واستعاد لمحا من الحوادث التي اطبقت عليه ٠ وعرف انه الان ابعد ما يكون عن السجين ٠ ان عمرا قد راح منذ غادره ٠ ضجعته في الحوض وقطعة الحرير المتروكة على مشجب ذهبي ورغبته في ماء ذي حرارة لا باللاسعة حرا ولا بردا ٠ وهي تتحرك في مجال عينيه ٠ واستعاد جملته (زنبقة سوداء مضمومة ليلا قرنفلة متفتحة في الصباح) وهز رأسه مبتسما ٠٠ واخيرا اخيرا جدا ٠

ـ انت الم تحاول تقبيل زوجة عثمان في غيابه ٠٠ هل ترى ؟

انه يرى زوجة عثمان ٠٠ لم يفكر بهذا بل فكر بالزنابق السوداء والقرنفل ٠ يا للخاطر السخيف !

وضحك لنفسه ضحكة صغيرة ٠ ليست هي غادة ، ولا زنابق وما شابه ، بل زوجة عثمان ٠ هذا هو الامر الضائع ٠ حلقة مفقودة فهو لم يفكر بشيء حول عثمان ٠ وببساطة فقد كان عثمان غائبا عن ذهنه تماما ٠ لم يرد ان يقبل زوجة عثمان بل ان يقبلها هي ٠ ما هي الكلمة ؟

(زوجة فاضلة) ٠

هذا ما يسمون المرأة في حالات كهذه ٠ يا له من تعيس ٠ والان عليه ان يعيد ترتيب الاحداث دون زنابق ٠ هو رجل خارج من السجن ٠ عثمان موظف في شركة تأمين ، عثمان متزوج من هذه المرأة بدليل انهما انجبا مقبلا ٠ يا لذلك المقبل الفظيع ٠٠ لماذا يدخر ابوه حليبها ؟ لعنة الله عليه ، رجل بتلك البزة الجميلة يستطيع ان يشوي ديكا مع رأسه ومع ذلك يقتات بحليب مقبل ؟ عثمان الذي انتظره على باب السجن ٠ عثمان النظيف الذي سيوظفه في شركة التأمين ٠ هذا العثمان نفسه ينجب طفلا كالسحلية ويشرب حليبه ! (يا ترى كيف يشربه ، مباشرة مثل جدي من ثدي الماعز ام بفنجان !) ٠

زوجة عثمان اذن ٠ ولكنه يريد ان يقبل ٠٠ آ ٠ هو سيتدرج من موظف جواب حتى يصل الى مركز عثمان ثم يأتي بزوجة

خاصة به وينجب طفلا • لا يريد سحالي • لا • لا مزيد من السحالي هو لا يحبها ابدا • اذن فالمشكلة التي استعصت عليه فقط هـي انها زوجة فاضلة •

الان تنتهي المشكلة • ليته يكتشف الكلمات المناسبة فـور تورطه في المشكلة اذن لوفـر علـى نفسه تلـك البـلادة والارتباك والفوضى •• ان المسألة في منتهى الوضوح •

سمعته يغسل فيما هي تحمـل صينية القهـوة خارجة الـى الصالون • غريب ان يفتح صنبور الماء على اخره •

ذهبت ووضعت الصينية على الطاولة وظلت واقفة تنتظـر حتى خرج ، انعطف يسارا الى البوفيه والتقط حبة تفاح حمـراء وقضمها • هذا ايضا سلوك غريب منه •

ـ هل تريد تفاحـة ؟

باغتتها :

ـ لا • شكرا لا أحب التفاح كثيرا •

اجابت بقلـق :

ـ معك حق فرغم انه احمر لامع لكن طعمه مز •

ابتلع قضمة واتبعها باخـرى •

ـ ولكنك تأكلـه •

ـ لا بأس بقضمة او اثنتين • ليس اكثر • طعمه لا يشجع •

ما الذي يحدث للرجل • انه يتحدث عن تفاحها بهذه الطريقة الوقحة • حقا انه وقح •• والغريب ان يحدث هذا التحول بغتة • تود ان تصفعه وتركله خارج البيت •

ـ سبق لك ان اكلت تفاحا ألذ ؟

تسأل بعصبيـة •

لقد القى بقية التفاحة ثانية الى الكومة وقال :

ـ لا •

ـ اذن فكيف تعرف ان طعمه مز ؟ لم تذق ا[illegible] منه •

سار السجين اليها بثبات وقال :

ـ بوسعي ان اقدر كيف طعم التفاح الجيد ، ومع ذلك اكلت قضمتين • انا لا ارفضه •

كرر وتقدم خطوة اخرى ثم وقف • تنظـر اليه كنمرة صغـيرة وتعبق برائحتها • الرائحة التي ترهقه • تملكته رعشات مباغتـة

وعلادبيب قلبه ٠ ليست مشكلة الدبيب فقط بل ان اسنانه تتصادم وتنفسه يعلو اشبه بصوت منفاخ ، حاول ان يضبط فوضى اعضائه بينما هي ماثلة امامه مرشوقة بالزهور تبتسم بشماتة ٠

ـ الان ٠

قال لنفسه ٠

وبلمحة جرى الامـر ٠

رفعها وحرر نصف جسمها بضربة عنيفة ٠ طوحت بساقيها في الهواء وهي تقول :

ـ لا ٠ لا ٠

الشقاء يناوشه وهي تضطرب بين يديه وتدفعه ٠ رماها على الاريكة واحكم قبضتيه في جسمها وهي تقـول :

ـ لا ٠

ليته لا يرتقص بهذا الشكل الشنيع ٠ ان موجة داخلية مـن الحر تجتاحه ٠ انحنى مغمض العينين ٠ ومسح وجهه بعريها وقبلها وهي تقول :

ـ يجوز ان يجيء عثمان ٠

لم يتكلم بل احكم قبضتيه فيها وقبلها دون ان يعرف تماما أين تسقط قبله ٠

ثم ارتاحت قبضتاه قليلا ٠ حركتها بـدأت تتضاءل الى ان هدأت تماما وخيم الصمت ٠ فمرر وجهه على امتداد عريها وهو بعد مغمضّ العينين ٠ ورفع رأسه فالفاها تنظر بهدوء وقالت بلهجة مختلفة ٠

ـ يجوز ان يجيء عثمـان ٠

فقال بتقطع :

ـ لا تخافـي ٠

وود لو انه لا يضطر للتكلم ثانية ، وقفز متحررا من نصـف ملابس عثمان واحتوى جسدها الهادىء ودفن رأسه في رقبتها ٠

ابدا لم يمسك قط بشيء مثلما ينشب اصابعه في كتفيها ، ولم يحدث ان اضطربت روحه كما الان ٠ انها توشك ان تطفر من حواف جسده ٠ يريد ان ينادي بأعلى صوته ٠ لربما ينادي باسمها وعظام جذعه تطقطق بالم حاد فود لو ان جذعه يتكسر ويذوب ٠

ثم سكن · كانت مسامه قد تفصدت عرقا وقبل باطن رقبتها بهدوء ومسح وجهه هناك ثم سمع صوت تنفسها منتظما فاشتاق ان يراها ·

رفع نظرة مجهدة واذا بها تطل فوقه · عيناها مفتوحتان تراقبانه · لا ابتسامة ولا غضب ، بل محض عينين مراقبتين · واجتاحه شعور بالبؤس والعار · اذن ففيما هو يرتقص بتلك الفوضى المزريه من انفاسه وفيما اصابعه تتشبث ظلت ترقبه بعينين مفتوحتين · وكل ما فعله لا يعدو ان يكون وصلة تهريجية · وصلة فاشلة في الحقيقة · يا لجسمه الصغير المهان ، هو البهلوان الصغير الذي لا يريده احد ·

وجذعه وتوقه للنداء وعرقه المتفصد كل ذلك لا يعدو ان يكون كذبة صغيرة وسخيفة · ولكن ·· هذا الجسد له رائحة ، له نعومة ، لا يمكن ان يكون كذبة · ان بوسعها ان تكون ليمونة بل واجمل فلماذا ؟ لماذا ؟ ··

- انت تعبان ؟
- ·· نعم كثيرا ·· لم انم ليلة البارحة ·
- هل الفراش غير مريح ·
- لا ليس الفراش ·· الفراش مريح ·· الكوابيس فظيعة ومرهقة ·
- كوابيس ؟
- رجال ونساء من البلاستيك ·

تضحك ·

- حقيقة رجال خبثاء كلهم من البلاستيك ويظهرون كانهم ناس من دم لحم ·
- لماذا ؟
- لا ادري عندما اراهم يتظاهرون كالناس وعندما لا اراهم يعودون بلاستيك ·

تضحك ·

- هل يجب ان تكون حزينا ؟
- نعم · اعتقد يجب ان اكون حزينا ·

ـ وما الذي يحزنك ؟
ـ رائحتك ٠
تضحـك ٠
ـ تحب العطور الغالية ؟
كسروا اسناني وارادوا ان يخنقوني ٠
ـ من اراد خنقـك ؟
ـ الكوابيس ٠
ـ لا تحـزن ٠
ـ لن احزن اذا كنت حقا تريدين الا احزن ٠
ـ اريـــد ٠
ـ انت جميلة ٠٠ لا تكوني بلاستيك ٠٠ ما الفائدة ؟
ـ لا فائدة منها ٠٠ لا شيء ابدا ٠
ـ اذن !!
ـ احيانا ٠٠ احيانا يكون الامر لذيذ جدا ٠٠ اعني البلاستيك ٠
ـ والاخرون ؟ ٠٠ اعني لا يعرفون ٠
ـ لا يعرفون ٠٠٠ الا تحب عثمان ؟
ـ لا اظن اني احبه ٠٠ لا استطيع ٠٠ انا اسفة ٠
ـ لا تأسـف ٠
ـ اريد ان احبه صدقيني ٠٠ ولكن لا استطيع ٠
ـ لا تأسف ٠٠ لا احب ان يظل عليك شيء من ملابسه ٠
ـ سأخلعها ٠٠ سأخلعها حالا ٠
ـ مسكين ٠ جسمك صغير جدا وانت عار ٠
ـ يجب ان تحبيه ٠
ـ احبه ٠٠ انا احبـــه ٠

اكمل اطلاق ازرارها ٠ حملها وديعة بين يديه ومر بيدية علـى نعومتها ٠ بتلات سوداء بليلة ٠ زهرة في كأسها ٠ اضمومة سوداء هناك ٠ امـرأة عارية ٠

قالـت :

ـ انا سعيـدة ٠

ادار كفه على عريها وألفى ان جذعها ناعم ولكن متين ٠

قال لها :

ـ انت طيبـة كالثمرة الجيدة ٠

وقبلها في كل جسدها وهي ادارت كفها على عريه وساعدته في رحلته ·

ـ انت حلوة اكثر عندما تغمضين عينيك ·· كم انت كريمة!
قالـت :
ـ كما لو كنت في ارجوحة ·

واستقبلته باحتفال واسع دافىء ، مدارجها تموج وموسيقى خفية تصدح ·

اطبق كل منهما عينية وتركا لارجحة المياه الدافئة ان تتم هذا الطقس ، ارجوحة طليقة تشرئب الى الاعالي وكانت زرقة البحـر وحشية ، وكان للبحر غلاف ابيض كبير فأقبل يركض واحتواهما ونقرهما بفرح عظيم · فكأن صياحه يوقظ فجر الارض الاول · كان الرجل متحدا بالمرأة ، والمرأة متحدة بالرجل مثل فلقتي حبة قمح ·

الشعر

أحزان صحراوية

مـرحبـا

رغــم أن الحبّ مــات
رغــم أن الذكــريات
لم تعد شيئا ثمينا ،
ما الذي نخسر ان نحن التقينا
ابـتسمنا وانحنينــا
وهمسنا : مرحبا
ومضينــا •
ليس يدري ما الذي نضمره
فــي خافقينا
مرحبا كاذبة نسكت فيها الناس
حتــى لا يقــال
« آه يا عيني على الاحباب
عشاق الخيال » •
وحدنا نعلم أنــا
افتــرقنــا
وانتهى ما كان من حــب قديــم
يوم قلناها معــا :
« حبنا كان خرافــة » •
نحن كفناه بالصمــت
ضننا أن نريق الادمعا
وافترقنـــا
غـــير أن الاخرين
أعين مفتوحة دوما علينّا
فــدعينــا
نمنع الالسن أن تمضغنا ،
واذا نحن التقينا
ابتسمنــا
وانحنيــا
وهمسنــا :
مرحبــا

١٩٥٩

شتاء لا يرحل

على أفقنا تتمطى الغيـوم
تجوب ببطء تخوم السماء
وتوشك تهمس أن الشتاء
تناهــى
ووودع ايامنــا
وخلّف في الارض احلامنا
وعــودا بخصــب
ثمــارا لحــب
وعاه ضمــير الثــرى والمطــر •
تناهــى الشتاء
تناهــى الضجــر
قريبا يطلّ علينا القمــر
ينقل فوق التــلال خطاه
ويسكب في عمقنا من ضياه
تناهى الشتاء
تناهى الضجــر •
واعلم اني احب الربيــع
واصبو اليه صبوّ اشتهاء
ولكن قلبي يعاني شتاء
يلوح بلا موسم منتظــر
أحس الدموع به تنهمــر
واسمع فيه خواء الرياح
شتــاء
شتــاء ،
أرى للغيوم
وانصت في خاطري للخــواء
واعرف اني ما زلت ذاك القديم
وعمــري شتــاء •
١٩٥٩

لحظات من خشب

انا والمذياع والليلة عيد
والمغني يمضغ الفرحة
في مط بليد
ولفافاتي استقرت
جثثا بين الرماد .
كنت اشتاق لو ان التبغ في صدري
ذو طعم ولو كان مرير .
كنت اشتاق لو انـي
لي بهذا العيد افراح صغير ،
لو انـي
لي به فجعان مأتم
كنت اعلم
أن عيدا بعد عيد بعد عيد
سوف تأتي
ثم تمضي
وانا احرق تبغا
ونفايا ذكريات
وانا انظر من شاطئي
الصخري في نهر الحياة .
كنت أعلم
انني ضيعت مأساتي وانـي
مرة في العمر لم اقبض مسرّة
انني ما عدت أعصابا
وعظما ـ صرت فكرة
محض فكرة .

١٩٥٩

المستحيل

لا وعمق السرّ في عينيك ما كان غراما
وانكفاءاتي ونزفي واناشيدي اليتامى
لم تكن صرخة قيس خلف ليلى
ففؤادي لم يعد للحب أهلا ،
انما يسحق قلبي من قديم ، من قديم
سعيه الدائب للوهم وشوق للسديم
قبل أن يسمع عن قيس وليلى
كان بعد هذا القلب طفلا
حينما انسلت اليه خلسة احدى الليالي
رغبة غامضة القته في مدّ المحال
ان يطول القمرا
وبكى مذ شعرا
أن سيبقى أبدا في أسر صدري
بعدها لوّن بالمأساة عمري ٠
فاذا هزتك مني يا صديقة
عبر صمت الليل صرخات غريقة
فاسمعيها وابك من أجلي ولكن لا تجيبي
فزهور الحب لن تنمو في روحي الجديب ٠
انت لو جئت سينساك فؤادي
تحت وقع السوط ينشقّ ينادي
يتمنى حبّ أخرى لا تطال
لن تخليه غوايات المحال
وكفاني انني سمّرت - لم اختر - لالام الصليب
فاسمعيني وابك من اجلي ولكن لا تجيبي ٠

١٩٦٠

مـن مغتـرب

(١)

صديقتـي
تحية مـن متعب حزين
تحية ترعش بالحنين
للمسـة
لكلمتـي عـزاء ٠
صديقتـي
في المنتأى أغالب العياء
انسج في الصباح من ذكراك أمنية ،
أحلم بالمعـاد
اذ يضمنا لقاء
أروغ من توحدي سحابة النهار
لكنما يدركنـي المساء
اذ تخرج الاحزان في مواكب
مواكب ،
نحيلـة
شاحبـة
هشيمة المناكـب
تحاصر الـدروب
وتعـرف الغريب
لتستقي من عينيه بقية الرّواء ٠
أخاف يا صديقتي من أوبة المساء
غيومه تعبرنـي
مثقلة نشيج
مواكب الاحزان فيه تمـلأ الدروب
تحاصر الغريـب
وا حسرة الغريـب ٠

(٢)

صديقتـي

وجدّفوا علي
ولوثت شفاههم آخـر ما لدي ،
بـراءتـي
وا خيبـة المسـار
آللذباب ـ للذباب منتهى المطاف
يقتاب ذوب مهجتـي
وتسألين لم انا حزيـن ؟
معذرة ـ فأنت تسألين
قديسة لم تعرف الذباب
في وحشة اغتـراب .

(٣)

صديقتـي
كل العيون ها هنا حزينة
فالحزن قد غزا المدينـة
جنوده الاقزام قد تسلقوا البيـوت
وحطّ في آفاقنا سكـوت
تشي الوجوه ها هنا
بأننا نمـوت
لا تشفقي ـ صديقتـي
يقتاتنا السـأم
برقة ودونما ألم .
١٩٦٠

المهـجـورون

يا بريق الحب عــدّ ضوء دنانا
يا بريقا هو منا
نحن منه ـ تتشهاه روءانا ٠
انت حين انحسرت امواجك البيضاء
عن شاطىء احلام صبانا
وتلفتنـــا :
يباب الشطّ والصمت مرير
آه لا رجـّة مجداف ولا ايماض بسمـــه ،
آه والعمــر قصير
نحن ادركنا المصـــير ،
فانتحبنا
وتعذبنا طويلا ٠
نظرات جمدت فوقجدار الليل
اعصاب مزيقــه
أكبد تحــرق في نار الحقيقـه
نحن ، نحن الأشقياء
مــرّ أحباب بنا القوا بنظـرة
واشاحوا الوجه عنا
فدعوناهم بذعر والتياع :
ابرياء نحن لكنا ضحايا الوحــدة
الخرساء والخوف المردّي والضياع ٠
يا أحبـّانا تعالــوا
ليضم الواحد الاخر منا
بدّدوا الوحشـــة عنا ٠
ردت الدعوات في اعماقنا السفلى
وتاهــت في مداها

آه ما أقســى صداها
ونكصنا نتمنــى
ليتنا عدنا صغـارا
نبتني في الشاطىء الرملي بيــت
ليــت
لكــن
ومتى تنفع ليــت •
١٩٦٠

اشباح الرجال

كان احساسا عميقا لا يسمى
مبهما يبعث فينا
غبطة نشوى وأمنا
دافئا يحبو على الاعصاب
يغفو مطمئنا ...
تذكرين ؟
زائر من غير ميعاد أتانا
لم يكن يحمل في الكفين
تبراً أو جمانا
يحمل النمنمة السكرى
يدع الاكباد الظمأى حنانا ..
تذكرين ؟
مسح الاحزان عنا
ثم ضاع اليوم منا
ضاع منا .
حين غشى أفقنا غيم ارتياب
وتلعثمت بذعر واضطراب
اعتمت عيناك من كل بريق
وتبدت صور الماضي العتيق
تتلوى خلف اهدابك
اشباح الرجال
وانا اصرخ ـ تكذيبا لعيني ـ (**محال**)
لحظة مضنية الصمت
هوى نجمي ـ تلاشى لزوال
والمروج الخضر بالامس تعرّت
واستحالت ليباب
فاذا صدرك أخوى من خراب
واذا انت
كقبر متداع تحت اطباق التراب .

١٩٦٠

مـــلاح

ربما غيري ملاحون طافوا كلّ بحر
قهروا الامواج والانواء ليلا اثر ليل
وأذلــوا كــل هــول
ثم عادوا ملء ايديهم لآلــي
ربمــا ...
لكنني وحدي ولا ملاح غيري .
من رمى في بحر عينيك لم يخش ضياعه
وليكن اني بددت بتطوافي عمــري
بينما الشطآن تدعوني وتغري
ان اعــود
كنــت ادري
رحلة أمعن فيها خلف سرّ
هو في اعماق عينيك ولن يصطاد هذا السرّ غيري .

ثلاث اغنيات للضياع

(١) ظـلام ...

عيناك ظـلام
عيناي ظـلام
عبث أن نصنع ضحكتنا
ونحاول نرسم بسمتنا
فــوق الشفتين
ما جدوى ـ ما جدوى البسمــه ؟
والقلب تغلفه الظلمــة
مهما لفقنا وحذقنا
لا بد ستفجعنا الايـام
اذ تجلو زيف حكايانا
صدئين سيظهر قلبانا
عيناك ظـلام .

(٢) لحظة وداع ...

تدريــن
فلسنا كالعشاق
يبكون اذا ما آن فراق
تدريــن
وأدري قصتنــا
جمعتنا الصدفة ذات مساء
الوحشة تفرش صدرينا
والخيبة تكسو وجهينا
ثرثرنا الليـل
تواعدنــا
وكذا عدنا فتــلاقينا
والآن سئمت حكاياتــي
كل منا سئم الآخر

فلنبحث عن لهو آخـــر
لن نسفح ادمعنا لفراق
ما كنا يوما كالعشاق ٠

(٣) وحيــد ٠٠٠

الليل اغان تنتحب
اشواق تهــدأ ، تضطرب
تتضور روحي فأنادي :
لو انت تمهلت الليلــة
لو صدرك يحضنني الليلة
كنا ثرثرنا وكذبنا
وزعمنا خيط العتم شعاع
لو انــك ٠٠٠
لكن وا أسفاه
كل منا قال : وداع ٠

الشواطــيء الاخيرة

ولعينيك اللحــون المتعبة
منهما جمعت معناي وفــي
تيههما كــان ضياعي ٠
لست اشكو فلقد شارفت شطآن السآمة
بردت لهفة شوقي والتياعي
ماتت الاضواء في عينـيّ
لا ومض شعاع
لا غــوى اخضر
لا لون سوى بعض القتامه
تتلاشى وانا اعبر لشطآن السآمة ٠
ولعينيكِ اللحون المتعبة
ولعينيكِ ثمالات عطائي
سادر في حلم عينيك بقائي
واذا ذللتا يوما ابائــي
فعزائـــي
ان في عينيك أمطارا والوان شتاء ،
وانا قلبي يبابْ
وانا والشمس تلغيني
فأغــدو كالسراب ،
اتفيأ بــين عينيــك
واشتاق الضباب
ويؤدي اللحن في عظمي :
(هنا يحلو الــزوال
ألق أبيض صاف لا يطال
يحضن الاسود
والاسود في الاعماق ارخى ثقله غير مبال ،
وبعيداً ترتمـــي الضوضاء
في كهف من العالم لا تعنى به عيناكِ
لا أعنى به ٠٠ جــدّ بعيد) ٠
نظرة في افقِ عينيك وتنهدُ الحدود

بارتخــاءة ،
عندما يسبل جفناك وتمتص اهداب الشرود
ينثني المـدّ بصدري
وفياف تفتح الابعــاد
تقصيها ·· وتقصي من جديد
وانتباهــه ،
يومض البــرق
يضجّ المــوج
يرتجّ الوجــود ·
مرفأ عيناك انسى الموحش التائه
يومــا تعبــه
لهما منه عصارات اللحون المتعبة ·
طالما غنى لعينيــك
ولم يزعم عطــاء
وهو يدري انــه مــن
فيض عينيك قد امتاح الغناء
موهن الساعد يمضــي
عبر بحــر من سخاء ·
سامحيــه
واغفري إنّ عذاب الحــرف
يلقي في الشرايين العياء ·
واذكري ان اللحون المتعبه
اخــر القطف قبيل الانتهاء ·
اوشك الملاح ان يلقي لشطآن السآمه
أي شطآن ·
هنا العمــر لا شــيء
سوى صمت انتظــار
وبلا ماض ولا مستقبــل
محض انتظــار
وبــلا توق الى ما يشتهي
محض انتظــار ·
كــل حــب

كل ذكرى
ترتمي حتى القرار
وهدوء في القرار ٠
يعبر الملاح مخذولا لشطآن السآمه
فدعي يا انت ، يا انت الملامة
لست ابكي لعذاب الصلب : مرحى لصليبي ،
انا ابكي محنة الوحشة في صدر الغريب
حينما لحت مع الجلاد
تلغيني اذن عيناك ؟
اغدو كالسراب ٠
في ضمير الكون شبّ البوح وانهدّ نشيج
سدّت الدرب فلا حلم دخول أو خروج
آه ، آه ، الجدب يقتات المروج ٠
ورمى الملاّح لليمّ شراعه
كانت الخيبة ترتاد جبينه
ونأى ٠
رحلة نحو ضفاف دون حب او ضغينه
وبلا ماض ولا مستقبل : محض انتظار
لا تلومي
لا تلومي
اغلقت كل دروبي
فلتكن درب الفرار ٠

١٩٦٠

قطعة قلب للبراءة

تخنقني اصابع النـدم
تجتثني ، تحيلني شريحة من الالم ،
لانـنـي بـريء
وفوق ما تحمله ارادتـي
اصحـو :
أكون قد صلبت اخوتـي
أحبتـي
أضرع : يا ايزيس يا ايزيس ..
يا من فضضت أرضنا
فتحت عن عطائها الحبيس ،
لوجدت لي بحفنتي دمـوع
غسلت لي خطيئتـي
حملت عن ضميري المعـذب
آلامه وحمأة التدنيس
لوجدت يا ايزيس .
لانني أفجـع بالصـدى
يعود لي مردّدا
دعائـي الجريح
أحسني توترا يهفو الى المسيح .
اخالني شربت جرتي حنان
ينصبّ من عينيه في كياني
وانتشي لانه افتداني ،
وأنثنـي
أحسّ في فمي مرارة الدموع
وظلمة كثيفة في ناظري تشيع
لم يفدني المسيـح
هيهات يستطيـع .
يا اخوتـي
انتم رواء مقلتـي
صلبتكـم

جرحتكـم
جرحتُ قلبي قبلكـم
وحينما تردّني ايزيس دعواتي لكم
بسمائكم تهمي على روحي مطر
تروي بها عقم الصخـر
لعل يوما تخصـب
وعـلّ يوما تهـب ٠

١٩٦١

رعب

فجّر صخبا
صخبا
صخبا .
حاذرْ
في زاوية يقعي الصمت
الصمتُ نذيرٌ بالموت
فاسرعْ
فاسرعْ
اطلقْ صوت .
شدقاه انفتحا عن هوّه
بلعتْ اجيالا وعصور
عيناه لهاثٌ مسعور
وأد الاحلام المرجوّه
في عيني عذراء صبيه
كانت يوما
وتلاشت ذكرى مطويه .
صخبا
صخبا
الحان زنوج ناريه
قهقهةٌ عاهرةُ الاصداء
مرحى لعجوز شمطاء ،
للوحل اللزج على فمها
لرفاق الليلة
للبلهاء
ولتسحقْ عذراءُ صبية .
ـ كأس آخر
ـ لحن آخر
ـ يا ليت الليل بدون نهار
ـ نخبُ الورعين مع الكفار
ـ فرغ الكأس .

وتداعت جدرانٌ في الـرأس
خفـت اللحـن
ومشى في الارصفة الموت •
قدماه على شفتي طفلة
تطآن دعاء للقبلـه
لم يبلغ اذن مناداه
ينشقُّ امامي شدقاه
والآن يمزق نسج الصمت
فأضيعُ وما حولي من صوت
لن تسمع حتى « اواه » •

لـــو ...

عذابات عمري
ويوحي اليك بما لا يباح
وغضبـــة كبـــرى
تغالب في دعاء انطراح ·
يلــح عليّ
ويصرخ أنـــي
سأبقـــى وحيـــدا
أصالب ظنـــي
يجفف روحي لهاث التمني ·
لو انك يوما شففت شففت
وحرك فيك جمودَ الصنم ،
لو انك احسست طعم التناهـــي
فأحسست معنـــى صفاءِ النغم ·
لو انـــك ـ لو
لبلغت الالوهـــة
لو فضّ قلبك سرَّ الالم ·
وما زلت أسعـــى
وأشقـــى
أحاول قبض المحال
وأعنـــــو
فينحل فيّ الكـــلال ،
يلف عروقي كالاخطبوط وانتِ هناك
تحبين ان يشتهيكِ الرجال
وعيناكِ وحشيتان ترودان
أبعد مما يلبي الرجـــال
كأنهما تحملان رؤاكِ
جياع العروق لادغال غَاب
رؤاك !
ترى ولدت في الكهوف ؟
ترى رضعت منلبان الذئاب ؟

فافرخ فيك نداء الامومة
هذا الحنين لضرب ناب
عذابات عمـري
تحدٍ عناء وقبضٍ سراب
ينابيعٍ حبٍّ تجفٌّ سـدى
وظمأى الى الدم تهوي الذئاب ٠

١٩٦١

احـزان صحراوية

مـن زمـان
من تجاويف كهوف الازلية
كان ينساب على مدّ الصحاري العربيه
ليتّنا كالحلمِ سحريا شجيا
كليالي شهرزاد
يتخطـى قمم الكثبان
يجتاز الوهـاد ٠
مـن زمـان
شربتْ حسرة ذاك الصوت
حبات رمـال
مزجتـه في حناياها
اعادته اليا
ليتّنا كالحلم سحريا شجيّا
فكأني قد تنفست شجونه
وكأن الصوت في طياتِ صدري
رجع اليوم حنينـه
فـأراه
بدويا خطّتِ الصحراء لا جدوى خطاه
موحشا يرقبُ آثار الطلول ٠
مـن زمـان
غـير انـي
كلما استيقظ في قلبي اشتياق
لمزيد من تداني والتصاق
كلما ضج نداءُ البـوح
في ارجاءِ ذاتـي
كلما بوغتُّ انـي
اتناهى بانسراب اللحظات ٠
كلما احسست انـي
بعض دفءِ الاخـرين
خلتني عـدتُ أراه

بدويا خطّت الصحراء لا جدوى خطاه
سار في عينيه وهج الشمس
والرمل وعــود برمـال
ومــدى الصحراء صمت
وعذابات ارتحــال ،
فتغنــى
وسرى الصوت على مدّ الصحاري العربيه
مودعا في الرمل غصّات اغانيه الشجيه .

غجـريـة

وحشة الليل على العينين تجثم
ونداء الغاب في البؤبؤ مبهم ٠
غجـريــة
كعمود النار قد يتلـوى
وشفاه مترعات عنجهيــه ٠
يا جحيم الطبل والمزمار عذ بــي
لعشيات العصــور الوثنيــه
عبر عيني غجــريــه
رحلتي خلف مسافات قصيه
خلف ما يرتاد وهمٌ أو خيال ٠
غجــريــه
قدم تضربُ صدر الارضِ ، تعلو
وتدقّ الارض دقــا
زوبعات مــن غبار
ودوار
وعروق مجهدات ٠
تتلظــى وقــد نــارْ ٠
امطرينــي
امطرينــي
من سديم الغيب زخات سخيه
ألصقيني بالتــراب
أنا من خلّف المدنيه
ظامئا لم يسقني الا السراب ٠
حين تكتظ النوادي بمساخــر
بدمــى آليــة ترقص تانجو
يزحف الموت مع التانجو صموت
تتلاشــى الحيويه
بخفــوتٍ ٠
غجــريــة
جثث تهوي ، تمــوت

مثلما ينتفض الطير الذبيـح
مثلما تعصفُ بالاوراق ريـح
يتهاوون اذا عربد جـاز ٠
ايها البـوق اللعين
ايها الناعق في ليل جموع الميتين
ليتني اصبحت أعمـى
وأصمـا
قبل ان اشهد ليل الميتين ٠
غجـريـه
هارب يحملني مـدّ الـدروب
قدري الاسود مجهولٌ رهيب
وتناهى بي مطافي
عند عينين هما مقبرتا
كـلّ الخوافـي ٠
غجـريـه
انا ان أنحر لعينيك ضحية
ففـؤادي ٠٠
امطرينـي
امطرينـي
من سديم الغيب زخات سخيه
امطريني انت ما زلتِ غنيـه
عبقُ الاعشاب في نهديك
والارض النديـه
لم يلطخ شفتيك الطـين
بنيا واحمـر
لم تخوني منحة الشمس
فهذا الوجه اسمـر
ما كسته حلل الوجه المـزور ٠
غجـريـه
ما الذي تحمل عينيك من الاسرار
الغاز الحكايا السرمديـه
انت لا تدرين شيئًا

ثورة الساقين تدري
عنفوان النهد يدري
وانا أنحر في عينيك ، أشقى
غير اني لست ادري .
١٩٦٠

عودة الى الرفاق المتعبين

تسأل الغابية السمراء عما خلف صمتي
وتعريني بنظـره
فأحس الحرقة الحرّى بحلقـي
غاص نطقي ٠
أجلد الاحرف موجوعا أمزقْ
اقبض الظلمة في كفي وأغرق ٠
غجـريـه
يا لهاث الرمل ، يا انساني الضائع
في اصداء موال حزين
الحكايات التـي تروين
في خلجات أعصابي عادت تتململْ
عن كليب وجراحاتِ المهلهل
فأعيدي كلّ ما كان
ولا تقسي على جساس من اجل خيانه
كلنا كان يخـون ٠
آه كـلا
لا تقولـي
ليس بي مسّ جنـون
واغفـري لـي
اترى تغفر ذنبا غجريه ؟
غجـريـة
كذب : من قال في عينيك اسرارٌ خفيه
مثلما تسعى على الارض الديادينُ الغبيه
انـت تسعين
خواء ملء عينيك بلاهـة
وغباء مطبقٌ يقعي وسقم وتفاهه
عنفوان النهد لا يغـري
وجوع الساق لا يغـري
وما في الكهف من مكنونِ سرّ
رحلتي كانت ضياعا

فـوداعـــا ·
واذا ما كـــان أمسي
تـافها عافته نفسي
واذا كان مصيري
شاطىء الصمــت الكبـــير
حيث لا بسمة لا لوعة حسرة ·
يغرق النسيان ما ضـــج
بنبض العرقِ من شك وحيره
فانا اطفأت في صدري الحاح السؤال
حين ادركت المآل ·
وعزائـــي
رفقة" لم يصلبوا جساس من أجل خيانه
يسألون الحب يعطون محبـــه
يغفـــــرون
كلنا كان يخـــون
يا غبيـــة
لست الا غجريه ·

١٩٦٠

النســر الغائــب

الى اخي شوكت

يا نسري ، آه يا نسري
يا نسرا غاصت في الصحراء مخالبه
يجرحها الرملُ ، تغالبــه
عريت عروقك يا نسري
وكسرت جناحك يا نسري
ومفاصلُ عظمك ما وهنت
أواه يا رفض الكبــر
لــو أغنيــه
تختصرُ الافاق وتمضــي
تردُ الصحراء المنسيــه
وتهلّ عليك باشواقــي
تنصبّ بعينيك تحيه ،
تنبيك بأنا ما زلنا
نتشوف نسرا خلاّنا
في ذات مســاء
لــم ينكــرنا
كنا عطشى ـ طار يجيء بجرعة ماء
طار وتاه على الصحــراء ٠
يا نسري آه يا نسري
في أسرك مثلي في اسري ٠
لــو أغنيــه
عبر الابعاد المرميــة
تأتيك تقول بعادك طــال
لكــن هيهات
يبست في حلقي الكلمات ٠
لو نظرة عين منك ترانــي
سترى ياكم صرت اعاني

قلبـــي
عينـــي
كل عروقي تصرخ (مـاء)
والمـاء مع النسر الغائب
والنسر يغالب في الصحـراء .
١٩٦١

العقد المفروط

« وقالت : في اطلال القصر المهجور ، لمحت عقدا مفروطا رفعت منه خرزة زرقاء واحسست انه كان لي في يوم ما » .

(١) اللقاء

الغريبان استفاقا
ولدا ذاك المساء
فجأة
والوجه للوجه :
لقاء .
المسا يمطر حبا وأسى
والاسى حلو ومرّ
ورؤى مكدودة الخطو تمر .
« خرزة زرقاء اهدتك الخلود
صحوة في عيد ميلاد جديد
أيّ عقد فرطت حباته
بين يديك
في طلول القمر أغرى ناظريك
فانحنيت
بنت عشرين ، استقمت
وعصور قبل روما
هرمت في مقلتيك » .

(٢) نعيب البوم

المساء
رعشة العرق بتوق للبكاء
غصة في القلب ،
اثقال رصاص في الضمير

وتلوّ يائس خوف المصير
فاسمعيها يا صديقه .
« خرزة زرقاء لا تعطي حقيقهْ .
وكلانا رحلة مبهمة الابعـاد
لا تودي لمرفـأ
فاذا طيف من التاريخ اومأ
لامس القلب وأغرى بخلـود
أو تباشير لميلاد جديد
صدقيني ـ انت عيني ـ
انه ومض الغوايات الكذوب » .

(٣) طريق العودة

المسا اغنية اسيانة ترتاد قلبي
والمصابيح ترشّ الضوء محزونا بدربي
اي « باندورا » من المجهولِ جاءت
عبـرتْ لا تفتديني
تركتنـــي
حائرا ما بين ظني ويقيني
فجأة والوجهْ للوجهِ ، لقاء
فجأة لا شيء حولي
غــير ظلــي
يتهادى موحش الوجهِ بدربي
والمسا أغنية اسيانة ترتاد قلبي .
١٩٦١

نيسان وحكمة الجدار

ملقــى هنا في غرفتــي
ووجهك البريء يا صديقتي
يلــوح عبر وحدتي
اشراقــه
حنــوّه
ينساب في اوردتــي
يعيدني الى ضفاف البارحه ،
البارحــه
(نيسان وموسيقى الاعماق
وحنايا مبهمــة الاشواق
وجنوح اثنين الى المطلق
قد ضاقت عنه الامواق
ألقتـــه
لتيه الاسطــوره) ٠
ابحرنا ننشد نجمينا
طوفنا دنيا من ألق
لا تعرف بعدا او حدّا
ابحار أبــدا ابحار
ويخــدّر فينا الابصار
واخترنا عفوا نجمين
وضحكنا ضحكة طفلين
وصمت لدن حانت نظره
كـانــا
نجمين بعيديــن ٠
صديقتــي
ملقى هنا في غرفتي
لربما يحفر الزمان جبهتي
وربما احال عمري المضيعا
صحراء بلقعا ٠
لكننــي

في عمق سر العظم في ضمير كلّ جارحه
قطّرت ذكرى البارحة ٠
أظلّ يا صديقتي
يا نبعة سخية الحنان
اذكرها ما ءادني نيسان ٠
لكنما
معذرة صديقتي
وددت لو أزوّق الحروف
اهديكها
اغنية مسحورة الطيوف ٠
حين الخيالُ موثق
على صليب غصتي ٠
فنحن يا صديقتي
نحن الذين اذ نسير نطرق الجباه
خطّ لنا ، من قبل ان نجيء للحياة
لسنا بفرسانِ الخيال ، ان نشر نطاع ٠
حياتنا ، لو تعلمين ، مُرّةُ الصراع
من اجل عار لقمة
وسترة عن العيون
شعارنا ما زال من قرون
(مع الجدار سرْ
تكف قيلة عليك) ٠
ونحن اذ نجوع نصمت
لكي تكفّ شرها العيون
والبارحه
غفلتُ يا صديقتي ٠
عن حكمة الجدار ،
فمهجتي
أضحت لحين والهه
بحب نجم مبعد

يقال ان الالهــه
خصّته لي رفيق
وكان أن أطعت ماتلفق الظنون ·
وكان يا صديقتــي
حلما قصيرا لاح وانطفأ
وعــدت للتــراب
ممزقا ، مضيعا
مشتت اللبــاب ·
صديقتــي
وانبأت خرافة النجــوم
عن الف سور بيننا
لأن لــي شعار
خلقــت
كي تصــدق فيّ
حكمة الجــدار ·

كلمات ثقيلة

(١)

دمعتان
طفتا فوق دخان
وعلى رأس لساني
صبتا طعم الالق
عندها أحسست قلبي
كنسيج من حرير يحترق ٠

(٢)

باسم ماذا ؟
ابر الحزن على عينيك تنثال رذاذا
عمّدوا في كأس سم
عظمك الصافي وعظمي
باسم ماذا ؟
نحن جسر للكوابيس الثقيله
ترعدُ الاجيالُ فينا
ونعاني الموت غيله ٠

(٣)

اعذريني
انا لم ادفن جبيني
بعمامه
لا ولم ينحرْ يقيني
تحت كرسي اعتراف ،
غير اني
لي طقوسي وصلاتي
عندما تنزف روحي
في حنايا رعشاتي

اعذريني .. فالخطيئه
ان تمسيها استحالـت
طفلة مشفقة القلب بريئة .

(٤)

وتقذف الامواج بـي
وزورقـي صغـير
موله برغبة الابحار فوق الافـق ،
بوثبة يهمّ أن يطير
مغامـرا
وينثني الى المياه حائرا
فموجة تشيله
وموجـة تحطمـه
ربانه يصيـح :
(انا احب ان اموت بارتعاش المطلق) .
يرتـجّ عظم زورقي
ينحلّ في اغنية
منسيـة
هنـاك ...
خلـف الشفـق .

(٥)

وأبعـدُ ـ أبعدُ من كل ما قيل ـ
مـالا يقـال
فلصق ضميري تظل حـروف
حروف ثقـال
أشل عليها وليس تبوح
وتفعم صدري بطعم المحال
لمـاذا ؟
لـد نّ طفرتْ دمعتان
رأيت بعينيك لون دخان

واحسست ما لست ادري
وغفـران عينيـكِ
من اجل هذا الذي
لا يقـال
تساقط ، تهمـي
دمـوع الرجـال ٠

١٩٦١

عصفورة قلبي

عصفورة قلبي يا حلوة
يا لون ونكهة ايامي
ضجر في لحمي وعظامي
مذ بعدت عينيك عن عيني
ضجر ضجر ضجر مضن .
ولدن يتطافر بي نزقي
وأحس اللحظة من فرقي
تتطاول تطغى كالابد .
اشقى واصيح بها : هيا
قلبي منحدر فانزلقي
ودعيني يأكلني قلقي
لا بد ستظهر في الافق
عصفورة قلبي تأتيني
بجناح حان تحضنني
وسأسمع همهمة الزمن
تنجاب بعيدا عن اذني
تنجاب
بعيدا
عن اذني .
عصفورة قلبي يا حلوة
مدي اغنية تواقه
من آخر منفاك النائي
تتسلق تيه الاجواء
(عصفوري مثلك مشتاقه
يا لون ونكهة أيامي
وبلحمي ضجر وعظامي
حتى تلقاني
عصفوري) .
طوفي كل الدنيا دوري

ارجاء الكون المعمــور
تتناهى يوما غربتنــا
يوما سيكون بميسوري
اذ اهتــف :
- عصفورة قلبــي
ان أسمع صوتك :
- عصفــوري .
١٩٦١

حلوليــــة

كــان المســـــاء
نهنهة طرية تنسل في مجاهل السماء
وواحدا مثلث فوق ضجعة الخليج
للحظة منسية بغير ما يقين
تراشقت في خاطري اصــداء
انا الحزين أم هي الاشيــاء ؟
خطــوتُ خطوتين
أسفتُ ان وطئتُ فوق مهجة السكينه
ظننــت أننَــي
أعــود والزمان للوراء
من قبل ألف دورة وقفت والمساء
نهنهة طرية تنسل في مجاهل السماء
« عيناي اين كانتــا » ؟
غيبنــي الســؤال
انـــا أكــون
لــم أكـــن
وحين لا أكون
من الذي يرى الخليج والصخور والفضاء
لعلهــا ،
لعلهــا الاشيــاء
تــرى الى الاشيــاء ٠
١٩٦١

العجـــاج

مَدلجا أسلم للريبة قلبـــه
ممعنا خلف يقين مدّعى
ضيـّع ربـّه .
كنــت امضـــي
ارفع الساق احث الخطو لكنْ
عبثا تعبر ساقٌ دون أرض .
ماثلا في حدقة التسآل شاهدت
قطـــارا من سنـــين
يتعدى حاملا ما لستُ ادري
لســـــواي
ورؤاي
ضجر خددتِ الريح جبينه
سطرت فيه اَحـــاجي
كحـّلته بذريراتِ عجاج .
أي وهـــم
جمد التاريخ في عروقي وعرى
للرياحِ الهوج نهـــرا
تسبح الاجيال في خفقته
وهي لا تسأل ان كانت
ستلقى مستقـــرا .
اي وهــــم كـــان
تضليلٌ وحيره
خلجةٌ من دون اعصاب
وخفق في الرمـــاد
وأحـــاجـــي
تتهادى في شراييني طوفان عجاج
حينِ ساومت على الله نداء
(عُد الى الصمتِ فرحمُ الصمت مأوىَ
لعيون حدقت من دون جدوى) .
وتـــرددتُ

وكـــدتُ
حينما انشقّ ضباب التيه فجرا
وروت عيناك في رفة نظـره
المكانين التي حجّرت المصلوب حيره
حـدثتنـي
(قطـرة الماء التي تنأى الى الشاطيء
لا تفتح بحـرا)
عبثـا تشهق تهوى
في حضيض الارض سرا
ويظل البحر هدّارا باذن
الابـدية ٠
ابدا يعبرني هذا القطار
حـاملا لـي
شجنـا ـ مجـدا
رعيـلا من صغار
يرثون الارض والتاريخ من بعد
ولا ادلاج ٠٠ ولا وهم غبـار ٠

١٩٦١

ما لم يُقل عن شهرزاد

شهــرزاد
لِمَ أسرت بي حكاياكِ الى أمس دفين ؟
عبر سرداب من الاوهام يفضي ليقين
فاذا بي مثقل احمل في جنبي سرا
ليس يــدري
عن خفيات لياليك الطويله ٠
(الف ليلــه
كل ليلــه
حلمك الاوحد ان تبقي لليله) ٠
قصة تروى ومذ كنا صغارا
حملتنا لاراضي الجــن
عبر الريح والانواء في عرض البحار
وحببنـــاك
حببنـــاك كثــيرا
وسهرنا ليلة في اثر آخــرى
لهفة تسأل عما
كان من أمــر آخــيرا
وعفا من بعد الف شهريــار
ففــرحنــا ٠
في بــلادي ، حيث عين الطفل والشيخ سواء
دعوة تحيا على وعد انتصار ٠
شهــرزادي
شهرزادي يا صديقــه
قيل ما قيــل ووحــدي
انت اسررتِ اليه بالحقيقه
ألــف ليلــه
كــل ليلــة
حلمكِ الاوحد ان تبقي لليله ٠
فاذا مَا الديك صاح
معلنا للكون ميلاد صبـــاح

نمت والموت سويا في فراش
الــف ليلــة
غاض في عينيك ايماض التصبــّي
واستوت كلّ المذاقات
فمرّ مثل عــذب ·
بعدها كان وما كان ـ صباح
كنت فيه بعض ذكرى عن صبيه
اين منها شهرزاد ·
شهرزادي
خدعة ضللت الاذان عمرا
ورست في خاطر التاريخ دهرا ·
ان عفا من بعد الف شهريار
وسنبقــى
في بلادي ـ حيث عين الطفل والشيخ سواء
دعوة تحيا على وعد انتصار
كلما دقّ على الافق شتاء
نتسلى بحكاياك الشجيه ،
ونغني لانتصــار
لم يكن يوما ولا يرجــى انتصار
تحت عينــي شهريار ·
١٩٦١

قرارة موشح اندلسي

هــا قبة خضــراء
ها قوس كبابِ دمشق
ســـاحــات
ورودٌ من مشاتل ســوريا
لكنمــا
اشبيليا ، اشبيليا
في قاعة اموية الاجواء
ترفــل بالحريــر
واللحــن موجوع أسير
يتسلق العمدان ملهــوف الحنين
ويشــف ،
يقطـــر
والهــا
عذبــا
حــزيــن ٠
وعلــى العيــون
خلف المحاجر في اختلاجات الجفــون
الشام تولــد تــارة
الشام ثانية تمــوت ٠
اشبيليا
كتفاكِ عاريتان
ما ارتضتا عباءات يوشيها القصب ،
وســدى أربتْ وجنتيك
بكــف آت مغتــرب ،
هجر الديــار معلــلا
أنْ قد ستولد سوريا
اخــرى على اشبيليا
وثنيّة
عيناك قاسيتان ، ذكرى عن مجامر بربريــه ٠
جئنا لمعبدك الشمــوخ بحبنا

فعزفــت عــن قربانـنا
صماء في وجه المحب ، اما تدغدغك الهدية
يأتيك حاملها يغنيك الرجاء
وانــت صامتة عصيــه ؟
•ترقص الشام على قلبي نسيمات خفايا
ـ آه ما احنى ـ فحتى الميت تعطيه
شغــافــا •
كل مرج عاشقٌ بين يديها
كل عين رأت النور عليها
مستهامــه
وتناغى كل صب في هواهــا
ابدا لم تنكر الشامُ فتاها
لم تقابله بعين حجريـــة
تتصبّى الامس جمرا وطقوسا بربرية •
ويطوف ساقينا
كأسا تلــي كأسا
بالوهم تغــرينا
وتراوغ الحســا
فلعلنا ننســى
ان كان ينسينا
وهم ولو حينــا •
بردى في العين صبحا ومسا
يتــراءى
كل احبابي على صفحتــه
(ونديم همتُ في رفقته
يشرب الراح من راحته)
(كلما استيقظ من غفوته
جذب الزقّ اليه واتكا)
فبعيدُ الدار في غربته
انْ صحا غنى وان غنى بكى •
١٩٦١

احزان صحراوية ـ ٢

العتابـــا
جرحت باللوم ليل الرافديـــن
حملتْ في الليل أشواق العذارى
صبـــوات تتلوى
تترع الليـــل عذابا
من متاهاتِ الصحارى
قـــادمٌ هـــذا الصدى
ايٌ اصقاع طواهـــا
متعبا جـــاز المـــدى ٠
وكبـــا
عند اعتاب السهارى ٠
صمت السّمار ، أصخـــوا
لصـــدى يغوي حنينا
وادكـــارا ٠
يا لهاتيـــك البنيّة
طفلة كانت حييه
كبـــرت ، يا مقلتـــي
فـــارتْ رغابا
بوغتـــتْ بالحب ، لم تدرِ
تشهـــت
وانثنـــت حـــيرى ٠
تشكـــت
قسوة الاهل وجور الوالدين
وتغنت بالعتابـــا
والعتابـــا
حين طافـــت بنا
جـــرّحتنا
جرحت من قبل ليل الرافدين ٠

عـودة الشيخ

هوذا شيخ الشتـاء
اغلق الافـق وجـاء ،
هوذا ينقل في الشارع نقرات عصاه
قادم يحمل في سر اهابـه
ادوات من فنـون السحـرة ،
ريشة ترسم اقواسا على عرضِ السماء
وزنادا يشعل البرق وغليونا لتصعيد الغمام
فقفـوا
ودعـوا لغو الكـلام
واهتفـوا
مرحبا ، شيخ الشتاء ،

١٩٦٣

شهـوة التراب

« قال آدم : هذه الان عظم من عظامي ولحم من لحمي ، هذه تدعى امـرأة لانها من امرىء اخذت ، لذلك يترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا » ٠

(الاصحاح الثاني : سفر التكوين)

هنا معـــي
يا ضلعي المقدود بين اضلعـــي
مفقــودتـــي
كنا نجوس رفّة
صدى لوقع رفّـــة
تهويمة في خاطر الاشياء ،
انفاسنـــا
افكـــارنـــا
أبرأ من سكينة الاشياء
في مطلـق العــراء ٠
هنا معـــي
هنا معـــي
يا ضلعي المقدود بين أضلعي ٠
تأتيننـــي
عيناك تندى لهفة شهية السؤال
مدى احاسيسي اليك فاسألـــي
ما لم يطـفْ ببال ٠
وتسألــين
تسألين بينمـــا
تموج في عينيك وقعْ رفـة
صدى انفـلات رفـة
نجوس في سكينة الاشياء
ثانية ننسل عائديـــن
نمجد الاله في عذرية العراء
لكننـــا

– ما اوغل الحنين – ها هنا
وجها لوجه ها هنا
من اجل عينيك احب سقطتي
احب ارضي التراب هـذه
وخبزي المجبول بالعنـاء
ارضي التي ورثتها
من شهوة السؤال في عينيك للمحرم ،
ملعونة احبهـا
يدفق حبا قلبها
اغنية لا تنتهـي
لا تنتهـي

هنا معـي
يا ضلعي الاحبّ بين اضلعي ٠

١٩٦٢

أحزان صحراوية ـ ٣

كنت قد ألمحت من قبــل
مــرارا
أن هذا الحزن ـ حين انسل
محمولا على ريــحِ الصحارى ـ
قد تناهــى
لحنايانا العميقـة
حالنا ـ حين ألفناه ـ أساري •
وقديمــا
خلت ذاك القادم السرّي شيخا
مثل جــدّي
وجديرا بالــولاء
ولكم حاذرتُ أن أوذي سلامه
وأرى اليــوم بأنـي
عبر تاريخ من الهمس المحاذر
غاض مني الصوت الا
رجفــة الريح المسافر •
انني قد اقفز الان على جنح التفاتــه
فأرى الطوفــان
يجتاح الجزيــرة
انني اركض ـ الغي الربع الخالي
عسيرا ، وتهامه
(فرحة الماء بصدري
غسلت منّه القتامه) •
ثم اعدو ـ يحسر الماء ـ وأنمــو
اخضر العودِ مع الغابات
في عيــد النمــاء
انـنــي الثلــج
وأساقطُ أبيض
وأمتــد بعيــدا
انني سرُّ الشتــاء

وربيعا أصبح العاشــق
والطفل الذي يلعب
والشيخ وفي جيبي جريده ٠
غير أنــي بالتفاتــه
عائدا من رحلة الوهم السعيدة
ألمــحْ الشيخ المعنى في اهابي
(دونما حتى جريده) ٠
لست طوفانا
ولم يخضر عــودي
لم اكــن ثلجــا
ولم امتــدّ في الامــداء
شيخا يكثر القول
يسلي النفس عن هذا وذاك
بحكايــات
قديمــات
بذكــرى
وقعها في النفس أسيان
كريح عبــر صحــرا ٠

١٩٦٤

مرثيــة الشيخ

(١)

كان صوتا شاحبا اعلــن
أنّ الله أكبــر
فحملنا الجسد الهشّ وسرنا
ثم ، فوق الافق الغربي لاح
القــرص أصفــر
سورة الاغماء شدّت وجهــة العاني
عميقــا
وبدا دغلٌ من الزيتون أغبــر
فوقفنــا
للاصيل المجهد العريان ننظــر .

(٢)

انّ هذا الهيكل الملآن اصداء
سنينا ومــراره
ذا الجبين الناتيء المشرع للانــواء
يومي بجساره ،
فلنقل : كان سفينه
مثلت أضلاعها للريح في عرض البحار
وتحدت مغضب الامواج والحيتان
عاما بعــد عام ،
وتناهــت نكهة البحر وسر البحر فيها ،
فلنقــل :
داخــت أخــيرا
وتداعى برجها الآن
فمالت لتنــام .

(٣)

فلنقل : سيف جليل نائم

قد كان ينهض
ظامىء الشفرة أبيض
جاب امداء
وخلى اثـرا
ايان كـان ،

وكما يعرف هذا الجمع
لا سيف جبان
بل لقرصان مغامر
جردوه لتروا نصلا ملـوى
ثلمتـه الحدثـان
أغمـدوه
آن يستلقي مسدى في الغماد ،
في جدار المنزل الارحب صدرا
عنقـوه
وليكنْ عالي النجـاد
حق بعد اليوم الا يشهـرا
أبـدي الصمت يبقى
حاضـرا

ليس للمس ولكـن
لـيرى ٠

(٤)

وحين رن معـول
ينهش احشاء الصفاه
أصخـت
من يصرخ (وا فجعتاه)
سمعت ريحـا
في الذرى تولول ٠

(٥)

ربما قبل عصور

كان هذا الهيكل اليابس يوما
سنديـــانه
شمخت تستشرفْ الوديـــان
مـــدّت جنبـــات
عششت فيها النســـور
مـــن عـــل
راقبت الذئبان تقتات بحملان

فهزت عطف غصن مطمئنـــه
الف فأس جرّحتها
قطّعتْ أوصالهـــا
سالت نسوغـــا
دون أنـــه ٠

مـــدّت القشرة من فوق جراح الكبرياء
عمـــرت
لمْ تدر كمْ مر على أطرافها صيف

أو انقضّ شتاء
هي ذي الآن تهاوت
بعد أن برّحها طول اعتوار
من شموس وصقيع ٠
كتلةٌ جرداء مـــلأى
بغضون العمـــر
توقيع الزمـــان

لا تقولوا (لم تكـــن)
كانـــت ،
وهذا الهيكل اليابـــس
من نفس الاورومـــه ٠
بورك الشيخ سليل السنديـــان
ذلك الشيخ الذي يغفو
مليئا بالزمـــان ٠

(٦)

يا صديق الرياح
غريـب المجـيء
غريب الـرواح
متعبا بالابـاء
ايٌّ سرّ سحيق
انت والكبرياء
آن أن ترحـلا
فالمسا ينتظر
والشجـر
مـدّ أيديه عاشقا
سائـلا
ان تعـود
لنسوغِ الجـدود ٠

١٩٦٦

بلا عنوان (١)

١ ـ حقله النائم في صمت الظهيره
سادر عن ذكـره
ترقص الاشواك والارياح فيـه
والجنـادب
لا تبالي ان ظل الشيخ غائب .
ملكه عـاد سبيه
هي ذي الصيفية الاولى عليه
ما تبقى منـه الا
نقلة في خاطـري
جـد خفيه
٢ ـ لست ارثيه وانـي ..
خاطـري مـر
ويعصاه الكـلام
انمـا ...
اعرفه حقا كريح الفجر يقظـه .
وارى
الان الختـام
اطبق الجفن ونـام
أسفـا
وا أسفـاه
الفتى الطائش قلبـي
بات يشتاق السـلام .

١٩٦٧

---

١ ـ القصيدة بلا عنوان وجدت بين اوراق شقيقته فيروز وبخط تيسـير .

مرثية القافلة الاولى

طلع الصباح على العيون الطيبه
ومع الظهيرة اطبقت
عشرون الفا مطفأة
عشرون ألف يد ممددة ولا
دفء يوسِّد امرأه ٠
دعْ عنك قولك
في الغداة
النصرْ آت
لا ٠
الحزن ينقض نسج قلبي
يمتد من قلبي وحتى
لا نهايه ٠
شحب الصباح
والموت لاح
قدرا أخا
حطّ الرحال
وتجهم التاريخ للشعب الضحوك
ودون جوله
ذبح الرجال ٠
أدري بأني لو بكيت مصير شعبي
لو اعارتني ثكالى النوقِ حنجرة
سدى
أزجي لسيناء العجوزِ نحيب شعبي
لا صدى ٠
عشرون ألف مقلة
نقر العقاب
لا تهذ بالنصر الملفق
انني انبيك
خذ :
النور غاب

والليل أطبـق
فليكن ليل ـ وكـان ٠
لا
الخيل ما صهلتْ على اليرموك
لا
والقادسية قصـةٌ عجفاء
من هـذرِ الفـرات
فرس هناك ، وليس غـير
تسير مطرقـة
تعثـر في العنـان
فرس الهزيمة ، ليس غيره
عشيـة امتقع النهار بذلّ شعبي
والليل اطبق ٠
دع عنك ما يهذي الجهول
وما يلفّقه المخاتـلْ
الامر في عيني ماثلْ ،
الريحْ مثقلة هوانْ
تمضي مع الابناء والاحفاد
تسري فـي الزمـان
باسمِ الذين تجندلوا
في ارض سيناء العجـوز ٠
زنـد سيبـرق
كفٌ جيل سوف تلتقف العنان
قـفْ
فرس الهزيمة تنثنـي
وحوافـر الحقدِ المورّث
تنقـرْ الامس الميبس بالهوان ٠
سينـاءْ
سيناء ، يا قلب أصمٌ
عليك صلى الله ها جسد العروبة
اسطورةٌ ملأى بتاريخ الجراح
تمـدّدت فوق الرمـال ٠

انا منحناك الهزيمة
عزماً يهب الرجال
فليحترقْ تاريخ شعبي
انا عبرنا الجسر
خلفنا ركام الوردِ والموال
ذكرى من نفايات القرون
والطيبون المؤمنون
سيناءُ
عبروا ليغتسلوا بحمّام الدماء ٠
سيناء يا للموعد الجهري
حيث حساب شعبي الذبحْ
هذي بعد أول قافلة
فلتحفظي شرف الرياده
في ضمير الرملِ سرا ٠
حتى اذا شقت سجوف الليل فجرا
تدرين ان دماءنا
زيت يضيء على مناره
ويقال أن هزيمة
خطّت الى الآتي فخاره
الامر في عيني ماثلْ
وأرى البداية والنهاية
لكنما ٠٠
الحزن ينقض نسج قلبي
يمتد من قلبي وحتى
لا نهايه ٠

١٩٦٧

الاســرار

مقعـد همّ بكتفي منضده
وردةٌ ألقت بساق في الاناء ·
ســاكن هذا المســاء
وأصخنــا
فسمعنــا
في حنــايا الصمت همسا
وخطى مرتعــده ·
طاف فينا خلسة
هاجسٌ من سفــر
حين أومأت رضى
هاج اعراق المكان
رؤية المنتظــر ·
تبدأ الرحلة كفّ
تتقرى ثــم تغفو
ناعم هــذا المساء ·
تخفقُ الوردة في جوف الاناء
فاذا الصمت يعــاني
من مخاض الحركه
واذا المقعدُ والمنضده
اذرعٌ مشتبكــه ·
ضيق هذا المساء
برداء ضمّه كالشبكه ·
عالم الاسرارِ يدعوني ويضرع
كــي أحلّه
انه مُضنى وتوّاق وموجع
وانا جِدّ مولّه
وهسيس النسج فوق الجسد
ردّ في سمعي حنينه
قاد نقلات يدي
في مجالات الليونه ·
هي ذي الالوان في الركن تغني بفرَح

مهرجان من طيوف
صاغها النسج الشّفوف
مثلما قوس قزح ٠
واصلّي لك يا بنت الضياء
مغدق هذا المساء
وسخـــي بالعطاء ٠
هذه الامداء كم سافرتُ فيها
قطفت كفي جناها
واستقى منهـا فمي
غير أني بعد ظمآن وتجتاح دمي
رغبة هوجاء ان يهرق فيها ،
فاسمعي هذا الدويّ
انه يهدر في العرق قوي
انه يشتاق ان يسكن فيكِ
انــه منك
اليـــكِ ٠

١٩٦٨

الحلـــم

وكنت معبقة بالبهــار
تراخــى بهارك
حـــوّم
حــطّ
وأنشب في عصبي قسوتــه ٠
كأنك حين خطــرت الي
وطئــت اديمـــي
وعانى خطاك البطيئة صدري ،
وعيناك اثقلتاني وعــود
وفي كــل وعــد
ذؤابـــة نصل يمسّ الوريد ٠
قرابة عينـي انت
وأبعــد مما يعيه مــدى ،
عرفت : محالٌ عبوري اليك
وغــذّ ندائي اليك سدى ٠
كبــوت عييــا
رأيتــك تنأين عنــي
وعيناك ما زالتا تومئان اليا ٠
نأيــت
نأيــت
تحولت افقا بعيــدا
وكنــت مسجــى
وكنــت وحيــدا ٠
صباحا خــرجت
التقيت بوجــه المدينة
رأيت الى الشمس تضحك في الافق
لكن نفسي كانت حزينــة
رويــدا اسـير
ويطبق ـ فيما اسير ـ علي الزحام

١٩٦٨

الســؤال

قبل هذا اليوم كان
كــان طفــلا
مــلءُ عينيه ســؤال
ولذا غذّ خطــاه
مسرعا خلــف رؤاه
يــستطيب الارتحــال ،
وهنا باغته الصــوت وقال :
(حيثما وجهت لا « اين »
فقــف
هذه ارض المحال) .
قبل هذا اليــوم كــان
كــان طفــلا
وهو طفلا ما يزال .
ولقــد يعبر حينا
سالكا ايّ اتجــاه ،
ولقد يذكــر طيفــا
من قديمات روّاه
ولقد يضحك او يبكــي
فطفلا ما يــزال
هــو يحيــا
والذي مات السؤال ...

(١)

انا يا صديقي
أسيرُ مع الوهمِ - ادري
أيمّمُ نحو تخومِ النهاية
نبيا غريب الملامح أمضي
الى غير غاية .
سأسقط ، لا بد ، يملأ جوفي الظلام
نبيا ، قتيلا وما فاه بعد بآيه
وانت صديقي ،
واعلم ، لكن قد اختلفت بي طريقي
سأسقط ، لا بدّ
اسقط يملأ جوفي الظلام
عذيرك ، بعد
اذا ما التقينا بذات منام
تفيق الغداة وتنسى
لكم انت تنسى
عليك السلام .

١٩٧٣

---

(١) هذه القصيدة اطلق عليها اسم القصيدة الاخيرة من قبل بعض اصدقاء تيسير . واحب أن أنوه بانها وجدت بلا عنوان وافضل ان تبقى بلا عنوان وهي ليست الاخيرة حقا فقد نشر بعدها قصيدة الرحلة .

الرحلـــة

هو لا يذكر شيئا عن عذابات الليالي الماضيه
تمـت الرحلـة
والوعد على القمـة
والقمة لاحت دانيـه ·
لحظـة
طرفـة عـين
هي ذي القمـة تبـدو
ويـــرى
لم يكن ثمة شـيء ليراه
لم يكن ثمة شيء ليمسه
فاذا القمة جـداً خاوية ·

لم يعدْ يحتاج انسانـا
ولا شيئـا
ولا يحتاج حسّه ·
واحدا يمثل ، لا يدري اذا كان وحيدا
واحـدا يسمع لغط الريح
والصحراء في عينيه تمتـدُّ ـ وتمتـدُّ بعيدا
ضجرا كان ، وما كان تعيسا أو سعيدا ·
أو لعل الامر لم يحدث
لعـلّ الرحلة الموما اليها لم تكـن
والمسألـة
حلم مـرّ طويلا وثقيلا وبليـدا ·

كان فـي القمـة
والقمـة جـدا بـارده ،
واذا ما ارتجت اوصاله قد يتذكـر
خبـرا عن رحلة هابطة
او صاعـده ·

١٩٧٣

خياميات (١)

(١)

قام خزاف عجول ، طينه يدحو امامي
يضرب الاعضاء بالاعضاء في غير اهتمام
بلسان غير مرئي سمعت الطين يضرع
« يا أخيّ الحيّ تمهلْ وترفق بعظامي » .

(٢)

شفة الكأس علتْ ودنت من شفتي
قلت : يا أخت ، عظيني قبسا من حكمة
همهمتْ بي (لا تكن احمق ، خذني وارتشفني
عندما تبرح صدر الارض ، ما من عودة) .

(٣)

امتط العمر وطوّفْ وأطع داعي الرّغاب
وأجل كفك في اللذات قطفا وانتهاب
فغدا تهرقْ كأس الحب واللحن سيفنى
عندما تهوي ترابا مودعا تحت التراب .

(٣)

امتط العمر وطوف واطع داعي الرغاب
واجل كفك في اللذات قطفا وانتهاب
فغدا لا أغنيات ، لا نبيذ ، لا قبل
وغدا تهوي ترابا مودعا تحت التراب .

(٤)

لحظة" لا غير لاحتْ في قفار عدميه
لحظة لا غير في الحلق مذاق الحيوية
آفلات" إنجم العيش وتمضي القافلة
نحو لا شيء ـ فعجل واقتطف كل شهي

(٥)

وعلى كل لسان ، اين امضي بعد موتي ؟
ضلّ من يسأل والكأس اجابت دون صوت :
« من فراغ لامتلاء لفراغ سار عمري »
وكذا الانسان في دورته يمضي ويأتي »

(٦)

لو ملاك الدفتر المحفوظ بالانسان يحفل
لو بصوت الحب والانسان يعنى ـ كان يقبل
ان نذري في مهب الريح ما خطّ ، ونملي
باتئاد ، عالما اقرب للقلبِ وأجمل ٠

(٧)

نخب ذكراهم ٠ على ارواحهم منا السلام
الاحباء الاحباء ـ قليلا ما اقاموا
دارت الكأس عليهم دورة أو دورتين
وهوتْ حبّاتهم تترىفمالوا ليناموا ٠

(٨)

يا أخي حين نواري ، يسدل الموت الحجابْ
من يبالي بحضور نحن منه أو غياب
يستمر الفلكُ الدوّار والاكوان تجري
نحن لا اكثر من وقع حصاة في عبـــاب ٠

(٩)

انت هبها جلسة ٠٠ هبْ شراب العمرِ خمرا
وتدور الكأس ـ لا بـــدّ ـ تدورُ الكأس قسرا
آه ، سيان ألاحت عذبة ام علقما
خمرةٌ تنفذ حتما ، قطرة في أثر قطره ٠

(٩)

انت ‥ هبها جلسة ‥ هب شراب العمر خمرا
وتدور الكأس – لا بد – تدور الكأس قسرا
آه ، سيان ألاحت عذبة ام علقما
خمرة تنفذ حتما ، رشفة في أثر أخرى ٠

(١٠)

لو مطال اليد ان تملي لهذا الكون صوغا
أو لو ان الخالق الجبار ، قبل الخلق أصغى
لابتكرت الكون معقولا جميلا غير هذا
أو لفظت الحكم لا ريب بأن يمحى ويلغى ٠

(١١)

يا أخي المنكبّ فوق اللغز والطالب سرّه
قيل لي يفصل بين النار والجنة شعره
ان تكن تلك تخوم الله قل وتعجل
كيف في الارض سنجلو طيب الامرِ وشرّه ٠

(١٢)

خبري تحمله الريح وما تنفكّ تجري
وعلى كل لسان يلغط اليوم بسري
فانا بالروح ثمنت حبيبا باعني
آه كم ارخص ساذ ثمن – سعري ٠

(١٣)

املأ الكأس حبيبي ٠ املأ الكأسِ المصفّى
آلق اليوم بعيني من ندامات وخوف
دعك من ذكر غد يأتي ٠ غدا حين اوارى
أستوي في ابد الصمت وميتا قبل ألف ٠

(١٤)

من مهاوي الظلمة الصمّاء ، صوتٌ جاء يرقى
صاح في اذن معنّى · بهموم العمر يشقى
وانثنى نحو تقيّ باع دنياه لاخرى
لكلا الاذنين القى كلمة لا غير (حمقى) ·

(١٥)

شيخة العقل تزوجت ·· وكانت لا تطق
ثم آليت عليها وثلاثا بالطلاق
بعدما بدلت زوجي بابنة الحان الصبيه
أصبحتْ كل لياليّ نجاوى وعناق ·

(١٦)

فليكن ما كان · ما بي ندم يرجو براءه
وهو ان يقض فاني لست بالشاكي قضاءه
وجبان كل من يشكو ·· وفي الحان الجبان
ان يشاهده الندامى يغلقوا الباب وراءه ·

(١٧)

في شتاء الندم القارس خذْ كأسا لتدفأ
وعليل انت فاعبر لربيع القلب تبرأ
ماء بهجتك أسقيت عصفور الزمان
أفيبقى بين اضلاعك اذا ما الموت اومأ ؟

(١٧)

في شتاء الندم القارس خذ كأسا لتدفأ
وعليل انت فاعبر لربيعِ القلب تبرأ
ظاميء انت وتسقي طائر العمرِ وتدري
انه منفلت عنك اذا ما الموت أومأ ·

(١٨)

خبئي عيني في صدرك ، ان القمر القاسي بدا
حبنا طرفة عين وهو يجري ابدا
واذا نحن انفككنا يبتلي الارض عماء
وسدى يطلع هذا القمر القاسي سدى .

(١٩)

آه حقا ، آه ولتعلن خفيات الحقيقه
آه حقا ان قلبي ضل في الحب طريقه
اذ رآها قال « يا اخت » فردتته بطعنه
من لقلب حينما يطعن من كف الشقيقه .

(٢٠)

حينما ينفخ في الصور ويد عى للحساب
ويقال اليوم يوم لعقاب وثواب
فاستعد وعثاء دنياك وخاطب عدله
أفلا يكفي عذاب البدء عذرا في المآب .

(٢١)

قبل ان ينضو طفل الفجر طرفا من ردائه
خلتني اسمع شيخ الحان يعلو بندائه
« ايها السادر نوما واله الراح صاح
ان فرض الفجر كأس ، كيف تغفو عن ادائه » .

(٢٢)

طائر غنى قليلا فوق غصن ثم طار
قلت : هذا طائر العمر الى الافق استدار
للمدى الارحب قد اسلم جنحيه ، ونهبا للمدى
سوف يغدو ..
وي لعمر هو كالثوب المعار .

(٢٢)

طائر غنى قليلا فوق غصن ، ثم طار
ولدنْ صفق جنحاه وللافق استدار
راحت الصورة والصوت انتهابا في المدى
قلت : يا رب
لماذا كل ما تعصي – معار .

(٢٣)

انت كأس سكب الله بها بعض الجمال
وجب الشكرُ على العبد وشرب للثمال
فاذا ما فرغت كأسي واشتقت لاخرى
فأنا ظمآن والاخرى لظمآن حلال .

(٢٤)

استفقْ وانظر فنصرُ الشمس في الآفاق جهر
حسمتْ معركة الليل وجندُ الليلِ فرّوا
تنطوي قلعة السلطان في هذا النزال
بشعاع ضربتها الشمس اذ كانت تمرّ
(نالها منه شعاع عرضا كان يمرّ) .

(٢٥)

هاجس ام هاتف ؟ قد رن في نومي صداه
بل نداء الحان قبل الفجر يدعو للصلاه
فنضونا النوم والصوتُ بأذني يتردد
(معبد الندمان يصحو والمصلون غفاه) .

(٢٦)

قيل لي انظر تباشير الصباح
فتحت للكون آلاف الاقاحي
حسن ان رياح اليوم زهرا فتحت
وزهور الامس – قولوا – أذبلت ايّ رياح

(٢٧)

ربما خلت بأن الحشر لا بدّ اقتــرب
واذا متّ فان « النور » عنها يحتجب
لم ؟ والساقي الالهي الذي القاك يوما
كلما شاء سيلقي بملايين الحبب .

(٢٨)

انّ في الخمرة نفعا وبها ايضا مضرّه
صدق الشارع اذا شدّد بالتحريم امره
صدق الشارع لكن في هوى كـلّ الانام
كلما حرّم امـرٌ لاح في الامر مسره .

(٢٩)

حمّ هذا المقلب حبا وتشكّى للحبيبه
وهي تشكو حبّ غيري وهو في اثر غريبه
فعليل كان يشكو
مـن سـيرى مـن

(٣٠)

وتدور الكأس لا بـدّ الكأس قسرا .

---

(١) الخياميات هي رباعيات عمر الخيام والتي قام تيسير بترجمتها مــن الانكليزية عن فيتزجيرالد ولم يتممها .

المواقف والدراسات

مواقف في الشعر

قراءة جديدة لشعرنا القديم

صلاح عبد الصبور من الشعراء العرب الحديثين الذين مارسوا النقد بالاضافة الى ممارستهم الابداعيه · وفي كتابه (قراءة جديدة لشعرنا القديم) محاولة للاتصال بالتراث العربي القديم واستخراج النفيس من قيمه الفنية والانسانيه ، وفرز هذا النفيس عن الغث ·

في هذا الكتاب يضع صلاح عبد الصبور ، كما يقول ، (علامات الامان) لقراءة الشعر القديم والمقصود بعلامات الامان الطريقة المثلى لقراءة شعرنا القديم فهو يطمح ان يرى الجمال حيثما وجد بمقاييسه العصريه ·

ولكن كيف يمكن لنا ان نطبق منهجا عصريا على شعر قديم ؟

دراسة صلاح عبد الصبور ترد على هذا السؤال ردا عمليا ، فهو يعتمد في دراسته الشعر الذي يصلح لكل زمان ومكان واغلبه من الشعر المتعلق بالحب والنفس والطبيعة · فهو يتجاهل شعر المدح والهجاء مثلا لان هذا الضرب من الشعر مرتبط ببيئة ومناسبات معينة وتحكمه اسباب خاصة ·

في فصل (الشاعر يتفلسف) يتناول صلاح شعر الزهد لعلاقته بالزمن والحياة ككل ويقول : (شعر التزهيد يمثل شعور الجماعة ، بينما شعر التأمل في الموت يمثل شعور الفرد اما شعر الميتافيزيقا

فهو شعر اصيل لنفس حساسة بمقياسها الخاص) • ثم عرض من بعد لمشكلة الموت وبين مواقف الشعرا ءالعرب القدامى المتباينة من هذه المشكلة •

فشاعر مثل طرفة بن العبد له موقف ابيقوري من الموت فهو ازاء التأمل فيه يميل الى الاستزادة من لذائذ الحياة وقبول مغامرتها دون الم •• وشاعر مثل متمم بن نويرة يرى صورة الموت مبثوثة في شتى مظاهر الحياة :

فقلت ان الشجى يبعث الشجى   فدعني فهذا كله قبّر مالك

وعند ابي نواس تبدو مشكلة الموت معقدة لانها تظهر في مزيج غريب من الزهد والمجون • اما لدى ابي العلاء المعري فالموت لون من النعيم سيلقاه الانسان لان الدنيا بنظره لون من الاسر •

وفي فصل (حوار مع الكون) يدرس صلاح نماذج عديدة من موقف الشعراء العرب من الطبيعة ، ويبين عنصر الحركة في وصف امرىء القيس لليلة ماطرة ذلك العنصر الذي يسقط به الشاعر حركة نفسه على الطبيعة •

ويلاحظ ان ابا تمام والبحتري قد جسما الطبيعة ككائن حي بينما نادرا ما التفت اليها المتنبي • وفي فصل (الشاعر والحب) يدرس الكاتب النظريتين المميزتين في الشعر العربي •

- الجسدية •
- والعذرية •

ويلاحظ الصفات الرومانتيكية لموقف الشعراء العرب من المرأة فهي ملهمة ومقترنة بالهروب والوحدة وممتزجة بمشكلة الموت •

وفي فصل (مثال الحب) يتحدث صلاح عن النموذج الثالث للمرأة الجميلة الحبيبة ويستعرض اوصافها في شعر التراث كالبدانة وطيب الرائحة ويفسر هذه الصفات ويلاحق ورودها بالشعر حتى القرن الخامس الهجري • اما بعد ذلك فقد وصف الشاعر العربي النموذج الثابت في الخيال لا في الواقع •

وفي الفصل الاخير يتناول الاستاذ صلاح بعض الصور الفنية في شعرنا القديم مثل روح الفكاهة والرمزية والتجسيد والتوليد ٠

ان كتاب الاستاذ صلاح هذا مفيد من حيث انه عودة واعية لشعرنا القديم ومثل هذه العودة تجدد حركة الدم في تراثنا ٠ وفي الوقت نفسه فان كتابا كهذا يثبت ان الشعراء الحديثين ليسوا مقطوعي الجذور عن ادبهم وتراثهم ، بل هم في الطليعة من الفهم العصري القريب للقارىء الحديث ٠

رحلة الى الشعر العربي

المتنبـــي

رحلتنا اليوم مع شاعر عربي ذي نفس تتكسر حسرات ، وهو يبدي التجلد والقوة · فاذن سوف نختار من شعر صديقنا ابـي الطيب المتنبي تلك الابيات المنبئة عن تمزق نفسه :

« حتام نحن نساري النجم في الظلم
وما سـراه علـى سـاق ولا قـدم
ولا يحس بـأجفـان يحسـ بهـا
فقد الرقاد غريب بات لم ينم » ·

نعم الى متى نحن نجري في هذه الجياة ؟ يتساءل ابو الطيب · نجري نواكب رحلة نجم الظلام الذي هو ليس مثلنا بسـاق وقدم فهو خلو من همومنا ومتاعبنـا ، وهـو اذ يسهر لا يعانـي ارقنا الانسانـي ·

هذه من قصائد ابي الطيب المتأخرة بعد خروجه مـن مصر ، وكان قد التجأ الى العبد الاخشيدي كافور هاربا من صديقه السيد العربي سيف الدولة ، صديقه الفارس الذي لم يقدر نفس الشاعر العربي المزقة الباحثة عن ذاتها الصغرى كفرد وعن ذاتها الكبرى كعربـي :

« وقت يضيع وعمر ليت مدته
في غـير أمته مـن سالف الامم
اتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم وأتيناه علـى الهـرم

انه اذن ينعي ذاته من خلال نعيه الزمان العربي المتأخر ويحن الى تليد من ماضي الامة حينما كانت العروبة علما في الذرى · انْ الوقت في الزمن العربي الاخير محض ضياع ·

فما سبب هذه القتامة الغاشية ؟

ما لنا كلنا جوى يا رسول ؟ انا اهوى وقلبك المتبول

ما لنا كلنا حزانى هكذا ؟

المتنبي لا يدري سببا لهذا القلق والحزن المقيم · ان الحياة تفر من يديه فيقول لها :

«زودينا من حسن وجهك ما دام
فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك في هذه
الدنيا فان المقام فيها قليل»·

وهكذا يصبح الحب محض اقتناص من قبضة العدم ، فجمال وجه الحبيبة سوف ينطفيء ذات يوم وهو يهيب بها لذلك ان تعطيه منه ، ويطلب الوصول لان المقام قصير في الدنيا ولا يحتمل المنع والبعد · ونحن نعلم طول الطريق تماما ومع ذلك نتساءل عنها ونحن نرتحل فيما نعلم ان غاية النفس ابعد من ان يعطيها اي مكان نرتحل اليه ، وكل وردة ترحب بنا نجيبها لست انت المقصودة وانما الرحلة هي المقصودة :

« نحن ادرى وقد سألنا بنجد
أطويل طريقنا أم يطول
وكثير من السؤال اشتياق
وكثير من رده تعليل
لا أقمنا على مكان وان طاب
ولا يبلغ المكان الرحيل
كلما رحبت بنا الروض قلنا
حلب قصدنا وأنت السبيل » ·

ان مجمل اللوحة الانسانية في نور عيني ابي الطيب تدعو للقلق المرعب · فالعدل منعدم بين الناس ولذلك تتمزق الاواصر بينهم حتى اواصر القربى :

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة
بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

ولذلك تراهم ما بين قاتل ومقتول والسيف هو الحكم بينهم لا المحبة :

« فلا زيارة الا ان تزورهم
ايد نشأن مع المصقولة الخدم
من كل قاضية بالموت شفرته
ما بين منتقم منه ومنتقمِ » .

وهكذا تنعدم الثقة بين الناس ، فيحذر احدهم الآخر ويهيب المتنبي بك الا تشتكي لاحد فذلك اشبه بشكوى الجريح الى عقاب يتوثب لاكله :

« ولا تشك الى خلق فتشمته
شكوى الجريح الى العقبان والرخم
وكن على حذر للناس تضمره
ولا يغرنك منهم ثغر مبتسمِ » .

اذن فهذه حياة بين قوم لا صديق يفهم :

« شر البلاد بلاد لا صديق بها
وشر ما يكسب الانسان ما يصم »

ففي حياة مجدبة روحا يصبح الموت امنية ، حياة يحكمها التحاسد على سقط المغانم وينعدم فيها حسن التواصل :

« كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا
تمنيتها لمّا تمنيت أن ترى صديقا
فأعيا أو عدوا مداجيا » .

تلخص حياة المتنبي عادة بهذه الحقائق البسيطة :

هو الشاعر الطموح الذي ادعى النبوة وسجن بسبب ذلك ثم اتصل بعدد من الامراء والحكام آملا ان يحصل على ولاية فخاب أمله وغيّر ولاءه المرة تلو المرة الى ان قتل بسبب قصيدة سخيفة .

فهل نرى قلق المتنبي في هذا الضوء ؟

« واني لمن قوم كأن نفوسهم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبي
ويا نفس زيدي في كرائهها قدما

فـــلا عبـــرت بـــي ســـاعة لا تعـــزّني
ولا صحبتنـــي مهجـــة تقبـــل الظلمـــا »

تريد لشعر المتنبي ان يجيب وقد اجاب حقا ، فالقلق الانساني الكبير فيه يجعل نفسه المتعالية آنفة عن ان تسكن لحمه وجسمه ، وهو كاره بصدق ابياته لصغار المظالم الدنيوية ويغذ روحه للارتحال. طبعا هو كذلك . ان تمزق نفس المتنبي لهو من الطراز الرفيع الذي يضعه مع النخبة من شعراء العالم . انه الشاعر الـذي اختبر في باطنه قدر الليالي قبل ان يحل ولذلك يبتسم بسخرية مريرة حينما يحـل القـدر :

« عرفـت الليـالي قبـل ما صنعـت بنـا
فلمـا وهبتنـا لـم تزدنـي بهـا علمـا
ومـا انسـدّت الدنيـا علـي لضيقهـا
ولكـن طرفـا لا أراك بـه أعمـى » .

ان صورة المتنبي مع ذلك تظل عصية على التحديد : هل هو فعلا بتلك العزة ؟ ولكن له مواقف من الضعة مشهودة .

نعم له مواقف وقصائد مشهودة في الضعة ، أليس هو القائل للعبـد الاخشيـدي :

« أبا المسك هل في الكأس فضـل أناله
فانـي أغنـي منـذ حـين وتشـربُ

وهبـت علـى مقـدار كفـي زماننـا
ونفسـي علـى مقـدار كفيـك تطلبُ »

انه النفس المتكسرة بين حقيقتها الباطنة التـي تكـره أن تسكن اللحم والعظم وبين واقعها البائس الذي يطلب فضل الكأس من العبد الاخشيدي :

وقد رأى صورة نفسه حينا بصورة الجواد المعذب :

« يقـول لـي الطبيـب اكلـت شيئـا
وداؤك فـي شـرابـك والطـعام

وما في طبه أني جواد
اضر بجسمه طول الجمام
تعود ان يغبر في السرايا
ويدخل من قتام في قتام
فأمسك لا يطال له فيرعى
ولا هو في العليق ولا اللجام » .

ولم ير في مرضه مرضا لصبر روحه ولا هو رأى في سلامة جسمه سلاما لروحه :

« فان امرض فما مرضي اصطباري
وان أحمم فما حم اعتزامي
وان أسلم فما أبقى ولكن
سلمت من الحمام الى الحمام »

انه الشاعر الحق يعيش عمره على مستويين مستوى من الواقع ومستوى من الكونيه ويتمزق بينهما .

(النابالم جعل قمح القدس مرا)
للشاعرة كلثوم مالك عرابــي

ظل الشعر مرتبطا بالحلم والرؤيا ينبع ويثير اسرارهما ، وبذلك كانت ترتسم الحدود الفاصلة ما بين الشعر والنثر ٠

الشعر في اخيلته وفي ايقاعاته الموسيقية ، في استعاراتــه وصوره التي تتجاوز المألوف من الحياة اليومية ، كان يقع في جزيرة يجمعها بفروع الادب بحر واحد ولكن بينهما مسافات ٠ الا ان الشعر قد بدأ يقترب من النثر مع تكاثــر مشكــلات الانسان وتعقيدها ، فالشعراء هــم بشــر ايضــا يعيشــون حياة غيرهــم وينفعلون بها ويطمحون الى التعبير عنها ومعالجتها بوسائلهم الشعرية ٠ وبــدا ان الشعر يفقد الكثير من خصائصه ٠ وتعالت اصوات تنادي برد الشعر الى جزيرته ، وكانت من هنا ازمة الشعر ٠ يقول المدافعــون عن خصوصيته بأن تأثير الشعــر في النفس لا يتأتى الا بمحافظتــه على المميزات التي تمنحه قوة خاصة : الخيال والعاطفة والايقاع ٠ ويقول غيرهم بأن هذه عناصر نسبية تتراوح بين زمن وزمن ، وليس الشعر بممتاز عن سواه من الفنون المتطورة المتغيرة ابدا بتغير واقع الانسان وهمومه ولون حياته ٠

من هذه الزاوية نتطلع الى ديوان (النابالم جعل قمح القدس مــرا) للشاعرة كلثوم مالك عرابي ٠ في هذا الديوان يتزاوج الحلم والواقع فتتلاشى الحدود ، ولا يعود الحلم نقيضا للواقع بل يتبادلان العطاء احدهما للاخر ٠ ففي هذه القصيدة التي تحمل اسم المجموعة كلها (النابالم جعل قمح القدس مرا) تفتح الشاعرة عن المنظــر او الحركة الاولى في القصيدة بأن تتأمل عصفورا واقفا على شجرة يغني ٠ ولكن للعصفور اشواقا ولواعج يبثها في قلب الاشياء ، على ان غناء العصفور لن يكون ملاذ هروب رومانتيكي عن الواقع بــل تصبح اشواقه واشواق الشاعرة متوحدة :

« فأعود اغنــي
للوطن النابض في صدري

ألوان حنـــين
حتــى قبــري » ٠

والوطن ذاته يتوحد في الام وفي الحبيب ٠ وتستعير الشاعرة من الحكاية الشعبية قصة المتاهة المتمثلة في الباب الموصد الذي مفتاحه عند الحداد ، ولكن الباب هنا احمر وهو اشارة الى بـــاب الحرية ٠ وتصبح حكاية الحنين الى الوطن المحتل حكاية ترفدهـا روافد متشعبة فمن القمح الذي جعله النابالم مرا وفي هذا رمـز قريب من القسم الذي ينسل في الحياة اليومية المعاشة ، الـــى (الوطن ـ الفكرة) والذي هو تعلق قدري لا يحتاج تبريرا ٠ تتشابك الصور الشعرية بكثير من الصدق والحرارة ٠ وهكذا فان الواقـع يتآخى مع الحلم وتخرج القصيدة مـن بـين فكي التناقض ٠ اي تستطيع ان تجد جوابا للازمة المطروحة على الشاعر ٠

ان الشاعرة لتلح على التعبير بالصور الحاحـا يفيض عبـر قصيدتها بالزخم ، ولكنها لا تدع لتوارد الصور ان يثير الرتابة بـل سرعان ما تكون قصيدتها قد انعطفت بشكل مفاجىء حتى لتظـن بأنها خرجت عن محورها العام ثم ما تلبث ان تكتشف الترابط الذي يعود ويشد كل حركات القصيدة في وحدة فنية قوية ٠

ففي المقطع الثالث مثلا نرى القصيدة قد انحرفت مباغتة من الحديث عن زنار النصر الـى :

« ويقال عن النجمة اذ عشقت
لــون الاقمــار
هي بعض طفولة قيثار
تتجاوز مرماها في سحر الاحلام
وتحن الى ما بعد الشمس » ٠

فتظن ان الشاعرة غرقت في الرومانسية ونسيـت في ملامح الطبيعة هدف قصيدتها الاول ، ولكنها سرعان ما تلتقف الحبـل مجــددا :

« ويقال بأن الصبح تمارض فينا
وبان الانداء تهاوت في قلب الصيف
وماتـــت
والنابالم قناع احمر لم يتمزق بعد » ٠

وتستجمع في الحركة الاخيرة من قصيدتها روح الحركات الاولى جميعا وتؤلف بينها من اجل ايقاع ختامي :

« لا بد لنا ٠ ان تزهر الوان النور
في الـــدرب الظلمـــاء
ونساهم في صنع الظفر المرسوم
على جذع الاعمـــاق
لا بد لسنوات الخصب بأن تأتي » ٠

مـن التراث العربـي
مرثية ابو ذؤيب لاولاده

في الشعر العربي القديم لوحات حية تستحضر للقارىء صـور الحياة العربية في البادية وهي بمجملها حياة بسيطة سواء فـي مظاهرها الخارجية كتحصيل العيش والسكن والارتحال ، او فـي مضمونها الروحي الباطني حيث تتبدى العاطفة صافية جلية فـي الحب والبغضاء في الفرح والحزن ٠

لقد قال الشاعر القديـم قصائـده مفتخـرا حينا ، مادحا أو هاجيا حينا ٠ واصفا لمتعة الوصف او متوعدا اعداءه ومن بين هذه الاغراض الشعرية المختلفة كتب الشاعر قصيدة الرثاء ايضا ٠

تظل المرثاة واحدة من الصق القصائد بالنفس علـى تغير الازمان وتطور الحياة ٠٠ اننا لا نستسيغ الان قصيدة الهجاء مثلا ، وتبدو قصيدة الفخر غريبة عن عالمنا ٠ طبعا ان الهجـاء والفخـر جزء من حياة البادية دعت اليهما طبيعة الحيـاة اذ ذاك حيـث مؤسسة القبيلة وقوتهـا وعلـو شأنها مـن الامـور الحيوية جدا للشاعر ٠ الصراع على لقمة العيش والدفاع عن البقاء ولذا قصيدة الهجاء ٠ امور طبيعية جدا ٠

غير ان الحال تغير الان تماما وبتغيره انقرضت قيم وحلـت محلها قيم جديدة ٠ ومن اجل هذا تبدو قصائد كانت طبيعية فـي وقتها غريبة على زمننا الحالي ٠

اما المرثاة فقد بقيت دائما قريبة من النفس ذلك ان حـدث الموت وما يخلفه من مشاعر الحزن لم ينته ولن ينتهي ٠

وفي هذه الحلقة نعرض مرثية شهيرة من مراثي العرب تلك التي كتبها ابو ذؤيب وقد فقد اولاده الخمسة في عام واحد :

أمـن المنـون وريبهـا تتـوجـع
والـدهـر ليس بمعتـب مـن يجـزع
قالـت اميمـة مـا لجسمـك شـاحبـا
منـذ ابتـذلـت ومـثل مالـك ينفـع

٠م ما لجنبك لا يلائم مضجعا
الا اقض عليك ذاك المضجع
فأجبتها اما لجسمي انه
أودى بني من البلاء فودعوا
اودى بني وأعقبوني غصة
بعد الرقاد وعبرة لا تقلع
سبقوا هواي واعنقوا لهواهم
فتخرموا ولكل جنب مصرع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب
واخال اني لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن ادافع عنهم
فاذا المنية اقبلت لا تدفع
واذا المنية انشبت اظفارها
الفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لا أتضعضع
والنفس راغبة اذا رغبتها
واذا ترد الى قليل تقنع

في هذا المفتتح يعرض الشاعر هوول مصابه بأولاده ويصرح برغبته في الموت ، الا انه وفي الوقت ذاته يحض نفسه على التجلد خوف شماتة الاعداء ويحاول ان يعزي نفسه برؤية حدث الموت على انه حدث عام لا بد منه ولا تنفع ضده تميمة ٠ الا ان الشاعر بعد ان ترك نفسه على سجيتها وسكب مشاعره يتلفت الى مظاهر الموت في شتى الوقائع فتجده يعرض لصورة حمار الوحش وقد كمن له الصياد ثم باغته بسهم فأرداه قتيلا ٠ ويبتدىء هذا الجزء بالبيت السادس عشر حين يقول الشاعر :

والدهر لا يبقي على حدثانه
جون السراة له جدائد أربع

وفي البيت السابع والثلاثين يلتفت الى صورة مصرع الثور بمنعطف مشابه ، وفي هذا المقطع تصوير اشد هولا للثور والكلاب تتناوشه :

يرمي بعينيه الغيوب وطرفه
مغض يصدق طرفه ما يسمع

عبثا يحاول الثور ان يحمي رأسه بين قوائمه :

ينهشنه ويذبهن ويحتمي
عبل الشوى بالطرتين مولّع
فصرعنه تحت الغبار وجنبه
متترّب ولكل جنب مصرع

والصورة الثالثة للموت يفتتحها بالبيت الحادي والخمسين ، انها صورة مصرع البطل في الحرب :

والدهر لا يبقي على حدثانه
مستشعر حلق الحديد مقنع

هذا البطل يقف في الحرب امام بطل اخر :

فتناديا وتواقفت خيلاهما
وكلاهما بطل اللقاء مخدع
متحاميين المجد كل واثق
ببلائه واليوم يوم اشنع
وكلاهما في كفه مزنية
فيها سنان كالمنارة اصلع

صورة الموت حاضرة بثقل وسواد في هذه الوقفة لبطلين كل منهما مدجج بالسلاح ، كل منهما مجرب وماهر في القتال ولكن لا بد لأحدهما ان يموت :

وكلاهما قد عاش عيشة ماجد
وجنى العلاء لو أن شيئا ينفع

روعة هذه المرثية تكمن في انها خرجت من دائرة الحزن الفردي

الذي مهد به الشاعر لقصيدته لترتفع الى افق الوجـود الرحب · فتتابع صور الموت في مصرع حمار وحشي بغتة على يـــد صياد كامن ، ومصرع ثور بري في صراع مخيـف مـــع الكـلاب ، واخيرا مصرع الفارس في ساح الوغى · وبهذا ربط الشاعر بين همـــه الخاص لوفاة اولاده بهموم البشر عموما وهم يواجهون الموت ، بل تعداه الى هموم الحياة على الاطلاق حتى هم الحيوان الاعجم وهو يواجه الموت ·

رحلة الى الشعر
رحلة الى افق الحب

في موكب من قدماء شعراء العربية ترتحل اليوم . موكب يفترق فيه المسافرون ثم يلتقون . والى اي ارض نرتحل ؛ بل الى أي افق نمضي ؟ هناك حيث تلتقي السماء بالارض ، الى افق الحب . ولم يفترق المسافرون ويلتقون ثانية ؟ لان الطرقات الى الحب بعدد المحبين تكون ، والافق مع ذلك واحد :

تشكى المحبون الصبابة ليتني
تحملت ما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لنفسي لذّة الحب كلها
فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

هوذا صوت يجد في الحب غاية اللذات ، ويعجب من تشكي المحبين ويبدي استعدادا لطيفا لحمل كل صبابات العشاق . انه صوت مبتهج ومشجع .

ولكن لنسمع لأخي الحب التالي . يراه ضيما للنفس وينقسم ذاته فلا يدري من امره حالا :

وما ذكرتك النفس الا تفرقت
فريقين منها عاذر لي ولائم
فريق أبى أن يقبل الضيم عنوة
وآخر منها قابل الضيم راغم

غريب ان تتوزع نفس المحبين الى فريقين : واحد عاذر وآخر لائم ، واغرب منه تلك الاشارة الغامضة للضيم في الحب . ثم نلتقي بمظاهر غريبة واخرى اليفة في رحلتنا :

تحمل اصحابي ولم يجدوا وجدي
وللناس اشجان ولي شجن وحدي
احبكمو ما دمت حيا فان أمت
فواكبدا ممن يحبكمو بعدي

تتفطر كبده من مجرد الصورة الخيالية لحبيبته تحب أو تحب من بعده · انها لأنانية · بل اننا سوف نرى حبيب « قدور » يتمنى موتها معه ان لم تقدر له في حياته ، ويشتط في عداوة العالم لدرجة أن يبتهل الله بأن لا يلتقي حبيبان قط ان لم يلتق هو بحبيبته :

فيا رب ان لم تقضها لي فلا تدع
قذور لهم واقبض قذور كما هيا
ويا ليت ان الله ان لم ألاقها
قضى بين كل اثنين أن لا تلاقيا

ربما لا تكون صورة جميلة للحب · ولكنها صورة اكيدة من صور الحب ·

فلنر غيرها اذن ·· سنرى صورة نقيضة تماما :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن
عليك شجا في الحلق حين تبين
وان هي اعطتك الليان فانها
لغيرك من خلانها ستلين
وان حلفت لا ينقض النأي عهدها
فليس لمخضوب البنان يمين

هذا رجل لا يؤمن بالحب ، ويعتبره نزوة ساعة · نعم : هو نقيض من يمد همومه في الحب حتى وراء موته ·

وبعد ، اليس في موكبنا من تبدو مشكلته في الحب اليفة ومعقولة ؟

صورة الحب غير المنجز لانه اختلج في وجدان دون الاخر ، أو لان احد الطرفين تخلى عن قضية الحب لسبب بعينه · فلنسمع للشاعر المهجور قائلا :

اما الذي ابكي واضحك والذي
أمات واحيا والذي امره الامر
لقد تركتني احسد الوحش أن ارى
أليفين منها لا يروعهما الذعر

يقسم انها اذا هجرته تركته يحسد اليفين من الوحش محبين • فلم هجرته ؟

هذا لم يبسط قضيته كاملة بل اشار اليه ، اما رفيق له اخر فعرض كامل الاشكال في حبه :

أبعد الذي قد لج تتخذينني
عدوا وقد جرعتني السم منقعا
وشفعت من يبغي علي ولم اكن
لارجع من يبغي عليك مشفعا
فقالت وما همت برجع جوابنا
بل انت أبيت الدهر الا تضرعا
فقلت لها ما كنت أول ذي هوى
تحمل حملا فادحا فتوجعا

هذه مشكلة انسانية معقولة • يلومها على ان هجرته وقد جرعته السم ، وان في جوابها لوجاهة بينة لان الشاعر ظل مترددا متضرعا حتى استحق احتقارها • وهو يبرر الامر بان حمله من الحب ثقيل وطبيعي ان يتوجع اذن •

فلندعهم دون ان نحكم على حجة اي منهم • فالهجر قد تم وسيان ابدت ذريعة هذا ام ذاك هي الاحق ، ماذا بعد هجر طرف لاخر ؟

وقف الهوى بي حيث انت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم
اجد الملامة في هواك لذيذة
حبا لذكراك فليلمني اللوم
أشبهت اعدائي فصرت أحبهم
اذ كان حظي منك حظي منهم
واهنتني فاهنت نفسي صاغرا
ما من يهون عليك ممن اكرم

هجرته فقبل الهجر لا بأس • اما ان يهين نفسه حين اهانته ويعلل الامر بأنه لا يكرم من لا تكرمه هي • حتى وان كان المهان هو نفسه فهذا مما لا يفهم •

هوذا صوت مخالف :

فانـــي لــو تخـالفنـــي شمـالـــي
خـلافـك مـــا وصلـــت بهـا يمينـــي
اذن لقطعتهـــا ولقلـــت بينـــي
كـذلـــك اجتـــوي مـــن يجتـــوينـــي

يقطع يده لو خالفته كما الحبيبة تخالف ، ولكنه يلمح بالوعيد ولا يصرخ :

ان كـــان هـــذا منـــك حقـــا فـانـنـــي
مـداوي الـــذي بينـــي وبينـك بالهجـر
ومنصـرف عنـــك انصـراف ابـــن حـرة
طـــوى وده والطـــي ابقـــى من النشـر

صور متناقضة لمحبين متناقضين . ولكن اين نلتقي بجوهر الحب في الرحلة التي دعوناك اليها ؟ تعدد الصور وتناقضها لا ينفي الجوهر وفي رحلة قصيرة كهذه لا بد ان نغفلَ اكثر مما نظهر . صور الفراق في شعرنا العربي مثلا لم يتح لنا ان نقدم ايا منها . صورة الرقباء الذين يسمون اليوم بالعذال ما اشرنا اليهم .

انها رحلة قصيرة .. فاين نقف ؟

احب ان اقف عند صورة غريبة خاصة عن الحب واظن انهـا جوهر فريـد :

فـان تمنعـــوا ليلـى وحســن حـديثهـا
فلـن تمنعـوا عنـي البكـا والقـوافيـا
فهـــلا منعتـــم اذ منعتـــم حـديثهـا
خيـالا يـوافينـي علـى النـأي هـاديـا

اشواق ابن عربي

الخفقة الاولى في الشوق هي الهاجس ! وسوف نرى في رحلتنا الشعرية كيف تتضاعف دوائر هذه الخفقة حتى تصبح خضما لا نهاية له :

سـلام علـى سلمـى ومـن حل بالحمى
وحـق لمثلـي رقـة أن يسلمـا
ومـاذا عليهـا ان تـرد تحيـة علينـا
ولكـن لا احتكـام الـى الـدمـى
سـروا وظـلام الليـل ارخـى سـدولـه
فقلـت لهـا صبـا غـريبـا متيمـا

وقالت :

اما يكفيه اني بقلبه يشاهدني في كل وقت · أما · أما ؟

«من سلمى؟ واي حمى؟ وكيف يكون محي الدين صبا متيما ؟»
هذا ما تداولته الالسن بحدة ، وثارت ثائرة الفقهاء خصوصا في حلب ·

هل ابن عربي عاشق ؟

وجاء جواب محي الدين بذلك الشرح العجيب لديوانه والذي لا يتسع المقام حتى لاجتزاء الشافي منه · جاء الشرح الذي دافع الشيخ به عن نفسه وقال :

ان كل اشارة عشق وكل اسم صبوة انما تجيء جميعا تكنية عن العشق الالهي :

تملكنـي وتملكتـه
فكـل لصاحبـه قـد ملـك
فكـونـي ملكـا لـه بـين
وملكـي لـه قـولـه « هيـت لك » ·

في البيتين اشارة واضحة لقصة زليخة مع يوسف · ولكن

الابعاد التي يكشف عنها البيتان عجيبة وفذة · فبندائها « هيت لك » يكون قد امتلكها ، وبانتباهة الى النداء تكون قد ملكتـه ·

هذا من ظاهر البيتين ، اما الشرح الباطني فيشير الى العشق المتبادل بين الذات القديمة والذات المخلوقة :

يقولون صبرا والاسى غير صابر
فما حيلتي والصبر عني بمعزل
فلو كان لي صبر وكنت بحكمة
لما صبرت نفسي فكيف وليس لي

وهكذا تذهب ارجوحة الشوق أبعد فابعد · ليس فقط انه لا يستطيع صبرا ، بل حتى لو اعطي قابلية الصبر لرفضها ، فالشوق حكم جميل :

كل سوء في هواهم حسنا   وعذابي برضاهم عذبا

ولذلك هو لا يود ان يعطي قابلية الصبر فعذاب هذا الشوق عذب مع ان الامر شاق كالموت :

تصد جدا وتلهو بالهوى لعبا   والموت ما بين ذاك الجد واللعب

فكيف هي على لسان ابن عربي ؟

ان سرت في الضمير يجرحها   ذلك الوهم كيف بالصبر

انها ما تزال احجية · فقد تكون فتاة ونسبة الرقة الاثيرية اليها من قبيل مجاز الشعر · وقد تكون حقا هي الذات القديمة ، وتكون الكلمات قرابين عبادة ·

وماذا عنها بعد ؟

فكل خراب بها عامر
وكل سراب بها غادق
وكل رياض بها زاهر
وكل شراب بها رائق
فليلي من وجهها مشرق
ويومي من شعرها غاسق

لقد فلقت حبة القلب اذ
رماها باسهمها الغالق
يفوح الندى لدى ذكرها
فكل لسان بها ناطق

وما تزيدها هذه الصفات الا غموضا على غموض ‥ وابن عربي نفسه لم يشأ أن يكشف حجاب الغموض عن ديوانه فقد قدم له بمقدمة غريبة حقا ٠

فاشار الى فتاة عرفها ووصفها بكلماته كالتالي :

« من العابدات العالمات ٠ ساحرة الطرف ٠ ان اسهبت اتعبت ٠ وان اوجزت اعجزت ‥ » ثم انثنى في المقدمة يهاجم الذين زعموا انه يتشوق شوقا انسانيا ، وكنى بتلك الالغاز والرموز ٠

ولنعد الى ترجمان الاشواق :

اقول من وجد ومن لوعة
يا ليت من أمرضني مرضا
مر بباب الدار مستهزئا
مستخفيا معتجرا معرضا
ما ضرني تعجيره انما
أضر بي من كونه أعرضا

فاذا قيل للشيخ : كيف تفسر هذا ؟

يقول لك : اقرأ في القرآن الكريم « الله يستهزىء بهم » ٠
واذا قلت له : ولكنك العالم الجليل !

يقول لك : لا بد من صفات تكون في القلب وتجعل كل بشر جديرا بالاستهزاء في حال معينة ٠

ونمضي قدما :

بأبي من ذبت فيه كمدا
بأبي من مت منه فرقا

من لبثي ؟ من لوجدي ؟ دلني
من لحزني ؟ من لصب عشقا
كلما صنت تباريح الهوى
فضح الدمع الجوى والارقا
فاذا قلت : هبوا لي نظرة
قيل ما نمنع الا شفقا
ما عسى تغنيك منهم نظرة
هي الا لمح برق برقا

وهنا يستعين محي الدين في شرحه بالفكرة الجليلة عن الذات الازلية الابدية التي لا تدركها الابصار والله اعلم بمراده ·

ولا نطمح ابدا في ان نقول كلمة فصلا في ديوانه ترجمان الاشواق · فليس ثمة كلمة فصل فيما يتعلق بكل حياة محي الدين بن عربي ونتاجه الفكري والادبي الذي جاوز مئتي كتاب ·

كان ابن عربي معجبا اشد الاعجاب ببيت من الشعر يقول :
كل الذي يرجو نوالك أمطروا ما كان برقك خلبا الا معي
وبلغ افتتانه بالبيت ان نظم قصيدة على ذات الوزن والروي، وهي قصيدة مربكة حقا يقول مضمنا البيت :

كل الذي يرجو وصالك أمطروا
ما كان برقك خلبا الا معي
قالت : نعم قد كان ذاك الملتقى
في ظل أفناني بأخصب موضع
اذ كان برقي من بروق مباسم
واليوم برقي لمع هذا اليرمع

(واليرمع حجر براق) ·

فهي تعتذر لطيف الاعتذار عن انها امطرت غيره ومنعته · تقول له انني انا نفسي اصبحت حجرا ففيم ذاك :

فاعتب زمانا ما لنا من حيلة في دفعه ما ذنب منزل لعلع ؟

ان تجارب الزمان القاهرة ضغطت قلبها فصيرته حجرا ، وان كان يلوم فليلم تصاريف الدهر :

فعذرتها لما سمعت كلامها   تشكو كما اشكو بقلب موجع

وحتى لهذه القصيدة وضع ابن عربي تفسيرا مناسبا يحيد بها عن دلالتها الجلية الى دلالات باطنية مزورة ٠

وسيان افهمنا ديوان ترجمان الاشواق على ظاهره الواضح ام تبعنا التفسيرات التي هي احجيات تطلب تفسيرا ٠

سيان ، فالشوق هو الشوق عند ابن عربي هدف بحد ذاته ٠ انه حتى لا يريد ان يجد صبرا عن الشوق :

يقولون صبرا والاسى غير صابر
فما حيلتي والصبر عني بمعزل
فلو كان لي صبر وكنت بحكمة
لما صبرت نفسي ، فكيف وليس لي ؟

ـ غيمـة فـي بنطال ـ
للشاعر فلاديمير ماياكوفسكي

سبعة وثلاثين عاما عاشها ماياكوفسكي على هذه الارض ، لينهي حياته بيده عام ١٩٣٠ منتحرا وهو في اوج شبابه ٠

ولسوف نرى في المقاطع التي نعرضها من قصيدته (غيمـة في بنطال) ان فلاديمير شأن كل الشعراء الكبار كان صوتا متفردا ٠

ان قصيدته هذه هي واحدة من اعماله الاساسية ، رغم انـه كتبها وهو في الثانية والعشرين من عمره ٠ وهي مزيج متشابـك من رؤاه في الحب ، والادب ، والناس ، وهو في كل رؤيا شاعر حتى العظم ، متوثب مليء بالشباب والحماسة ثائر على اشعار السلف الرومانسية بكل ما تتصف مـن مشاعـر الشفقـة على الـذات واستجلاب بهجة الاحزان ٠ ولكن هذا لا يجب ان يختلط علينا ومـا تحمل اشعار مايكوفسكي من قلق والم ٠

الفارق بين رومانسية سابقـي مايكوفسكـي ومستقبليتـه واضـح من الاتجاه الذي يحرك فلاديمير فيه عواطفه ٠ ان قلقه وألمه قد غذيا من خلال قصائده حب الحياة وسعادتها ٠

« غيمة في بنطال » ٠

ليست الغيمة الا الشاعر نفسه ، الصوت الذي نسمعه فـي مستهل القصيدة يقـول :

« ليست في روحي شعرة واحدة شائبة
ولا فيه حنو الشيـوخ ،
اهز العالم بجبروت صوتـي
وامشي وسيمـا
ابنَ اثنين وعشرين عاما » ٠

غير ان هذا الصوت الذي يهز العالم او هكذا يعتقد سرعان

ما يضطـرب :
« تظنها الملاريا تجعلني أهذي
هذا مـا حـدث
في اوديسا حدث
سآتي في الرابعة : قالت ماريا
الثامنـة
التاسعـة
العاشـرة
أعرض المساء عن النوافذ
وغاص في الليل الكئيب
مقطبا مثل كانون » ·

يظل الشاعر ينتظر ماريا التي لا تأتي ينتظرها تحت المطر حتى تدق الساعة منتصف الليل :

« مرة بعد مـرة
ادفن وجهي في وجه المطر المنقر
وانتظر · ترشقني مياه المدينة المرعدة
فجأة صفـق الباب
وكأن اسنان الفندق تصطك ، ودخلت بفظاظة
وقلت وانت تنشبين اظافرك في القفاز الجلـدي
اتعرف : سأتـزوج ·
حسن تزوجـي
استطيع تحمـل ذلك
ترين مقدار هدوئي
كنبض جثـة
تـذكـرين ؟
كنت تقولين : جاك لندن ، المال ، الحب ، الهوى ،
لكننـي ··
شيئا واحدا رأيت
انت جيوكندا لا بد ان تسرق
وسرقت » ·

سرقت منه لوحته الجميلة وفي مقطـع لاحـق يصبح صوته حزينا ويتصل بامه هاتفيا :

« هالو ؟ من المتكلم ؟
ماما ماما
ابنك مريض بروعة ٠
مـامـا
مصاب بنار في القلـب
اخبري اختيه ليودا وادليا
ان ليس له ملجأ يفـيء اليه » ٠

ما أبعد البون النفسي بين مطلع القصيدة حين يهتف الشاعر ان ليس في روحه شعرة شائبة ويتغنى مختالا بشبابه وبوسامته وبين هذا الصوت الكابي المستجير بامه واختيه ٠

مثل طفل مخذول ٠ غير ان الشاعر سرعان ما يفاجئك فـي المقطع الثاني وقد استعاد قوته مضاعفة :

« مجدونـي
ليس العظماء باندادي
على كـل ما حـدث
أقفل خاتما من العـدم
لا أبتغي ابـدا
ان اقرأ أي شـيء
الكتـب ؟
ما الكتـب ؟ » ٠

وهنا يعرض الشاعر في غضب عنيف لماذا لا يريد قـراءة كتب الرومانسيين ويصب جام غضبه على الشاعر « غوته » ويتغنى بالاناس البسطاء :

« ان الشمس ستعتم
ان رأت
حقول ارواحنا الذهبية » ٠

هؤلاء الناس ذوو الوجوه المتسخة والارواح الذهبية ـ الناس

البسطاء العاملون ـ هم الذين يعنون فلاديمير ٠ انه واثق ببساطة من رسالته الجديدة في الادب :

« عنكم ايها المنقوعون في الحب
والذين يسيل دمعكم عبر القرون
سأبتعد عنكم
واضعا الشمس نظارة مفردة
في عيني الفاغرة » ٠

وبعد ان تستنفد طاقته الغضب الذي اجتاحه ويعرض عرضا شعريا عنيفا تصوره لمهمة الشعر ٠ يكسر صوته بغتة :

« ماريا ماريا ماريا
دعيني ادخل يا ماريا
لا استطيع ان اتحمل الشوارع » ٠

نراه ثانية في الشارع تحت المطر ، السيارات تطفر من حوله وهو في اقصى حالات العذاب :

« امنحيني روعة شفتيك المزهرة ابدا
انا وقلبي لم نعش حتى ايار ابدا
وفيما قضيت من حياتي
ليس من نيسان الا واحد من مئة » ٠

وعوضا عن الغضب الذي صب على رؤوس الشعراء الذين لا يهتمون بهموم الجائعين ، نجده هنا في الهم الانساني المتعلق بالحب رقيقا مندهشا امام هذا الهم لدرجة التمني ان يكون لكل انسان حبيبة مثل اليدين والعينين ٠ ثم يطفر غضبه مجددا ، التفت الى المذابح فهالته :

« لقد قطعوا رؤوس النجوم من جديد
ولوثوا السماء بدم المذابح » ٠
وفي اخر فقرة يقول :

« صمم
الكون نائم
واضعا اذنه الضخمة على
كفه ذات المخالب من نجوم » ٠

في هذه القصيدة يتسلل الشعور الفردي لينفجر ضمن الهم الجماعي ، هم الجوع والحب ٠ كل ذلك ضمن رغبة محترمة لحياة اجمل واروع ٠

صحيح ان القصيدة مليئة بالغضب ينبثق هنا وهناك مباغتا وعنيفا ولكنها تخلو من الشعور بالحقد ٠ بل ان الشاعر يقول ببساطة وصدق :

لكنكم ٠٠ ايها الناس جميعا
وحتى اولئك الذين اساؤوا الي
اعز علي ٠٠ اغلى من كل شيء » ٠

لقد حمل ماياكوفسكي مشاعر الناس جميعا في قلبه وعصرها في صوته الشعري العظيم ٠

ولكننا سنلتقي به بعد خمسة عشر عاما من القصيدة ، يطلق الرصاص على نفسه ، مخلفا وصية قصيرة ، بضع كلمات حزينة تتحدث عن :

(زورق الحب الذي تحطم على صخور الحياة اليومية ، ورجاء لامه الا تبكي وللناس الا يتقولوا عليه) ٠

ما هي الخطوط التي نسجت فاجعة نهايته ؟ هل تعاظم لديه الشعور بأن الكون اصم كما اعلن في ختام قصيدته (غيمة في بنطال) ؟ ام فاجعة حب كما قيل ؟

يظل الجواب معلقا في سجف المجهول ٠

ـ الشاعر الاسباني
غوستاف ادولف بيكر ـ

« اعرف نشيدا ضخما غريبا
ينبىء في ليل الروح عن فجر » ٠
وهذه الصفحات هي الحان من هذا النشيد
ينشرها الهواء في الظـلال ٠

احب ان اكتب هذا النشيد
مـروضا في الانسان
اللغة المتمردة واللغة الفقيرة
بكلمات تكون في ذات الوقت
تنهدات وضحكات ، الوانا والحانا ٠

ولكن الكفاح لا يجدي ، اذ لا توجد الفاظ
قادرة على استيعاب النشيد
وبالكاد استطيع يا جميلتي
اذا امسكت بيدي يديك ، ان اغني لك وحدك » ٠

ولد بيكر عام ١٨٣٦ ومات عام ١٨٧٠ ، عن اربعة وثلاثين عاما ٠ تلك الحياة القصيرة مرت في العالم كنيزك احترق بنار الرغبة المتشوقة الى الابدية ٠

كل ما ترك بيكر من اثار شعرية ديوان اسماه (قصائد) يتضمن تسعا وسبعين قصيدة بعضها لا يتجاوز الخمسة سطور ، ومع ذلك تظل مكانة بيكر في الشعر الاسباني بارزة وخاصة ٠

اشعار بيكر ذاتية الى حد بعيد ولكنها لا تفتقر الى النزعة الانسانية ٠ انه ابدا يحلم بمثل هذا النشيد ينبىء عن فجر من خلال ليل الروح القاتم ٠ انه يؤمن بالجمال والشعر والحب رغم انه اعطى القليل جدا من الحظ ليستمتع بهذه او تلك :

« لا تقل ان القيثارة صمتت
بعد أن جفت كنوزهـا

لأنها لم تعد تجد نغمة تعزفها
قد لا يوجد شعـراء
ولكن الشعر سيوجد دائما ٠

كان بيكر طفلا حالما ، نزح من اشبيلية الى مدريد في سـن مبكرة مؤملا ان يجد في المدينة الكبيرة فرصة ليكون شاعرا كبيرا ٠ على أن قصائده الهادئة والعميقة على بساطتها ظلت تمر دون أن يشعر بها احد بين شعر القرن التاسع عشر الاسباني المتألق الفخم ٠ وعاش سنوات من الضيق والفقر ، يحصل قوته بصعوبة فائقة اذ عمل مترجما ومنشىء مقالات في الصحف ٠ وما لبث أن أصيب بالسل ، فقام برحلة طاف بها عددا من المدن الاسبانية ٠ ثم تزوج ، ولم يهبه الزواج غير مزيد من الشقاء :

« انني اسير ضد مصلحتي
بأن افكر مثلما تفكرين يا حبيبتي ٠
ان اية قصيدة لا تكون جيدة
الا اذا كتبت على ظهر ورقة مصرفية ٠
انك تعلمين كما اعلم
بأن الشعراء الملهمين نادرون
أما بالذهب ، فبوسع أي انسان ان يصنع الشعر » ٠

بمثل هذه اللهجة الساخرة المريرة يقابل بيكر خيبة نفسه وهو يرى القيمة الرفيعة التي يؤمن بها تمتهن امام اختبار الواقع المادي المؤسف :

« لم أعجب من نسيانك لي
لان ما في ذاتي من شيء ثمين
حتـى ان تشعري به » ٠

كان يخاطب امرأة معينة ولكنه في الوقت ذاته كان يضـع حدا فاصلا ما بين صبوات نفسه الشاعرية وبـين عصره الذي رفضه في حياته وعاد يهتم به ويبرزه بعد مماته ٠

- مع الشاعر الفرنسي لامارتين -

ولد لامارتين عــام ١٧٩٠ اي في العام التالــي لوقوع الثــورة الفرنسية ، في كنف اسرة متوسطة ذات سمعة شريفة ومتدينة . فكانت لنشأته الدينية اثر كبير في حياته الفنية والسياسية . فقد تركت على اشعاره طابعا من الزهــد والاســف . ولونت مواقفــه السياسية برغبات مثالية فكانت دعوته الدائمة : الحق والعدل . وكان كثيرا ما يختلف مع كل القوى المتعارضة ويبدو فريدا فــي موقفــه .

كذلك فان لثقافته الواسعة اثرا كبيرا في توسيع آفاقه الفكرية والروحية . فقد درس اللاتينية وهضم قصائد هوراس واطلع على اداب هوميروس وهسيود بالاضافة الى انه اتقن الانجليزية وقــرأ شكسبير وبوب ، وكذلك عالج الايطاليــة وقــرأ مؤلفات بتراك . يضيق المقام والحصر عن تعداد المؤثرات التي تركت طابعها على شعر لامارتين ومما لا شك فيه ان خلفية تلك المؤثرات تكمن فــي المرحلة العامة التاريخية التي كانت تعيشها اوربا كلها وفــرنسا بشكل خاص . فقد فتحت الثورة الفرنسية الباب على مصراعيه لسلسلة من التحولات السريعة والعنيفة .

واختلطت لدى لامارتين رغبة الاصلاح المطلق (تلك التــي تتسم بها جميع الاشعار الرومانتيكية) مع النفور مــن مظاهــر العنف وقسوته . بالاضافة الى سلسلة مــن العوامل الفردية مــن اهمها هيام لامارتين بالطبيعة والتجوال وميله العاطفي الجامــح فيما يتعلق بالمرأة . ومن اهم قصائده التي كتبت للمرأة القصيدة الشهيرة (البحيرة) تلك التي كتبها من اجل (الفير) وقد توفيت شابة .

في عــام ١٨٢٠ عــين لامارتــين في السلــك الدبلوماسي ملحقا بالسفارة الفرنسية في نابولي مبتدئا بذلــك حياته العملية فــي الخدمة العامة . وقد تنقل بين عدد من الدول الاوربية بحكم عمله واتيح له ان يطلع على عظمة فنونها وادابها بالاضافة الى تحسسه

لحركة الشعوب الاوربيــة وتفتــح آفاقهــا السياسيــة المصطحب باضطراب الاحوال العامة ٠ هذا الاضطراب الذي آل به عام ١٨٣٠ بعد نشوب الثورة مجددا ان يستقيل من عمله ويبحر الى الشرق حيث زار سوريا ولبنان وفلسطــين واطلــع علــى معالــم الحضارة الاسلامية وفلسفة الشرق وقد تركت هذه المرحلة ايضا اثارا هامة على تفكيره وشعوره ٠ وحين عاد الى بلاده انتخب نائبا ووضــع عددا من المؤلفات السياسية والاجتماعية كــان مــن خلالها رجــل المبادىء القوي فنال شعبية قوية لدرجة انه نال مليونا وستمئــة الف صوت حين جدد انتخابه في الجمعية التأسيسية عام ١٨٤٩ ٠

ومن عام ١٨٤٩ حتى عــام ١٨٥٢ كــان لامارتين يعيش اخر فترة مزدهرة من حياته ٠ اذ من بعدها بدأت شيخوخته الطويلة المؤلمة فقد نكب في ثروته لانه لم يحسب حسابا قط للمال بل وضعه فــي خدمة ارائه ٠ حتى لقد تجاوزت ديونه خمســة ملايــين فرنك ٠ واصبحت شواغله منذ ذلك الحين هي شواغل القروض والاستحقاقات فحاول تفادي شبح الافلاس بطرح مؤلفاته الفنية للبيع ٠ ومن بينها كتبه : (تاريخ الاصلاح) ، (تاريخ المؤلفات) ، (تراجم السير) ، (السير الاجتماعي للادب) ٠

اذن فقد كرس لامارتين نفسه لانجاز هذه الاعمــال الادبيــة الشاقة باحثا في الوقت ذاته عن كسب عيشه وعن اداء رسالتــه النبيلة لمصلحة شعبه ٠ وقد كرمته بلاده اخيرا بأن خصصت لــه معاشا سنويا قدره ٢٥ الف فرنك سنويــا كمكافــأة وطنيــة لقاء خدماته فذاق في اخريات حياته بعض الراحة والامان حتى توفــي عام ١٨٦٩ ٠

ـ البلد البعيد ـ

للشاعر الالماني الخالد : غوته

مرحبا بكم في رحلتنا الشعرية على جناح النور نمضي مع غوته الى البلد البعيد :

« هل تعرف البلد البعيد حيث يزدهر الليمون

وفي عتمة الاغصان تتوهج البرتقالات الذهبية والريح الناعمة تنحدر من السماء الزرقاء ·

هناك

حيث الريحانه الساكنة
وشجرة الغار العالية
هل تعرف البلد البعيد ؟

الى هناك
الى هناك
أود أن أمضي معك يا حبيبي » ·

قال الشاعر كلماته واختلف الشراح من بعده · فاي بلد بعيد هذا الذي تطلب الفتاة « مينون » ان ترحل اليه مع حبيبها ·

قيل ان هذا البلد البعيد هو ايطاليا بالذات ، وان غوته عبر عن اشواقه الشخصية على لسان الفتاة الصغيرة « مينون » ·

الم يهرب غوته ذات صباح من فيافي الضباب الالمانية الى ارض الشمس الجنوبية ؟ الم تكن حياته قلقا متجددا وحنينا الى السفر بكل اشكاله ؟

ولكن لنترك الشراح قليلا ونعود الى صديقتنا « مينون » :

« هل تعرف البيت المقام على أعمدة
القاعة تلتمع والمخدع يتألق
وتماثيل المرمر تقف هناك وتنظر الي قائلة :
ماذا فعلوا بك يا طفلتي المسكينة ؟
اتعرف البلد البعيد حقا !؟
الى هناك ٠٠ الى هناك
اود ان اذهب معك يا من ترعاني » ٠

الفتاة المعذبة تسأل حبيبها وراعيها : هل تعرف البيت ، فأيّ بيت هو يا ترى ؟ أبيت كسائر بيوت الناس ؟ عجبا ولكن بيت مينون أو غوته فريد عجيب يقوم على اعمدة ردهته تلمع منيرة والمخدع يتألق ، واخيرا هذه العمدان المرمرية المسحورة واقفة هناك تنظر مينون التعسة وتسألها باشفاق :

« ماذا فعلوا بك يا طفلتي المسكينة ؟ » ٠

اي بيت هذا الذي تتكلم فيه تماثيل المرمر ، ويضيء فيه كل شيء ، وتسكن كل حركة كأنما يغمره هدوء الابد والخلود ؟ هل يمكن ان يكون بيتا يزوره الانسان ويلح على زيارته ؟ وماذا يفعل هناك وكل شيء يتألق بنور كأنما لم يخلق لعيون البشر وتغلفه اسرار لا يقوى عليها البشر ٠

وهذه التماثيل المرمرية ما الذي جعلها تقف كأنما تنتظر المسكينة لا لتضمها وترعاها وتتعهد شبابها ٠ بلّ لتسألها السؤال الاخير الذي يلوح كأن لا جواب عليه :

ماذا فعلوا بك يا طفلتي المسكينة ؟

هؤلاء الذين فعلوا بها ما فعلوا ٠ هؤلاء الذين ظلموها هذا الظلم الذي حرك حتى تماثيل المرمر ٠ اين هم ، وهل يمكن ان يكونوا مخلوقات منتمية الى العالم نفسه الذي تقف فيه هذه التماثيل ؟ هناك حيث النور الغامر وحيث التماثيلُ الصامتة تشفق على الطفلة المسكينة وتسأل عن الظلم الذي احاق بها ٠

في اي مكان يكون هذا البيت ؟ في ايطاليا ؟ ام هو بيت رمزي يقع خلف كل البيوت ووراء كل العوالم ؟ ومرة اخرى لنترك هـذه الاسئلة معلقة ولنعد ثانية الى مينون لعلها ترشدنا اكثر الى ذلك البلد البعيد :

« هل تعرف الجبل ودربه الملتف بالسحاب
الدابة تبحث عن طريقها وسط الضباب
وفي الكهوف يختفي أحفاد التنين المردة
الصخـر يهـوي

وخلفه ينقض الطوفان

أتعرفه حقـا ؟
الى هناك يمضي طريقنا
ايها الاب ٠ هلم نرحل ؟ » ٠

نحن نرتجف امام رؤياك يا مينون ٠ نحن نعلم ان البلد البعيد ليس ايطاليا ولا هو اية بقعة محدودة على الارض ٠

الصخر يهوي هناك والطوفان ينقض من خلفه وانت بعـد تهيبين بالأب ان يستعد للارتحال ٠

نسيت البيت المضاء والاعمدة المرمرية والمخدع المتألق ورأيت كهوفا يسكنها احفاد التنين المتربص ومع ذلك تنشدين الرحيل ٠

البلد البعيد هو قطعة من مصير يتهددنا اذن يا مينون ٠

قد يلوح قدرا مفزعا يثير الرعشة والارتجاف ٠ ولكن فقط هناك في البلـد البعيـد توجـد التماثيـل المشفقـة التـي تسأل « ماذا فعلوا بك يا طفلتي المسكينة ٠٠ »

انه حنين غوته المغلف بالاسرار الى عالم يصعب استكناهه بالعقل ٠ انه الشوق الذي نلمحه في قصيدة اخرى له حيث يقول :

« انت ٠٠ يا من تأتي من السماء
وتسكن كـل العذاب والالـم

وتملأ قلب من تضاعفت تعاسته
بالسرور المضاعف
آه ٠٠ لقد تعبت من الترحال
ما معنى الالم كلـه والسرور كله
ايها السلام العذب
تعال ٠٠ آه ٠٠ تعال الى صدري » ٠

هذا السلام المنشود لا يلوح على الارض الا لومضة لحظـة ٠ برق رؤيا وقد رآه غوته ذات مرة :

« فوق كل القمم
هـــدوء ٠
على اعالي الاشجـار
لا تكاد تحس نفسا واحدا
الطيور الصغيرة صامتة في الغابة
فانتظـــر
فقط ٠٠ انتظـر
انت ايضا سوف تستريح » ٠

حول مسألة الايمان في شعر اليوت

في هذه الدراسة الوجيزة نحاول ان نلقي الضوء على مسألة واحدة من عشرات المسائل التي يطرحها شعر اليوت ، وهـي المسألة الدينية او المشار اليها في العنوان على انها الايمان .

فمن المألوف ان يشار الى اليوت على انه بدأ قصائده الاولى متشككا عقيم الروح ، وأنه انتهى مؤمنا . والحقيقة ان اليـوت قد دعم هذه الفكرة بتصريحه الثلاثي الفروع وذلك بعد ان تخلى عن جنسيته الامريكية والحق بالجنسية الانكليزية وصرح بأنه :

« انكلو كاثوليكي في الدين .
كلاسيكي في الادب .
ملكي في السياسة » .

فنحن نعالج الآن بايجاز الفرع الاول من تصريحه : الكثلكـة او الايمان . ومن اجل ذلك نبدأ مشيرين الى المرحلة التي يصفها النقاد بمرحلة العقم والتي تتمثل بشكل اساسي فـي قصائده الشهيرة : اغنية الى العاشق بروفروك . والرجال الجوف ، والارض اليباب .

يقول اليوت في قصيدته الاولى : اغنية الى العاشق بروفروك .

« لنذهبن انا وانت
عندما يسجي المساء فوق الفضاء
كأنه عليل في غرفة العمليات » .

أهذه بداية الرحلة التي يدعو اليها اليوت ؟ ولكن عبر ايّ طرقات والى اين ؟

« الـــى
شوارع تمتد كجدل ممل
جدل مخـادع

يقودك الى سؤال ملجم
لا ‥ لا تسلني ما هو » ٠

اليست رحلة عقيمة ذات لون رمادي ٠ الا نتوقع من الشعر خصوبة وثراء الوان ؟ الا يجدر بالشعر ان يوقظ بأنامله اعماق الانسان ٠

ندر ان يرى الشعر بعينه المتميزة وعلى نوره الخاص ، ولكن الحضارة الغربية بأجمعها رأت في اليوت رأس هرم الشعر فأعطته جائزة نوبل بل واحتفاء يفوق بمسافات أية جائزة ٠

فلا بد ان اليوت عبر عن حقائق كبرى كامنة في نفس حضارة الغرب ٠ ماذا يقول لهؤلاء الذين سموا به الى القمة ؟
يقول من داخلهم :

« نحن الرجال الجوف
نحن الرجال المحشوون
يتكيء احدنا على الآخر
كحشية ملأى بالقش ٠ فواضيعتاه
وحين نتهامس
تسمع اصواتنا خافتة لا معنى لها
كريح تعبر اعشابا جافة
او كوقع اقدام فئران على شظايا زجاج مهشم » ٠

الخواء ، القتامة ، الشعور بثقل الحياة وبعدم جدواها ، من هنا يبدأ اليوت ٠ هل ثمة من اسباب شخصية وراء هذا اليأس ؟

كانت حياة اليوت عادية ليس فيها اي وقع درامي كالذي اقترن بشعراء الرومانسية ٠ حياة هادئة منظمة جدا ، انه مثال للفرد الغربي في حياته ٠

ولذا يمكن اعتباره ممثلا للوجدان العام الغربي ٠ بالتأكيد ولطالما كرر النقاد بأن العقم الذي ظهر في بواكير شعره ، هو عقم النفسية الغربية التي واجهت افلاسها الروحي بشكل سافر

عبر حربين عالميتين • حربان زلزلتا الارض التي يقف عليها الانسان الغربي ووضعتاه امام حقيقة روحية مؤسفة • فكل التقدم الذي انجزه الغرب لم يجعل انسانه قادرا على اذكاء زخم الحياة في روحه بل بالعكس تماما • يتقدم انسان الغرب في علمه وصناعته وفي الوقت ذاته يخسر طعم الحياة وتصبح عبئا على روحه •

ولنأخذ مطلع قصيدة اليوت الشهيرة ارض اليباب :

« نيسان اقسى الشهور
ينبت ليلكا من الارض الميتة
يمزج الذكرى والرغبة • يحرك الجذور الراكدة
بمطر الربيع
بينما كان الشتاء قد دفأنا بثلج النسيان » •

انه يعني الشتاء رمزا للموت ففي ثلوج نسيانه يجد الراحة ويشكو مقدم الربيع لانه يحرك الرغبة في الحياة • وفي قصيدة الرجال الجوف يشكو طول الحياة :

« بين الحبل والخلق
بين العاطفة والاستجابة
يقع الظل
الحياة طويلة جدا » •

ولكن الشاعر يحمل الكلمة • والكلمة روح فلماذا يكتفي بالشكوى ولا يخترق جدار العقم ؟

يجيب اليوت :

« اين ستوجه الكلمة ؟ اين الكلمة ستدوي ؛ ليس هنا • ليس لاولئك السائرين في الظلمة ليل نهار • الوقت المناسب والمكان المناسب ليس ملكا لنا • لا مكان نعمة للذين يتجنبون الله • لا وقت فرح للسائرين بين الضجيج المنكرين الكلمة » •

لا يمكن ان نجد خواء الروح بأجلى مما نجد هنا • وحقا انه

لافلاس كامل • لقد افلت زمام الزمن من يد حضارته • اذن فلم يعد ممكنا ان تغير مصيرها قط •

ويقرر اليوت هذه الحقيقة بشكل ساخر مرير حين يقول :

« سيبقى وقت
وقت للقتل ووقت للولادة
وقت للايدي التي ترفع سؤالا وتضعه في صحنك
وقت لك ، ووقت لي
وهناك وقت لمئات الترددات
لمئات من خيالات ومراجعات
قبل تناول الكعك والشاي » •

فما قيمة توالي الايام والليالي اذن ؟ وما قيمة كل الرفاه الذي حملته حضارة الغرب ؟

يجيب اليوت :

« خبرتها كلها • خبرتها كلها
خبرت الاضاحي ، النيالي ، الامسيات
لقد أكلت حياتي بملاعق القهوة » •

لم يبق احتياج لمزيد من شعر اليوت الدالّ على العقم • يكفي انه اعترف بأنه يكيل حياته بملاعق القهوة •

والان نستطيع أن نشير الى المرحلة الثانية التي عاد فيها اليوت بتصريحه الى حضن الكثلكة ويشير النقاد الى انه اختتم شعره بالايمان ، ووجد خلاصه هناك • هذه مسألة دقيقة جدا • ولنتلمس ملامح الايمان في تلك المرحلة •

تطالعنا هنا قصيدته الشهيرة ـ اربعاء الرماد ـ وهي التي تعتمدها في المعالجة • فهل تمثل اربعاء الرماد روحا مؤمنة ؟ اننا نسمع فيها اصداء من الاستسلام الهادئ للمصير •

« لانني لا آمل في العودة ثانية

لاني لا آمـل
لاني لا آمل في العودة
راغبا عطاء هذا او عون ذاك
لم اعد اجهد ساعيا لاشياء كهذه
فلماذا يمد النسر الهرم جناحيه ؟ » .

ذلك صوت انسان لم يعد يعول اهمية على عطاء الدنيا ولكن الاشارة الى النسر الهرم الذي لا يريد مد جناحيه هي اشارة مشؤومة اذا نظرنا الى القصيدة على انها من روح الايمان كما صنفت عادة . انه استسلام اكثر منه ايمانا ايجابيا . انه استسلام كامل وقبول بالاشياء كما هي عليه ودون رغبة في عمل .

ثم نتابع اشارات سريعة في المقطع الاول :

لاني اعرف قبضة الزمان الذي هو دائما الزمان ذاته
لاني اعرف قبضة المكان الذي هو دائما المكان ذاته
ابتهج لان الاشياء هي على ما هي عليه » .

واين تلقي السفينة مرساتها مع شعر اليوت ؟

« عند شاطيء الضراعة ..
أصلي لله لكي يرحمها
وأصلي لعلي انسى هذه الاشياء
التي كثيرا ما أناقشها مع نفسي
وأعيد تفسيرها
لاني لا آمل في العودة ثانية

ولتتحمل هذه الكلمات تبعة ما كان ، كيما يتكرر ثانية
وليكن حكم القضاء غير شديد علينا » .

واريد القول عند هذا الحد بان من يقرأ شعر الصوفية المسلمين - رابعة مثلا او ابن الفارض .. الخ يلمح دون جهد فارقا هائلا بين عصفور الايمان الذي يسرع نحو الذات الالهية وبين النسر الهرم الذي لا يود ان يمد جناحيه . فمثل هذا النسر وان عبر عن الاستسلام للمشيئة لم يغادر حدود هذه الارض ولم يخترق الـروح .

ان اربعاء الرماد تصور موت الروح اكثر مما تشير الى قدرتها على الحياة :

« لأن هذه الاجنحة لم تعد اجنحة للتحليق
بل مراوح تصفق في الهواء

نعم ، هكذا يستشعر اليوت وجوده الانساني لذلك فان صلاته لله تتوجه طالبة الانتهاء فقط ·

علمنا ان نكترث وألا نكترث
صل من اجلنا ، نحن الخطاة
الآن وفي ساعة موتنا » ·

وشتان ما بين هذه الروح التي تريد فقط ان تنتهي بهدوء وما بين ما تمثله رابعة بقولها :

« أحبك حبين : حب الهوى
وحبا لانك اهل لذاكا »

ان هذا الفارق لا يحتاج لكثير تمحيص حتى يبان للمرء · فالكلمة باعتبارها الروح لم تكن لتجد مكانا في الحضارة التي رآها اليوت وهو يقول ببساطة كما سبق وشرحنا :

« اين الكلمة ستوجد
أين الكلمة ستدوي
ليس هنا ·· » ·

واخلص من هذا الى ان شعر اليوت لا يحمل فرح الايمان ولكن يمثل الاستسلام للمشيئة التي تسألها النهاية فقط ·

ان افتراض مرحلة ايمان في شعره لا يخلو من التعسف · ان شعر اليوت وان بدت نغمة الصلاة في اغواره لهو نسيج واحد من روح تتحسس عقمها ونهايتها · ويكفي ان نشير الى هذه المقاطع التي اقتطفناها من قصيدة اربعاء الرماد ونقارنها بخاتمة قصيدته الرجال الجوف التي تصنف من المرحلة المتشككة :

« هكذا ينتهي العالم
هكذا ينتهي العالم
هكذا ينتهي العالم
لا بخبطة عنيفة
بل بأنين » ٠

ان هذه الخاتمة قد تضاف الى قصيدة اربعاء الرماد فتبدو طبيعية جدا ٠ وان ما سمي بمرحلتين في شعر اليوت قد نلخصه بعبارة واحدة :

هناك شعر هجاء لحضارة الغرب ، وقصائد لاحقة مستسلمة للنهاية ٠

لا يوجد ايمان في شعر اليوت ، وذلك ببساطة لان اليوت يمثل حضارة فقدت الايمان ٠

وليم شكسبير
وعالمه المسرحي

ولد وليم شكسبير في ابريل عام ١٥٦٤ في مدينة ستراتفورد في مقاطعة يوركشير ، وكان ابوه جون تاجرا يتعامل بالجلود والاصواف والاخشاب ، وكان طموحا تدرج في وظائف البلدية حتى انتخب رئيسا لشيوخ المدينة عندما كان وليم في الخامسة من عمره ٠

ويرجح ان وليم شكسبير دخل المدرسة في سن السابعة ، ولا بد انه تعلم اللاتينية في تلك المدرسة اذ ان الثقافة الواسعة التي تبدو من خلال مسرحياته تنم عن ذلك ٠

لم يدخل وليم شكسبير الجامعة ، ولم يلتحق بوظيفة ، ويبدو ان كارثة ما قد حلت بأسرته عندما بلغ سن التخرج من المدرسة ، ولا يعرف شيء عن كنه هذه الكارثة ٠ الا أن المؤرخين يستدلون عليها من سجلات مجلس المدينة ٠ فقد تغيب ابوه عن حضور جلسات المدينة عشر سنوات وترفق به زملاؤه في المجلس فلم يفصلوه ، ولم يفرضوا عليه الا غرامات طفيفة لتغيبه عن حضور الصلاة يوم الاحد ٠ وكان الحضور اجباريا ٠ وقد اورد جون عذره انه لا يغادر بيته خشية ان يقبض عليه دائنوه ٠ ويرجح انه اذن تعرض لافلاس في تجارته ٠

وتذهب الروايات الى القول ان وليم شكسبير قد اضطرا بسبب هذه الكارثة أن يتقلب في عدة اعمال قيل ان من بينها ، عمل مدرس ريفي ، وعمل مكتبي عند احد المحامين ٠

ورد اسم وليم شكسبير في سجلات الزواج عام ١٥٨٢ ٠ اذن فقد تزوج وهو في الثامنة عشرة من عمره ، وكانت زوجته آن ابنة مزارع تكبر وليم بثمانية اعوام ٠ وقد انجب منها طفلة اسمها سوزانا وهو في التاسعة عشرة ويبدو انه لم يكن سعيدا في ذلك الزواج ٠

في سنة ١٥٨٧ ترك وليم شكسبير اسرته في كنف ابيه وغادر ستراتفورد الى لندن • وكان اذ ذاك في الثالثة والعشرين • ولا بد انه تقلب في العمل بين الفرق المسرحية النشيطة ابان تلك الفترة المزدهرة فنيا من حياة بريطانيا والتي تسمى بالعصر الاليزابيثي •

وهكذا نرى ان القدر من المعلومات المتوافرة لدينا عن حياة وليم شكسبير ، هو قدر بسيط جدا معظمه يعتمد على روايات غير مؤكدة ، أو على سجلات بلدة ستراتفورد في هذه الحادثة او تلك ، مما احاط السيرة الشخصية لهذا الشاعر العظيم بالغموض •

هذا الغموض ادى الى التشكك الذي بلغ حد الانكار ان يكون هناك شاعر اسمه وليم شكسبير ، ويقول المشككون بأن وليم هذا لم يكن الا ممثلا ثانويا لا علاقة له بالشعر المسرحي • ويختلفون في نسبة هذه المسرحيات الشعرية العظيمة • فمن قائل ان كاتبها هو السير فرانسيس بيكون الوزير الكاتب الفيلسوف والذي كان معاصرا لشكسبير ، ويقول هؤلاء أن بيكون قد استنكف عن ان ينشر الشعر والمسرحيات باسمه وهو المفكر السياسي النابه فاستعار وليم شكسبير كحجاب له •

ومن قائل ان الشاعر العظيم مارلو هو مبدع الاثار المنسوبة الى شكسبير ، وقد بلغ الهوس بالقائلين بهذا الرأي حدا انهم حفروا قبر مالرو ١٩٥٦ بحثا عن وثائق تثبت هذا الادعاء وفشلوا في محاولتهم •

ومهما يكن من امر هذه الاقاويل ، فان ما يهمنا هو هذا التراث المسرحي الرائع الذي ينسب الى وليم شكسبير ، بغض النظر عن الحياة الشخصية لمبدعها • ان ما يهمنا هو هذا المسرح الذي اصطلح على انه مسرح شكسبير •

- مسرح شكسبير -

عندما نزح شكسبير الى لندن كان المسرح في حالة نهضة ادبية قوية • كان العصر الاليزابيثي هذا ، عصر ترجمة وامتصاص •

وقد نشطت الترجمة عن اللاتينية والايطالية ، وقد ساد في هـذا العصر نوعان من المسرحيات :

اولا : المسرحيات البطولية • وتشمل :
١ ـ تراجيديا الثأر : وهي المسرحيات التي يمثل الثأر فيهـا القوة المحركة للاحداث • اي يكاد الثأر فيها يحل محل القدر فـي المأساة الاغريقية •

٢ ـ المسرحيات التاريخية : التـي تصـور احداث التاريـخ الشهـيرة •

ثانيا : اما النوع الثاني من المسرحيات فهو الكوميدي •
وقد ساهم شكسبير بمسرحيات من كل نوع •

باكورة انتاج شكسبير كانت مسرحية ثأر من النوع الدرامي وهي مسرحية (تيتوس اندرونيكس) ، وفيها مشاهد فظيعة من القتل والتعذيب تقطع فيها الايدي والالسن ويجبر الاب على اكل لحم ابنائه •

واول مسرحياتـه التاريخيـة هـي ثلاثيـة (الملـك هنـري السادس) •

اما اول مسرحياتـه الكوميديـة فهـي مسرحيـة (كوميديا الاخطاء) وهي مأخوذة من كوميديا لاتينية وتلتزم بأصول الوحدات الكلاسيكية الثلاث :

- وحدة الزمـان •
- وحـدة المكان •
- وحدة الموضوع •

اذن فقد كانت بواكير اعمال شكسبير تقليدية حاكـى فيها نماذج من الاداب القديمـة ، او استقـى منها مباشرة ، غير ان شكسبير بدأ بعد ذلك بنتاجه المميز الذي يحمل طابـع التفـرد والعمق • ذلك النتاج الذي اصبح من التراث العالمي الخالد •

ـ التراجيديات ـ

لا شك ان مجد شكسبير يعتمد في المكان الاول على ما كتب من تراجيديات • فبعد ان مارس الشاعر كتابة تراجيديا الثأر والتاريخ • قدم مأساته الغرامية الاولى (روميو وجولييت) وقد كتبها وهو في السابعة والعشرين ، ولذلك لا تعد على مستوى النضوج الفني الكامل • وقد اخذ عليها النقاد بشكل خاص ان الحدث فيها يعتمد على المصادفة اكثر مما يعتمد على الحتمية الناشئة عن الشخصيات • ولكن النضوج الفني الرائع سرعان ما يتبدى في مسرحية (يوليوس قيصر) و (هاملت) وبعض النقاد يعتبرون هذه الاخيرة اهم مسرحيات شكسبير على الاطلاق ، وقد تجاوز فيها مؤلفها الحدود والابعاد التاريخية فصنع من شخصية هاملت شخصية انسانية لكل زمان ومكان ، حتى ان الشخصية الحائرة المترددة باتت تنسب الى هاملت ببساطة ، مع ان تفاسير النقاد لتردد هاملت ما تزال موضع جدل حتى الان •

الا ان مسألة التفاضل بين تراجيديات شكسبير تظل ابدا محل اختلاف ، فبعضهم يرون في تراجيديا الملك لير اكثر مسرحيات شكسبير فنية وبعضهم يرى ان مسرحية (ماكبث) هي الاولى وهكذا •

والواقع ان كل واحدة من هذه المسرحيات العظيمة تحمل قيمتها الخاصة • وفي كل منها اطروحة انسانية ودراسة للنفس في جانب من جوانبها • في هاملت مأساة الانسان في تردده • في ماكبث مأساة الانسان في طموحه عندما يبلغ حد جشع السيطرة والقتل • في عطيل مأساة الانسان عندما يقع ضحية الغيرة • وفي كل مغامرة فنية له كان شكسبير يغوص الى الاعماق المجهولة في نفس الانسان •

ـ كوميديات شكسبير ـ

بدأ شكسبير بكتابة الكوميديات الغرامية وكانت صنفا محببا للناس فكانت كوميديا (خاب فأل العشاق) (وكوميديا الاخطاء)

وهذه الاخيرة تقدم مثالا جيدا لتكنيك اساسي في بناء الكوميديا ، ما زال مستعملا حتى يومنا هذا ، وهو اتخاذ الشخصيات المغلوطة مصدرا للفكاهة • وقد استخدم شكسبير هذه الحيلة باشكال مختلفة في العدد الاكبر من كوميدياته فيما بعد فاتخذ من السحر سببا في الشخصية المغلوطة في (حلم ليلة صيف) •

وفي (الليلة الثانية عشرة) ، وهي تعتبر في نظر الكثيرين خير ما كتب شكسبير من كوميديات في هذه المسرحية ، يستخدم الشخصية المغلوطة بطريقة مضاعفة ، فالبطلة تتنكر في ثياب الرجال وتنخرط في خدمة الدوق وتقع في غرامه ، وهو لاه عنها او لا يعرف حقيقة شخصيتها ، بل انه يرسل معها الرسائل لفتاة اخرى (اوليفيا) التي تقع في غرام البطلة باعتبارها شابا جميل الوجه •

ـ الكوميديات المرة او المعتمة ـ

على ان الضحك لم يكن دائما العنصر السائد في مسرحيات شكسبير • فقد كتب ثلاث كوميديات على الاقل تستعصي على المرح وتحير الباحثين حتى سميت (المسرحيات المشكلة) وهي مسرحيات ـ ترويلوس وكرسيدا •

- الصاع بالصاع •
- والعبرة بالخواتيم •

ولا يعرف على وجه التحديد متى كتبت هذه المسرحيات ويبدو انها عبرت عن حالات من الكآبة والتشاؤم انتابت الشاعر في حياته •

وقصة مسرحية (الصاع) قصة شعبية قديمة وردت باشكال مختلفة في لغات متعددة • انها قصة القاضي المتزمت الذي يحكم بالاعدام على مذنب ويرفض تخفيف الحكم تحت اي ظرف من الظروف ولكنه لا يتورع هو نفسه عن ارتكاب الجريمة ذاتها في السر •

والحق ان الكوميديات المرة عند شكسبير تشكل البذور الاولى للمسرح الانتقادي الاجتماعي ·

كثيرة هي الشواهد التي تدل على ان هذا الشاعر العملاق قد سبق عصره بأشواط بعيدة · ان رؤياه للحياة وللمجتمع من النفاذ والسعة بحيث انه اضطر الى تجاهل كثير من الشروط المسرحية الشكلية ليتمكن من معالجة موضوعاته بحرية · ومعروف انه خرج بمسرحياته على الشروط الكلاسيكية التي وضعها ارسطو · فمسرحيات شكسبير في معظمها لا تتقيد بوحدة الزمان (ذلك الشرط الذي كان يلزم المؤلف بألا يتجاوز الأربع والعشرين ساعة زمنا للمسرحية) فنجده يجري بعض مسرحياته على مدى سنين عديدة · ويتجاهل وحدة المكان فاحداث مسرحياته قد تدور في امكنة متباعدة جدا · اما وحدة الموضوع فيتمثل جيدا عند شكسبير ، ووحدة الموضوع عنده تعوض من ضياع الوحدتين السابقتين ، وتشد المتفرج على مسرحه وتأخذ كامل اهتمامه ·

وليس غريبا اذن ان يرتبط المسرح واسم شكسبير رغم مرور مئات الاعوام عليه · انه خالد ما خلد المسرح ·

مواقـف

في

القصـة والرواية

اختلاط الحدود بين الرواية والشعر

في الاداب الحديثة بدأت الحدود تختفي شيئا فشيئا بين شتى الاشكال والقوالب · ولسوف نتحدث هنا عن الحدود ما بين الشعر والرواية ·

للوهلة الاولى يبدو وكأن المقارنة بين هذين القالبين غريب ، ويبدو بعض النقاد حريصين على تمييز الاصناف ، وعدم اختلاطها ؛ وقديما كان الناقد الالماني ليسنج يشكو من عدوان الفنون احدها على الاخر ، ولكن المتتبع لمصطلحات النقد نفسها يجد انها تتضمن هذا الاختلاط والا فما معنى حديثنا عن الصورة الشعرية ؟ الا نستعير للشعر مصطلحا من الرسم ؟ وعندما نتحدث عن هيكل القصيدة ، وعن بنائها الا نستعير مصطلحات النحت وفن المعمار ؟

هذا ما بين الفنون المتباعدة في وسائلها · اذن فالفنون الكلامية (الاداب) والتي تعتمد وسيلة الكلمة اقرب الى ان تتشارك ويؤثر احدها في الاخر · وليس عجبا اذن ان النقد الحديث قد قبل مصطلح (القصيدة النثرية) و (الرواية الشعرية) على الرغم من التناقض الذي يبدو لاول وهلة في هذه المصطلحات ·

ان القارىء لاشعار اودن ، او لاشعار جاك بريفير خاصة ؛ يرى بوضوح كيف ان الموضوعات اليومية البسيطة ، هي مادة لقصائدهما ، وكيف ان اشعار بريفير بالذات قريبة من المقالة الصغيرة ، او من تسجيل اليوميات ·

وبالمقابل فان كاتبا مسرحيا مثل ابسن او روائيا مثل جيمس جويس هما شعراء في الروح التي يتناولان بها موضوعاتهما رغم الاداء النثري في قالب المسرحية او الرواية ٠

هناك حاجتان متعارضتان ، يمكن تبينهما في الرواية ، كما يمكن تبينهما في الشعر خلال النصف الاول من القرن الحالي : الحاجة الى الحقائق ٠ والحاجة الى الشعر ٠

وهاتان الحاجتان تطابقات الى حد ما شيئا نشعر به نحن انفسنا حين تجابهنا التجربة الحديثة :

- الحاجة الى المعلومات ٠
- والحاجة الى المخيلة ٠

وما بين هذين القطبين ، يتحرك مؤشر التفاعل المتبادل بين الرواية والشعر ، كل لون منها كان بحاجة الى عنصر موجود في اللون الاخر ، مفتقد عند ذاته ٠ فنجد احيانا ان الرواية منغمسة في الشعر مستوعبة فيه ، واحيانا نجدالقصيدة منغمسة في الواقع مستوعبة فيه ٠

ان جويس وفرجينيا وولف ، ود٠هـ٠ لونس من ادباء مطلع القرن الحالي ، يمثلون ردة فعل المخيلة الشعرية على المبدأ النثري، كانوا يقومون برد فعل ضد كتاب النثر الوقائعي جدا ٠ من مثل ويلز ، وشو ، وبنيت ٠

ان التأرجح ما بين الواقعي والشعري والتفاعل المتبادل بينهما ، يبدو في فترة زمنية معينة وكأنه انتصار لمبدأ النثر على الشعر او العكس ، ثم ما تلبث الدورة ان تعاد ٠

والحقيقة ان عنصري المخيلة والوقائع سيظلان دائما موجودين رغم التنافر بينهما ، وهكذا فما من ضير في ان تدخل الشعر لمسات من الواقع ، وان تسري في الرواية روح من الخيال الشعري ، ولعل في هذا خطابا لكلا القالبين من الادب بالاضافة الى انه خطوة من خطوات التغير والتطور ، الذي يشمل بسنته الادب كما يشمل كل مناحي الحياة ٠

مجموعة قصصية للكاتب المصري
محمد البساطي

الواقعية في الادب والفن هي اكثر المدارس اثارة للجدل والخلاف ما بين اراء تود توسيع حدودها لتشمل كل الاتجاهات • وتلك هي الواقعية التي لا تعترف بحدود ، وما بين اتجاهات شديدة التطرف لا ترى في الادب والفن الا جانبه الوظيفي الاجتماعي فتصل الى مفاهيم ميكانيكية جامدة •

وما بين هذين الاتجاهين تبرز ازمة الادب الواقعي • ولكن الواقعية لن تعني عند اي دارس جاد تصوير الواقع بحذافيره ، بل تعني بالتأكيد اعادة تصور للواقع واعادة ابتكار • والجواب الاخير في حل ازمة واقعية الادب او استفحالها يكمن في نتاج الادباء انفسهم اكثر مما يكمن في آراء النقاد • اذ على حصيلة ابداع الادباء تحيا النظريات التقدمية حتى وهي تستشرق مستقبل الادب • وحتى وهي ترسم الحدود •

ومجموعة (محمد البساطي) المعنونة بـ (الكبار والصغار) تأتي في مرحلة دقيقة من اضطراب الرأي حول واقعية القصة العربية • وتساهم هذه المجموعة مساهمة جيدة في محاولة الخلاص من بين فكي ازمة الواقعية كما اشرنا : فك الجمود والميكانيكية ، وفك عدم التحديد وتداخل كل المدارس الادبية •

تتخذ هذه المجموعة من مشكلات الانسان العربي ، بل ومشكلات الانسان في العالم الثالث كل مادتها الصريحة فالفقر والالم واوضاع العائلة وما يتحرك على محور هذه وتلك من مشكلات عاطفية وغريزية هي مادة الكاتب • وبهذا ميز محمد البساطي نفسه عن عدد كبير من كتاب جيله الذين تدور قصصهم في اطار الذاتية المغرقة والمغلقة التي لا تتصل بهموم المجتمع الا بقدر ضئيل لا يكاد يلحظ • من هذه الزاوية تستطيع أن تطلق على مجموعة محمد البساطي وصف (الموضوعية) بجلاء •

شخصيات المجموعة تتراوح ما بين الحوذي ومدرس في القرية ، والمرأة الفقيرة التي تعمل غسالة في البيوت ، والممثل ٠٠ الخ ٠ وهي عموما ملتقطة من الاوساط الفقيرة ذات المشكلات الحياتية الواسعة ٠ بينما نجد ان مشكلات معظم القصاصين الشباب الان تدور حول المثقف في المدينة بغض النظر عن الوظيفة التي يقوم بها ، والتي يصبح اظهارها في القصة او عدم التعرض اليها مسألة شكلية تماما لا تغير من طبيعة مشكلة صاحبها ٠

في قصة الرجل والحمار مثلا يسقط حمار العربجي مرهقا من الجوع والتعب في وسط الشارع ٠ ويعاني العربجي سلسلة طويلة من العذابات المتصلة بالحادث ٠ فهو اولا قد وقع واصيب بشكل مؤلم ، ثم ان الناس التفوا حوله يراقبون ورطته وهو يحاول ان يستر جسمه وقد اضطربت عنه ملابسه ، ويحاول في الوقت ذاته ان يتجاهل السباب يقذفه في وجهه سائقو السيارات الذين عرقل حماره مسيرتهم ، ويقوم بمجهودات ضخمة لفك احزمة الحمار كي ينهضه مرة اخرى ويفشل في انهاضه ٠

واخيرا يتعرض لسلسلة من الاستجوابات من موظف رسمي ٠٠ الخ وتنتهي به آلامه الى ان يدفع العربة بجسمه ليحل الاشكال فتدفعه العربة منزلقة في المنحدر وتقذف به الى نفق مظلم ٠

وفي قصة كوكو نلتقي بالام امرأة فقيرة تكد وتجتهد في العمل ليل نهار لتوفر العيش والتعليم لابنها الوحيد كوكو ، ويصور لنا الكاتب من خلال صور حية بسيطة الالام الداخلية التي تعتلج في نفس هذه المرأة ذات المظهر الخشن ، فاذا بها تنطوي على ارق عواطف الام واحزانها ٠ فهذا الولد الذي هو عزاؤها الوحيد مصدر آلام ساحقة : فهو لا يأكل جيدا ولذلك فهو عليل الصحة وهو فاشل في دراسته منطو على نفسه ، وفي الوقت ذاته تمر علاقتها به بظروف صعبة على فهمها وتدبيرها وعندما تزجره يوما يهرب من البيت ٠ ونرى من خلال استغاثتها بطالب جامعي كي يبحث لها عن الولد فجيعة هذه الام الواسعة والعميقة ، وتنتهي القصة نهاية مفتوحة لا نعلم معها شيئا عن مصير الولد ولا الام ٠ اذ عندما يعود

الطالب الجامعي فاشلا في العثور على الولد ويكون ذلك بعد منتصف الليل تكون الام قد خرجت للبحث عـن ابنها والريـح تلعب بباب بيتها • هذه النهاية المفتوحة لها مغزى عميق فهي لا تريد ان تحل نهاية القصة بالعثور على الولد ليتنفس القارىء الصعداء راحة على مصيره ومصير امـه ، بـل تتـرك القارىء ليستمـر معايشة المشكلة • فالمشكلة اعمق من ان تكون حادثة ضياع الولد • انها مشكلة هؤلاء الناس الفقراء المساكين بكل ما ينطوي عليه من عواطف انسانية معذبة •

نكتفي بتلخيص هاتين القصتين من المجموعة لاعطاء فكرة عن المضمون الواقعي الذي تتحرك ضمنه قصص محمد البساطي ، ونلتفت الى فنه القصصي •

البساطي فنان واع لادوات فنه ، الواقعية لديه تتسم بالايجاز العميق المعبر فهو يبتعد عن كـل استطـراد يميـع كثافة الجـو القصصي لديه • يمسك بالشريحة التـي استقـر عليها اختياره ويدرسها جيدا ويصفيها من الزوائـد غـير المهمة ، ويدير بـين شخوص قصصه حوارا قصيرا بسيطا في ظاهـره ولكنـه مشحون بالقوة • وقد استفاد الكاتب من خصائص الجملة القصيرة الى حد ممتاز •

ونقتطف هذه الفقرة من قصة مشوار قصير كمثل على اسلوب البساطـي :

(هز رأسه مبتسما • وقف على شاطيء الترعة • انحـدر قليلا • سقط ظله على صفحة الماء • رآه يتماوج • انزلقت قدمه • غاصت في القناة • تماسك • نفض ساقيه في عنف • ضحك الرجل القصير • سار في بطء •)

وقد استفاد الكاتب من فن السينما بطريقة التقاط الصـور الجزئية وتنسيقها وربطها • فيضعك مرة في عيني بطل القصـة ويريك المنظورات من خلاله ، ثم يريك البطل في عيون الاخرين • والمنولوج الداخلي في قصصه يشبه لقطات استعادة الماضي فـي

السينما ، ويراوح ابطاله عادة ما بين الماضي والحاضر على ايقاعات حركة الطبيعة او ايقاع الحوار . ففي قصة مشوار قصير نجد ان الاستاذ وهو يمر بالترعة ويرى الماء تحت ضوء القمر تذكره بطفولته اذ كان يصطاد السمك ووحشة الليل تستثير لديه حكايا الطفولة والجن والخرافات .. الخ

هذه العناصر الفنية التي استفاد منها البساطي بقدرة وهدوء جعلت من قصصه ادبا واقعيا ليس بالنقل الفوتوغرافي عن الواقع بل باصطفاء وابتكار جديد للواقع . لم يقع الكاتب في قصة من قصصه بالمباشرة . لم يلق موعظة ولم نسمع صوته الذاتي . بل ترك للنماذج الحية التي اتقن تصويرها في الواقع ان تحمل لنا رؤياه واتصاله الحميم بمشاعر الناس البسطاء . وهكذا تحقق للكاتب ان يقدم قصصا انسانية وواقعية عميقة . وفي الوقت ذاته ادبا رفيعا .

مع نجيب محفوظ في مجموعته (تحت المظلة)

هذه المجموعة القصصية هي اخر نتاج الكاتب الكبير نجيب محفوظ • وهي مجموعة كتبت بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧ •

تتسم قصص هذه المجموعة بالتجريد والرمزية وفي الغالب الايجاز الشديد جدا • والناظر الى تطور ادب نجيب محفوظ لن يستغرب هذه النتيجة • فالمرحلة الواقعية من قصص نجيب محفوظ والتي توجت بثلاثيته الشهيرة كانت بداية في طريق من التطور تستطيع القول بأن سمته الاساسية تكمن في الابتعاد عن الاسلوب الواقعي في القصص شيئا فشيئا ، والميل نحو الرمزية بتسارع يكاد يكون منتظما •

ضمن هذا الخط لا غرابة بان ينتهي نجيب محفوظ الى الثورة على القوالب الاستاتيكية التي عرفناها في اعماله القديمة ولا سيما في مرحلة ما قبل الثلاثية •

هو في هذه المجموعة يهمل طريقة السرد والتسجيل ويعرض عن حشد الجزئيات والتفاصيل الدقيقة ذلك لانه لا يريد ان يلمس سطح الواقع الذي تجري عليه الاشياء • وانما يرتفع في ادراكه وينأى في تصوره حتى يصل بالاشياء الى التجريد • وضمن هذه الرؤى تتصادم الاشياء والناس في عنف حتى تستحيل الى هشيم وأنقاض ، فالاشخاص يسقطون جثثا على الطريق لا احد يواريها • واللص يرقص على مقربة منها تحت انهمار المطر ، وقد التف حوله المطاردون ، وكلما اشتد هطول المطر ازداد وقع الصورة حدة واثارة ، لكن احدا من الواقفين تحت المظلة لا يحرك ساكنا واخيرا يتوجه اليهم الشرطي ويسدد البندقية فيصرعهم جميعا في الحال •

ذلك هو مضمون رؤية قصة (تحت المظلة) يعرضها نجيب محفوظ باسلوب اقرب الى الشريط السينمائي السريع المتضمن صورا من كابوس مزعج •

في قصة (النوم) لا يصل نجيب الى هذا الحد من الرمزية المجردة ، فبطل القصة يظل هنا منحوتا من الواقع وان بدا غريبا

عن الواقع ، هذا البطل الذي يعشق تمثال بوذا لانه يومي اليه (بالحقيقة ، والهدوء ، والانتصار) وهذه الكلمات يوحي اليه بها صديقه المشعوذ ٠

ويراوح البطل بين عزلته الكئيبة وبين حنينه الى الحياة والاختلاط ٠ ويظل في هذه الحيرة حتى تقتل الفتاة التي احبها والتي أمل ان يجد الخلاص معها ٠ في تلك اللحظة لا يجد ما يتمناه الا النوم الطويل بلا نهاية ٠

وتعتبر قصة (الظلام) امتدادا طبيعيا لقصة النوم مع اغراق اكثر في التجريد ٠ فالرؤية منعدمة تماما في هذه القصة والصور لا تبان ٠ فقط الكلمات هي التي تحدثنا عما يجيش في هذا الظلام من حركة ٠

في قصة (الوجه الاخر) وفي قصة (الحاوي خطف الطبق) يؤكد نجيب محفوظ معاناته من سيطرة العقل ويجاهد كي يتحرر برؤياه الفنية الى اعمق من ظواهر الاشياء ونظامها المألوف ٠ ففي القصة الثانية يخرج الطفل حاملا طبقا وقرشا لكي يشتري فولا ولكنه يظل يتردد بين البيت والبائع دون ان يشتري شيئا ومسيرته في هذا التردد ليست مستقيمة بل حلزونية ، ذلك انه بين المكانين يظل يستجيب للمرئيات والاشياء التي تلذه ، ثم يرى احد الحواة والاطفال ملتفون حوله فيندس بينهم مستمتعا برؤية الالعاب ولكن متعته تنتهي بالكدر اذ يخطف الحاوي الطبق منه فيغتم الطفل قليلا ثم ينسى الامر حين تجتذبه متعة اخرى هي صندوق الدنيا فيمنح صاحب الصندوق قرشه ليتفرج على الصور العجيبة ، ويسير بعد ذلك وقد سيطرت عليه صور الحب والفروسية ويتناسى انه اضاع القرش والطبق ، فيمضي الى بيت مهجور ويجد طفلة يتسلى معها الا انها ما تلبث ان تخبره بان امها تحتاجها ، فيتذكر ما صنع هو ومع ذلك يهدىء من روع نفسه ويقول لنفسه بان الامر لا يعدو ان يكون عقابا بسيطا ٠

في هذه القصة يتبنى نجيب محفوظ رؤية الاطفال البريئة الى العالم ويضيق قواعد الفكر الصارم ٠ بالاضافة الى القصص ضمت المجموعة عددا من المسرحيات التجريدية ذات الفصل الواحد ، وهي

وان كانت مسرحيات متفردة ذات طابع مستقل فانها في مجموعها تبدو وكأنها مسرحية كبرى ذات نهايات متكاملة ٠

ومن هذه المسرحيات (النجاة) وهي تتبنى وجهة النظر النسبية في رؤية العالم وتقيمه ، وتدور ايضا ضمن واقع استثنائي ، ويبدو تأثير بيرانديللو على هذه المسرحية وعلى مسرحية (مشروع المناقشة) وهي تتناول قصة المؤلف التي سيقدمها في العرض المقبل ويحتدم الجدل حول دور كل شخصية تقوم باداء هذا العرض فالممثل يرفض فكرة المؤلف لانها تخلو من الصراع وهو يريد ان يؤدي دورا بطوليا ٠ والممثلة تريد ان تؤدي دورا عاطفيا تؤكد من خلاله قيمة الحب والمؤلف يصر على فكرته ويرفض ان يجري عليها اي تغيير ٠ وواضح ان هذه المسرحية مأخوذة على الاقل بفكرتها من مسرحية (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) لبيرانديللو ٠

في هذه المجموعة نكتشف ان نجيب محفوظ قد اتجه الى ابعاد جديدة في القصة ٠ فهو غير معني بتصوير الواقع بقدر ما هو معني بتقديم رؤاه المركبة التي تتألف من صور لا تعبر عن منظور مألوف بقدر ما تعبر عن حالة تختلط فيها الاشياء ٠ وواضح ان فنية الكاتب انما ترتكز على التوحيد بين النقائض والاضداد ٠ وبذلك امكنه ان يحقق هذه التكوينات الدرامية التي نتمثلها في ثنايا قصصه ومسرحياته ٠

فالسياق في قصة (تحت المظلة) قائم على اساس التباين بين الرقص والقتل ٠ وفي قصة النوم التباين بين عالم اليقظة وعالم النوم ٠ وقصة الحاوي الذي خطف الطبق توضع الطفولة في مواجهة العالم وتكشف عن التباين بين اللذة الطفولية والالم الذي يعقبها ٠ وفي قصة الوجه الاخر يكون الصراع بين العقل والغريزة ٠

الا ان نجيب محفوظ يبدو وقد اندفع بعيدا جدا عن عالم الواقع في هذه المجموعة وتحولت قصته الى طلسم غامض جدا بعض الاحيان ، ونحن ننتظر الخطوة الثانية من نجيب محفوظ ونعتقد انه سيضطر الى العودة من جديد الى مخاطبة الواقع باسلوب اقل تجريدا ٠

مع نجيب محفوظ في رواية (بداية ونهاية)

مهما اختلفت نظرة النقاد او القراء في تقييم آثار نجيب محفوظ من الناحية الفنية ، فان الخلاف لا يرد اطلاقا على اهمية التأريخ الاجتماعي والسياسي في نتاج هذا الكاتب ٠

بات مألوفا تقسيم نتاج محفوظ الى مراحل ثلاث :
المرحلة الاولى : تاريخية بحت وتشمل (عبث الاقدار) (رادوبيس) (وكفاح طيبة) ٠

والمرحلة الثانية : اجتماعية وتشمل (بداية ونهاية) (السراب) و (زقاق المدق) و (خان الخليلي) (والقاهرة الجديدة) وقد اختتمت هذه المرحلة بالثلاثية الشهيرة ٠

اما المرحلة الثالثة : فتبدأ برواية اللص والكلاب وتشمل بقية نتاجه اللاحق ٠

واما عن روايته (بداية ونهاية) التي تمثل المرحلة الثانية من مراحل نتاجه ، فقد كتبت عام ١٩٤٩ وموضوعها المحوري الفقر وما ينتج عنه من سلسلة المشكلات الاجتماعية والمآسي العاطفية ٠

ففي مستهل الرواية يموت معيل الاسرة وهو موظف كان مرتبه يكفي زوجه واولاده ولكنه لا يفيض لادخار ٠ فما تكاد الاسرة تفيق من فجيعتها بموت الاب حتى تواجه بشبح الجوع ٠ تبيع الام اثاث البيت قطعة قطعة وتأخذ اولادها بالشدة ليتماسكوا ويتحملوا المحنة حتى يتوظف احدهم فيعيد بناء البيت الذي تداعى على رؤوسهم بوفاة الاب ٠

ولدا الاسرة حسين وحسنين في المدرسة ٠ وحسين يمثل الولد المسؤول المتعقل الذي يرضى بالتقشف وينهي دراسته عند المرحلة الثانوية ويبحث عن وظيفة متنازلا عن فكرة الدراسة الجامعية من اجل شقيقه الاصغر حسنين ٠

اما حسنين فهو الولد الاناني في الاسرة٠ طموح ثائر على فقره وعلى وضع اسرته ٠ يريد الثروة والجاه بغض النظر عن الحال البائسة التي يرى اهله فيها ٠

وكلا الشقيقين يقع في حب ابنة جارهم فريد ، ولكن الذي يفوز بها حسنين الاصغر • ولكنه عندما يصبح ضابطا يتخلى عنها معتقدا بأن شكلها البلدي لا يتناسب ومقامه •

وهو يتقبل تضحية اخيه حسين واخته نفيسة التي تعطيه قروشها القليلة التي تحصلها من عملها كخياطة • ومع ذلك ينظر اليها نظرة ازدراء •

وللاسرة ولد اخر هو الاكبر ولكنه يظل في حالة شبه غياب عن مسرح مأساة الاسرة • والحقيقة ان هذا الاكبر هو اكثرهم خيبة فهو عاجز عن حمل مسؤولياته ويفضل صحبة المجرمين ، يقامر ويتشاجر ، ويحلم بمعجزة تنتشله من سقطته •

اما نفيسة فهي في الاعماق من المأساة • ليست على جمال ولا ذكاء • وهي تتشبث بعملها كخياطة محاولة أن توجد لها ارضا صغيرة تقف عليها • وتصل نفيسة الى الدرك الاسفل من المأساة حين تسقط في العار • فيقتادها حسنين الى النهر ، تسير معه ضحية ذليلة صامتة • راضية بالقدر الاخير الذي تبقى لها وهو اختيار الانتحار لتحقق الموت المطلوب منها • موتها ، وتجنب اخاها واسرتها نتائج موتها • ولعل سقوط نفيسة هو ابلغ ادانة للفقر في ادبنا المعاصر مع ان نجيب محفوظ لم يصور الفتاة تتردى الى السقوط دامعة العينين كما في تهاويل الكتاب الرومانسيين • بل جعلها فتاة ذات مهنة تتكسب منها وعضوا في اسرة تبعث الرعب من الفضيحة في نفسها كل دقيقة • والفتاة هنا تتحمل مسؤولية سقوطها وتعيش في اسرتها كالمحكوم عليه بالاعدام • الى ان يصدر شقيقها الحكم بانتحارها حين اكتشف فضيحتها فتنتحر وكل همها ان تجنبه مزيدا من الالم •

لقد اتهم نجيب محفوظ بالتشاؤم في هذه الرواية بالذات ، ولكنه في الحقيقة كاتب واقعي كشف القناع عن الالام المعيشية والزيف الروحي لقطاع هائل من المجتمع • فان هذه الاسرة التي تناولها

كمثالٍ لقطاع من المجتمع يأنف من العمل اليدوي ويجد فيه غضاضة ومذلة · ويمثل حسنين هذا القطاع باحلامه الدائمة بالثروة وتنسيق الاوضاع التي ترفعه عن اسرته · كما يمثلها الاخ الاكبر بعزوفه التام عن العمل والتجائه للقمار ·

ونفيسة التي تقبل على عملها البسيط راضية ، هي محلّ خزي من اخوانها مع انه لا مبرر عقلي لهذا الخزي · وقد دفعت نفيسة ضريبة باهظة وكأنها جمعت بها ضريبة الاسرة باكملها · فظلت من اكثر الشخصيات تأثيرا في روايات نجيب محفوظ ·

النداهة مجموعة قصص للدكتور يوسف ادريس

صدرت مؤخرا عن دار الهلال مجموعة قصصية جديدة للكاتب المعروف يوسف ادريس · عنوان المجموعة (النداهة) وهو ايضا عنوان اول اقاصيص المجموعة ، واهم ما فيها ·

تتفاوت القيمة الفنية للمجموعة تفاوتا كبيرا بين اقصوصة واخرى · فمثلا تحتوي المجموعة على اقصوصتين قصيرتين جدا هما : (المرتبة المقعرة) و (النقطة) حاول فيهما المؤلف مجاراة هذا اللون من القصة المتطرف في صغر حجمه غير انه لم يوفق لاستكمال الشرائط الفنية الخاصة لنجاح هذا اللون ·

كذلك تتراوح الرؤيا التي تقدمها القصص ما بين الدراسة الاجتماعية ، الى الاطروحة الفلسفية · ومما لا شك فيه ان مجال الدكتور يوسف ادريس المميز هو القصة التي تتناول الشرائح الاجتماعية وتدرسها بتأمل عميق · فالقصة الفلسفية المتمثلة في اقصوصة (العملية الكبرى) تظل مفتقرة لعنصر الاقناع · ويشعر القارىء ببساطة ان الاحداث هنا مركبة دون تلاحم طبيعي لتؤدي الى مقولة فلسفية ملخصها : ان الحياة والموت وجها حركة واحدة تتأكد من خلال الجنس ·

على ان قصة النداهة هي كما قلنا قمة نجاح المجموعة · وقد اظهرت براعة المؤلف فيها ان اسلوب السرد المألوف قادر بعد على حمل المضمون العميق الدقيق وليس بالضرورة حجر عثرة في طريق هذا الاستبطان ·

الريف والعلامة الصعبة بينهما هذه هي تجربة قصة النداهة ·

فتحية ابنة الريف الجميلة فضلت الزواج من حامد على مصطفى خفير القرية النظامي ، مع ان حامد ليس الا بوابا في القاهرة · والسبب هو ذلك النداء الغامض الذي يتحرك في عروق ساكني الارياف ويشدهم نحو المدينة · ومن هنا تأتي تسمية القصة (النداهة) فكأن للمدينة جنية تدعو الى احضانها ·

في القاهرة تبدأ فتحية مغامرة اكتشاف المدينة ، وهي مغامرة مثيرة : العربات ، النور ، الاحتفالات ، والازدحام . وبدا لها ان حياة المدينة عيد يتجدد يوما بعد يوم .

ولكن في المدينة بالاضافة الى هذا ذئابا بينهم الافندي الذي رأى فتحية وقرر سريعا انه يريدها . يريدها لتسلية ليله طبعا . ويلجأ الى اقصاء زوجها حامد ثم يباغتها وتبدو العملية لنا اول وهلة كالاغتصاب ، ولكن القصة تقدم افقا عجيبا مدهشا . ان فتحية في الحقيقة ليست ضحية حادث عابر مع ذلك الافندي . بل هي ضحية روح المدينة التي تلبستها . هذه الروح التي نادتها لقبول المغامرة بحيث اصبحت قدرا لا مفر منه . ليس الافندي وحسب هو دعوتها . بل بريق القاهرة والالوان الصفراء والحمراء ، الوجوه الحليقة ، الملابس الغالية ، السينمات ومنتديات الليل .. الخ كلها تضافرت متناغمة لاسقاط فتحية .

وعندما فاجأها حامد وهي في وضع السقوط يخيل الينا ان جريمة قتل ستحدث .. ولكن شيئا لا يقع ، يهرب الافندي ، ويتواجه حامد وفتحية ، ويحل الليل وفتحية التي ما فتئت تتوقع القتل وتستعجله . تسمع شهيق حامد . فالمدينة التي هزمت فتحية واسقطتها ، هزمت حامد ايضا فجعلته عاجزا عن مواجهة هذا الموقف المفزع على طريقته الريفية الصارمة .

موسم الهجـرة الى الشمال
للطيب صالـح

(عرض وتحليل)

الطيب صالح روائي وقاص سوداني شاب ، لمع اسمه بشكل خاص على اثر ظهور رواية (موسم الهجرة الى الشمال) وكان قد نشر قبل ذلك مجموعة قصصية بعنوان (دومة ود حامد) وروايـة قصيرة بعنوان (عرس الزين) ٠

ويمكن القول ان عملي الطيب صالح السابقين كانا في اطـار محاولة تقديم صورة من الحياة السودانية مع الحاح علـى عنصر النقد الاجتماعي : ان الجهل والخرافة بشكل خاص كانا من الاهداف التي هاجمها في مجتمعه ، ولكنه في رواية (موسـم الهجرة الـى الشمال) غامر بطرح موضوعه الانتقادي الاثير مرة اخرى ومن وجهة نظر خاصة ٠

قبل ان نناقش ونحلل وجهة النظر التي تحملها الينا روايـة (موسم الهجرة الى الشمال) نقدم للقـارىء ملخص احداثها التي هي عصب الرؤية عند الكاتب ان في نظرته الى مجتمعـه او الـى الحياة عموما ٠

الراوي يعود الى قريته السودانية الصغيرة القائمة عند منحنى النيل ٠ لقد غـاب سبع سنـوات كـان خلالها يتعلم في اوربا ، في انجلترا على وجه التخصيص ٠ حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الاداب ، يعود وكله حنين الى الاهل والعشيرة ٠ الى الارض الحارة التي افتقدها في بلاد الشمال ٠ هناك حيث تموت الحيتان ، حتـى الحيتان من البرد ٠ يأتي الفلاحون للسلام على ابن القرية العائد ٠ كل شيء طبيعي ، الاجواء والناس ، عدا شخصا واحدا هو مصطفى سعيـد ٠

مصطفى سعيد ، الذي ستكون حياته ومماته هيكل الروايـة وعلى اطراف هذا الهيكل تقوم المعضلات ، تتوالد الاحداث ، وتتحرك

الحياة · مصطفى سعيد هذا رجل غريب عن القرية ، حل عليها منذ خمس سنوات ، تزوج احدى نسائها (حسنة) واتخذ لنفسه مكانا بين الفلاحين ، يفلح الارض ويساهم في النشاط التعاوني ، حتى كادوا ينسون غربة اصله عنهم · يزعم انه كان تاجرا فيما مضى وان هذه القرية راقته ولكنه في الحقيقة ليس بالتاجر ولا هو استطاع ان يكون الفلاح · وانما هو رجل مثقف بل من الرواد الاوائل الذين طلبوا العلم في اوربا وباؤوا بالفجيعة والخسران ·

فضول كبير وفرص معينة تهيء للراوي بأن يطلع على حياة مصطفى سعيد الاخرى · حياة لا علاقة لها بما يبدي من نفسه ، حياة غريبة ومأساوية جدا ·

كان طفلا يتيما التحق بالمدرسة حين كانت الحكومة ترسل موظفين جوابين لاقناع الاسر بتدريس اطفالهم بينما تخفي الاسر ابناءها متوقعة شرا · وابدى مصطفى ذكاء حادا ، تبنته مسز روبنس وزوجها وارسلاه للقاهرة لاستكمال دراسته ، ثم الى انجلترا للتحصيل الجامعي ·

مصطفى سعيد ذو الذكاء الحاد ، كان يمتلك قلبا يخلو من الفرح · وروحا ما بها قطرة من الدعابة ، ينطوي على ظمأ جنسي وروحي قاتل · وقد نقل معه بالاضافة الى روحه المأسورة الثقيلة ، اشياء طقوسية من عالم الشرق ، الند والصندل ، تماثيل العاج والابنوس ، ورسوم غابات النخيل والقوافل · ثم اقام في غرفته في لندن معبدا للشهوة والحقد · يغري نساء لندن البيضاوات بعالمه السحري الغامض واكاذيبه الملفقة عن سحر الشرق ويقيم معهن علاقات شهوانية ليس بها اية عاطفة انسانية ومن جراء هذه العلاقات حكم عليه بالسجن سبع سنوات يعود بعدها الى السودان· انه متعب وخائب من رحلته الى الشمال فعلى الرغم من انه اخذ من الشمال العلم (شهادة دكتوراه في الاقتصاد) الا ان علاقته بالقوم البيض فاشلة ، ولهذا اراد مصطفى ان ينسى كل شيء عن الشمال الابيض المتحضر فاستقر في هذه القرية النائية في جنوب السودان · يستقر في تلك القرية في محاولة لخلق حياة جديدة ·

ظلت حياة مصطفى خافية على الفلاحين ، ولكن فرصا معينة بينها سهرة يثمل بها مصطفى سعيد ويقرأ شعرا انجليزيا ، هي التي اتاحت للراوي ان يطلع على الحياة السرية الماضية لمصطفى ، ثم تترى الاحداث فيغرق مصطفى ذات يوم اثناء فيضان هائل للنيل ويترك وصية ذات مغزى يوصي بأن يكون الراوي وصيا على زوجته حسنة وعلى اولاده ، وتتضمن رجاء بالا يخرج الاولاد لطلب العلم والا يتغربوا بل يكتفي بتعليمهم عملا نافعا مستقرا . ولا نعرف حقيقة موت مصطفى سعيد هل هو موت عرضي ام انتحار مدبر ، ولكن اشارات عديدة ترجح الاحتمال الثاني .

خلال سرد القصة نكون قد اطلعنا على عالم الفلاحين : سبل تحصيل قوتهم ، عاداتهم ، افكارهم عن المرأة والجنس . وهي افكار بدائية تتمثل بشكل واضح في مسلك (ود الريس) ذلك الرجل الذي ينظر للمرأة نظرته لحماره . فعندما اصبحت حسنة ارملة بوفاة زوجها ود الريس ان يتزوجها قرارا فرديا من جهة دون ان يشغله امر قبولها او رفضها ، هكذا ينشب صراع مرير بين حسنة التي لا ترغب في الزواج منه وود الريس الذي لا يتقبل مجرد فكرة ان لها حقا في التقرير ونتيجة الصراع يقتل كل منهما الاخر .

الى هنا تكون الاحداث قد شارفت على نهايتها ، والراوي (الدكتور في الاداب الذي تعينه الوزارة وزارة التربية مدرسا للشعر العربي الجاهلي) يكون قد شرب المأساة حتى المرارة ، ونراه في المشهد الاخير يهبط النيل عاريا ويسبح باتجاه الشمال ، وفي منتصف الطريق بين الشمال والجنوب يتوقف غير مستطيع ان يتخذ لنفسه اندفاعا نحو اية جهة منهما . لا يستطيع المضي ولا العودة تشده قوى النهر الهدامة للاسفل فنعرف ان فكرة الانتحار تراوده . يرى اسرابا من القطا تتجه شمالا ، يشعر انه طاف فوق النهر وليس جزءا منه ، هل ينتحر ؟

تلمع بذهنه فكرة ، انه اذا انتحر يكون قد مات كما ولد دون ان يختار حياته ، ومهما يكن من امر يقرر ان يعيش . فيختار الحياة .

تحليــــل

عرضنا بشكل سريع وموجز لاهم الاحداث التي تشكل هيكل الرواية ، والان نستطيع ان نتساءل ما هي وجهة النظر التي يريد ان يقدمها الطيب صالح ٠

هناك شمال وهناك جنوب ٠ وبوسعك ان تقول حضارة بيضاء ملونة وان تضع نصـب عينيـك ايضا العلاقـة ما بين المستعمـر (بكسر الميم) والمستعمر (بفتح الميم) ٠

تحت سطح الاحداث تجري العلاقات المتبادلة ما بين الجنوب والشمال ٠ ثمة حنين ورغبة في الاتصال والتزاوج وفي الوقت ذاته ثمة كراهية عميقة ٠ ان مستر روبنسن الذي تبنى مصطفى سعيـد (الطفل اليتيم) هو احدى الموجات الثقافية التي نزحت من الشمال (يحسن اللغة العربية ويعنى بالفكر الاسلامي) ٠ مسز روبنسن وزوجها هما اللذان هيآ لموجة معاكسة من الجنوب الملون ان تنزح الى بريطانيا حيث درس مصطفى علم الاقتصاد ٠

ولكن مسز روبنسن ليست الا وجها واحدا من حنين الشمـال الى الجنوب ، انه حنين المعرفة والمعرفة المتبادلة ٠ غير ان طفـرة الشمال الى الجنوب تتمثـل بشكـل خاص في تلـك السفن المحملة بالجنـود والمدافـع تتمثـل في المستعمـر الابيض القاتـل المستغل والمتعجرف ، تتمثل بكتشنر الحاكم الانجليزي الذي قال لابن البلد السوداني (محمد ود احمد) وقد حمل اليه اسيرا .

(لماذا جئت بلدي تخرب وتنهب ؟) الدخيل قال لصاحـب الارض ، وصاحب الارض طأطأ رأسه ولم يجب ، اذن فالوجه الجلي القاسي في طفرة الشمال الى الجنوب هو وجه الاستعمار والغـزو ٠

(لقد جئت بلادكم غازيا) قال مصطفى سعيد لاهل الشمـال انه يرد الزيارة بمثلها ، ولكن غزوته يائسة وقاسية وسيكون هـو بالذات ضحيتها الاولى على الرغم من عدد النساء اللاتي انتحـرن او قتلن بسببه وهكذا فانه ينتهي الى السجن ٠ ثم الى الاستسلام

والاعتراف بفشله وهذا ما يظهر من عودته المتنكرة الى السودان لينتهي فلاحا مغمورا ·

تمثل محاكمة مصطفى سعيد من وجهة النظر البيضاء : بقعة يقف فيها طرفا الصراع ليخلصا الى نتيجة موضوعية ، اما من وجهة نظر مصطفى فالمحاكمة ذاتها ليست الا امتدادا مقنعا للصراع واستمرارا خبيثا له ·

يدعى الكولونيل للشهادة وتسأله المحكمة فيما اذا كان يرى بأن مصطفى قد تسبب حقيقة في انتحار ابنته آن ، يجيب الكولونيل بانه انسان متحرر ليس عنده تمييز ضد احد ، ولكنه رجل واقعي رأى في علاقة آن بمصطفى علاقة غير ممكنة ولكنه لا يجزم اذا كانت ابنته انتحرت بسبب اكتشافها لخداع مصطفى ام بسبب ازمة روحية اصابتها ·

فماذا يفكر مصطفى حول هذه الشهادة التي تضع نصب عينيها حس العدالة · (هذا هو العدل ، واصول اللعب ، قوانين الحرب والحياة في الحرب ، هذه هي القوة تلبس قناع الرحمة) ·

اذن فهو يرى عدالتهم جزءا من اصول اللعبة · ويتكرر هذا ازاء شهادة زوج ايزابيلا سمور المنتحرة ايضا · يقول الزوج : (الانصاف يحتم علي ان اقول بأن ايزابيلا زوجتي كان تعلم بانها مريضة في السرطان · كانت في الاونة الاخيرة تعاني من حالات انقباض حادة · قبل موتها بايام اعترفت لي بعلاقتها بالمتهم · وانا بالرغم من كل شيء لا أحس بالمرارة في نفسي نحوها ولا نحو المتهم · انني فقط احس بحزن عميق لفقدها) ·

ولن يقتنع مصطفى سعيد بصدق هذه الشهادة ايضا ، انه وقد رفض ان يكون ربيبا للابيض قد رفض الشمال وحقد عليه ولن يتقبل مؤسساته وعدالته وسوف يظل يشعر انه ضحية ·

يرى الناقد رجاء النقاش في عودة مصطفى سعيد هذه وجهة نظر ايجابية فكأن الكاتب اراد ان يعود بمصطفى سعيد الى بلده

ليقول (هذا هو السلوك السليم) الا ان هذا الرأي لا يجد اي برهان في صلب الرواية ۰ ان عودة مصطفى عودة فاشلة بدليل :

١ ـ انه لم يستفد من العلم الذي حصله في اوربا ، ولم يفد بلده من هذا العلم بل قبل لنفسه دورا صغيرا جدا ومعزولا عن الحياة العامة ۰

٢ ـ ان مصطفى سعيد ظل سجين نفسه الموزعة بين طرفي رحلته ، ان نصف روحه تظل ملتصقة بالحضارة البيضاء ، وتكون غرفته السرية بمثابة الرمز الوثني الذي لن يستغني عنه ، او بمثابة النار الخطرة يحوم حولها مثل الفراشة المجذوبة بقوى مدمرة حتى الاحتراق ۰

٣ ـ انه في الوصية التي تركها بعد موته قد طلب من اولاده ان لا يتعلموا في الغرب وان يكتفوا بعمل بسيط مفيد ۰

كل هذا يدل على ان مصطفى هارب فاشل اكثر مما هو صاحب موقف ۰ واننا لنغامر ونقول ان موته كان انتحارا وليس موتا عاديا وان انتحاره تتويج لفشله ۰

كان لا بد لمصطفى ان يلتقي بالراوي قبل ان ينهي حياته غرقا ۰ ولسوف نعجل ونقول ان هذا اللقاء ليس صدفة رغم ان الصدفة مظهره ۰ ثم انه لا يمثل لقاء رجل برجل ، بل هو لقاء جيل بجيل ۰ الراوي يمثل الموجة الثانية من ابناء الجنوب الذين يحاولون حل معضلة العلاقة مع الشمال ۰

والراوي يشترك مع مصطفى في نظرته الشكوكية الى الاوربيين ويستذكر تاريخ الاضطهاد والاستغلال الذي سامه الشمال للجنوب الا انه يريد ان يخطو بالموقف خطوة الى الامام ۰ يريد أن يأخذ شعبه الجنوبي من الشمال المؤسسات المفيدة : المستشفيات والمدارس وقبل هذه وتلك يريد ان يأخذ عنهم روح العقل والمحاكمة الذاتية الجريئة ۰ الراوي يمثل نظرة ترفض التواكل وتبرير الذات والقاء التبعة على اسباب خارجية ، يريد ان يستظهر اسباب تأخر شعبه الكامنة وليس فقط المستوردة لكي تقتلع الاسباب ۰

ولكن هل يمثل الراوي حلا لمعضلة العلاقة بين الشمال والجنوب او بالاحرى بين الشرق والغرب ، من الغريب اننا نجده في اخر الرواية يحاول الانتحار على طريقة مصطفى سعيد ، فيهبط النيل عاريا ويبدأ في السباحة متجها نحو الشمال ولكنه يقف في منتصف المسافة لا يدري تماما حقيقة ما يريد وقوى المـوت الهدامـة تشده الـى الاسفـل ٠

وحين يكتشف في اللحظة الاخيرة انه لا يريد ان يموت يقـدم اسبابا غامضة من نوع :

- ان هناك اشخاصا يجب ان يعيش معهم ٠
- وهناك واجبات يتعين عليه ان يفعلها ٠

ان الراوي يمثل نظرة توفيقية بين اطراف الصراع ولا يقـدم نظرة مستقلة ، ومن المفترض ان الطيب صالح قد وضع نفسـه في شخصية الراوي ٠ وبهذا فان حصيلة المغامرة التي اراد بها الطيب ان يطرح مسألة الشرق والغرب هي حصيلة معلقة في الهواء ٠

الطيب صالح كروائي غير مطالب علـى ايـة حال بان يقدم حلولا ٠ لقد وصف وضعا حضاريا بكل اشكالاته وتركه حيث هو ٠

ولكن الطيب قدم عملا فنيا بديعا ، لقد استطاع الطيب صالح ان ينفذ من بين جميع الاشكال الروائية ، الى شكل خاص يجمع بين دقة ووضوح الكلاسيكية ، وحرارة ورشاقة الاعمال الحديثة ٠ وفـي الوقت ذاته قدم معاناة فكرية صادقة لاشكال فكري سيظل قائمـا لسنين طويلة ٠

وليس هنا مجال تتبع جمالية هذا العمل ، فغاية ما أردنا ان نحلل عمله لا ان نستخرج شروط فنيته وجماله ٠

العار : فيلم ضد الحرب

يخاطب العقل ويخضع الكاميرا للرؤيا

العار فيلم ذو مضمون فكري بارز · انه ببساطة ضد الحرب · وقبل ان نقدم عرضا وتحليلا لهذا الفيلم لا بد ان نبـدي تحفظا هاما · فبرغمان هنا ضد الحرب عموما لا يعنيه اي طرف من اطرافها ولا يعنيه هدف الحرب · انه يتجاهل حقيقة اساسية وهي انه في كل حرب يوجد طرفان : معتد ومعتدى عليه · ومن البداهة ان الحرب العدوانية مشجوبة ، بينما الحرب الدفاعية حق مشروع ترقى الى الواجب المقدس ·

فليبق هذا التحفظ في اذهاننا ثم ننتقل الى رؤيا فيلم العار ·

« ثمة حرب قائمة لا ندري بين من ومن ، لا ندري على اية ساحة يدور الصراع · في مطلق المكان وهذه مطلق حرب بين اي طرفين · لا نرى اشارات مميزة لجنود اي من الفريقين ·

ايفا وزوجها عازفان في اوركسترا سيمفوني يعيشان في كوخ متواضع في الضاحية · لديهما مزرعـة صغـيرة ، يسقيان الزهور ويطعمان الدواجن وتفصح ايفا لزوجها عن عميق رغبتها في ان تنجب طفلا ·

هذان الزوجان يريان ان لا علاقة لهما بالحرب الدائـرة · ولكن من العبث ان تترك الحرب لهما فرصة الحياد ، فهما متورطان بالحرب على الرغم منهما · وسط هذه الحياة الهادئة البسيطـة تنفجـر شظايا الحرب وتترك احداثها على الحياة حياة الزوجية اثارا مدمرة، اذ تنقض الطائرات على المنطقة ويعلق احد الجنـود الهابطـين بالمظلات في شجرة وينشب شجار بين الزوجين : ايفا تريد انقـاذ الرجل بينما زوجها يقف حائرا ، فما الذي يدريه ان كان هذا الرجل من الاعداء ام لا · واخيرا يكتشفان ان المظلي قد قتل وظل معلقا حيث هـو ·

الاحداث من بعد هذه النقطة سلسلة من التورط المأساوي لهذا الثنائي الوديع ٠ انهما بعد ذلك يحاولان الفرار ثم يقعان في قبضة الاعداء الذين يجرون حديثا تلفزيونيا مع ايفا لا تتعدى الاسئلة فيه ان تتناول اسمها وعملها ٠ حتى ان ايفا اذ تسأل عن ارائهـا السياسية تتلعثم قائلة بان ليس لها اراء سياسية ومن الصعب تكوين مثل هذه الاراء لان جهاز الراديو عندها معطل ! اية سخرية لاذعة تكمن تحت هذا الجواب ٠

الا ان الاعداء يجرون تغييرا لكلمات ايفا فتظهر صورتها بينما صوت نسائي مزيف ينطق بكلمات الترحيب بجيش الغزو ٠

فيما بعد تتعرض ايفا وزوجها للاعتقال على يد سلطات الامن في بلدها بدعوى انها تعاونت مع العدو ٠ وهنا نرى مناظر بشعة للتعذيب الذي يلاقيه المتهمون بالتعاون مع الاعداء وفيهم البريء وفيهم المتعاون حقيقة عن عمد وخيانة ، وفيهم المتعاون او المرحب عن مجرد خوف : يختلط هؤلاء بأولئك ويلاقون جميعا سوء المصير ٠

ثم يعلن الضابط جاكوبي براءة ايفا وزوجها ويأمر باطلاق سراحهما ولكننا نتبين بعد قليل ان هذا الضابط غير معني بقضية البراءة بل هو في الحقيقة يشتهي ايفا وقد اطلق سراحها لمأربه الخاص ٠

وهكذا فانه يكثر من التردد على منزلها ويغازلها علانية امام زوجها الذي يتقبل الامر على مضض، لان جاكوبي يزودهما بالحاجيات الضرورية ولان شيئا ما قد بدأ يموت في روحه ٠

ثم ينتهي الامر بجاكوبي ان يعطي ايفا كامل ثروته النقدية وينالها، بينما زوجها يخفي هذا المبلغ لوقت يحتاج فيه، ثم تهاجم عصابة من المسلحين المنزل وتطلب فدية من جاكوبي الذي يتضرع لايفا ان تنقذه ، ولكن زوجها ينكر معرفته بمكان النقود ثم لا يجد مانعا ان يساعد العصابة على قتل جاكوبي ٠

وسط معالم الدمار الشامل يبدأ الزوجان رحلة فرار اخرى ٠ وفي طريقهما يلتقيان بجندي شاب مرهق يقتله الزوج من اجل ان يأخذ

حذاءه الجديد وحين تعلن ايفا اشمئزازها من فعلة زوجها وتصميمها على عدم مرافقته يجيبها بأنه يفضل ان لا ترافقه . ولكنها مع ذلك تمضي ذليلة وراءه الى ان يصلا قاربا معدا للهاربين من الحرب ، فيعطي الزوج كامل ثروة جاكوبي اجرة سفر عنه وعن زوجته ، وفي اثناء الرحلة ينتحر قائد القارب ببساطة تامة اذ يلقي بنفسه الى البحر اثناء الليل ولا يهتم احد لموته او يذكره بكلمة ، ثم نرى ذلك المنظر الفاجع : القارب يشق طريقه بصعوبة بين عشرات الجثث الملقاة على سطح المياه وينتهي الفيلم وايفا تتحدث عن حلم شاهدت فيه نفسها تعيش في منزل ابيض تحيط به الزهور وقد انجبت من زوجها طفلة صغيرة وخلال ذلك تهاجم الطائرات المنزل والحديقة فتشعل النار بكل شيء حتى الزهور .

بعد هذا العرض نجد ان الاطالة بتحليل الفيلم غير واردة . فالفيلم بوضوح تام يهدف الى شجب الحرب ولكن وسيلته للشجب لا تتم عن طريق الاستعراضات الهائلة للمعارك ذات المناظر المريعة .

اننا نرى عار الحرب منعكسا على هذه الاسرة المتواضعة المتحابة . الحب بين الزوجين ينهار تدريجيا بسبب حرب لا علاقة لهما بها ويصل الامر بهما ان يقفا وجها لوجه كعدوين كما ان الخيانة من جانب ايفا وعدم المبالاة من جانب زوجها يأتي ليس عن قصور ذاتي او فساد اخلاقي في احدهما او كليهما ، بل ان هذا جزء من الانهيار العام الذي سببته الحرب . الزوج الفنان الذي لم يكن يحسن استعمال البندقية انتهى قاتلا شرسا من اجل الحصول على حذاء .

بوسع المرء ان ينتحر كما فعل قائد المركب ولكن احدا لن يعير هذه الحادثة انتباهه فان جثث القتلى في كل مكان وهو ليس الا جثة ضائعة بين الركام الانساني الهائل .

قال صديق كان يشاهد الفيلم معنا ان الفيلم بارد الانفعال ، وهذه نقطة تستحق النقاش فان برغمان قصد ان يخاطب العقل

اكثر مما قصد مخاطبة العاطفة · انه ليس فيلما باردا ولكنه هادىء وعميق · يظل مع فكر المشاهد ، يعيش اطول من لحظات الـدوار التي تعطينا اياها عادة الافلام المثيرة ·

اسلوب برغمان الفني هنا اسلوب كلاسيكي خال من الحذلقة واستعراض مقدرة الكاميرا او اختيار الزوايا المثيرة · انه ينبـذ كل المهيجات البصرية التي تغري عـددا مـــن المخرجين الحديثين المغرمين بالجمالية · الكاميرا عند برغمان خادم لرؤياه تعرض وتعبر ولكنها لا تقصد الابهار ·

دراســة سياسية

جزء من كتاب كبــير عكف تيسير عــلى تأليفه طيلة عام كامل ثم أحرقه وهذه بعض الاوراق التي وجدت من بقايا الكتاب والتي قمت بترتيبها حسب ما وجدته مناسبا .

زوجتـــه

ـ في الرسالة العربية ـ

(أ)

يقوم هذا البحث على فرضية في واقع الحياة العربية الراهن وعلى حقيقة فوق هذا الواقع :

الوجود العربي قد استيقظ على ذاته في النصف الاخير من القرن التاسع عشر · وقد لبث نائما بضعة قرون من عمر التاريخ · ولــــذا ·

فان مصطلحات مثل « اليقظة العربية » او « البعث العربي » او « النهضة العربية » هي ذات دلالة باطنية جدية للغاية وتشير الى الشيء ذاته ـ اعني ـ الوجود العربي الذي استيقظ من السبات العـربـي :

وليس هذا البحث في التاريخ ، ولكنه يلمح ومضا ليختزل مغزى تاريخيا · ولذا قد يجوز لنا ان نختزل فكرة سبات الوجود العربي بكلمات قليلة ·

فاليقظة العربية تشير ببساطة الى ان وجودا حيا كان قد نام · وهو الوجود العربي ـ وبالتالي فالعروبة كما يتوجب فهمها هــي كائن حي ـ ولذا يحق لنا ان نتساءل بالبساطة ذاتها عن ميلاد هذا الكائــن ·

الميلاد ـ الرسالة :

ان المعلم المتفق عليه بالاجماع في سيماء العروبة هو لغتهــا وهذا المعلم غير قابل للدحض او المناقشة · وهو الذي يصل كــل هوة في التاريخ العربي سواء اكانت هوة في السياسة او الاقتصــاد او العادات والاعراف وكل اشكال الحياة الاجتماعية ···

يجب ان تحترم الكلمة العربية · وان الفاجعة الكبرى في حياة الثقافة العربية المعاصرة هي امتهان الكلمة العربية على ايــدي ابنائها ويا للأسف ·

ان الرسالة العربية حقيقة اكيدة ٠ وان ديمومتها لاحــدى المعجزات التي تجاوز شأن المنطق التحليلي ، ولا يضير هذه الحقيقة ان يكفر بها بعض ابناء جيلنا بل حتى لو آمن انسان عربي واحد بها لكفى به مذكيا جمرة العروبة المدفونة تحت رمـاد الاحـداث العالمية السياسية منها والاقتصادية ٠

ان الصوت الذي رفع شعار « امة عربية واحدة ذات رسالـة خالدة » قد نطق بالحق ولم يحد عنه قيد انملة ولكن الجيل الـذي ألف الموكب قد عجز عجزا اليما ٠

ان الوجدان العربي ـ بكلية ما تنطوي عليه كلمة (الوجدان) من اطلاق ـ مثقل بوجوده الذي استيقظ عليه في اواخر القرن التاسع عشر ٠ هذا الوجود المنتهب في الزمان ٠ ويتمثل انتهابه بمصطلح مؤقت هو « التأخر » ويوصف هذا التأخر بمصطلحات تقليدية هي : الجهل ـ الفقر ـ المرض ٠

ان الفاظا من مثل (عصـور الانحطـاط) او (دور اليقظـة العربية) تستعمل في الاونة المشار اليها وحتى الان استعمالا كليلا غامضا ، يكاد يخلو من دلالاته الحية ٠

ان اللغة رمـز ٠
وان الانسان حياة ٠
وان انطباق الحياة والرمز في وحدة واحدة هو رسالة ٠

ان اللغة العربية صورة حية متحركة للنفس العربية ٠ وان جمودها او تحجرها اشارة لجمود النفس العربية ، وان يقظتها تشير الى يقظة النفس العربية ٠

وحين اصرح في هذا المقام من بحثي بأن اللغة العربية تحمل عبء فتح العالم فان كلماتي تبدو هجينة شاذة وببساطة يبدو قائلها مجنونا ٠

ان نسبة الجنون الى الرسالة العربية نسبة اليفة في نفسيـة الجهل ، والمقابلة بين الجهل والعقل في العربية من المقابلات اللانهائية

التي تحملها العربية والتي تشير الى مغزى مدخر لم يتوصل الى عتبته بعد .

ولقد وسمت لغة محمد دورة كاملة من التاريخ بميسم خالد الا وهو (الجاهلية) اشارة الى الجهل بالحقائق الكبرى . ولا نريد في هذا المقام من كتابنا ان نقول (الحقائق المطلقة للكون) .

وحين نقول الان بأن ثمة جاهلية اولى وثمة جاهلية ثانية وبعدها جاهلية ثالثة ، فلسوف يبدو كلامنا في النفس الجاهلة كلاما متخبطا وكأن به مسا من جنون .

وحين نقول بان احياء فكرة العقل التي انارت ثقافة اليونان ، احياءها مرة ثانية على انامل الفلسفة العربية لهو احياء ذو مغزى يخفى على الجاهل . فان كلامنا يبدو غريبا ومثيرا للتمنع القابل الرافض في آن واحد .

وايا ما كان الانسان العالمي الان في ايما مكان وصلته يد الثقافة العالمية فانه ينطوي على محبة او احترام قابل او احترام رافض لاسماء من مثل (افلاطون ، ارسطو ، وسقراط) وسواء اكان هذا الانسان العالمي مثقفا ام غير مثقف فان الاسم المجرد للثلاثة المومأ اليهم يثير في نفسه شعورا بالاهتمام وسواء اكان ذلك الاهتمام قابلا ام رافضا فانه يحتل مكانا لا ريب فيه لدى اي نفس يصلها احد اسماء العقول الثلاثة المومأ اليهم .

وايا ما كانت المدرسة الفكرية التي ينطوي تحت جناحها الانسان في العالم فانها تنظر باهتمام لا ريب فيه الى الثقافة اليونانية .

ويشار في المعتاد الى الثقافة اليونانية على انها كلاسيكية . ومهما تعددت التعريفات المدرسية للفظة (كلاسيكية) فانها تنطوي دائما على مغزى ما من الخلود ، مغزى ما من مفهوم ما فوق الزمان والمكان مفهوم ما يحكم الزمان والمكان .

ويشار في المعتاد الى الامة العربية على انها واسطة ثقافية

حملت مهمة توصيل الرسالة الكلاسيكية اي الرسالة الخالدة من الحقبة اليونانية الى الحقبة الغربية المعاصرة .

وقد يهوى كاتب ما ان يبخس مهمة الامة العربية ثمنها فيقول انها لم تقم بأبعد من دور مؤقت في الحضارة الانسانية وهي تصل العالم القديم بالعالم الجديد . وقد يهوى كاتب اخر بان يمجد دور الامة العربية فيكلف نفسه مشقة التأويل والتحليل ليكتشف ظلالا لابداع الامة العربية .

ان الانسان لو توقف وتأمل لالتقى ببساطة بهذين النموذجين الغربيين من فكر الحضارة الغربية ازاء فكرة الامة العربية .

اولا : نموذج الحاقد المتعصب الذي يقتنص مواطن الضعف في الامة العربية .

ثانيا : نموذج العاشق المفتن بغموض الامة العربية . وانه لمن المألوف ان يقال (سحر الشرق) في نفس الغربي . وان صورة الغربي السائح المفتن بحجر هنا او اثر هناك من بلاد العرب لهي صورة غير محتاجة للتعليق .

وان الشرق الساحر في نفس الغربي هو في الحقيقة ليس الا الشرق الاوسط من الكرة الارضية . ومع ذلك فقد كانت الاشارة الى سحر الشرق مطلقة بدلالاتها محددة بواقعها . فالشرق في اطلاقه معروف جغرافيا ، ومع ذلك فالسحر الآخذ بالنفس انما يتوجه الى الشرق الاوسط حيث الامة العربية .

ـ على طريق الثقافة العربية المتجددة ـ

(٣)

. ما هي الثقافة العربية اصلا كيما يسعنا الحديث عن ثقافة عربية متجددة ؟

هل الثقافة العربية جوهرية ؟
ماذا يقصد بالثقافة الجوهرية وماذا يقابلها ؟

لماذا نكتب الان عن ثقافة عربية ونصفها بامكانية التجدد ؟

اين يقع مصطلح ثقافة عربية من مهمة القومية العربية كدافع وجود جماعي ذي رسالة في العالم المعاصر ؟ او مهمة الوحدة العربية كشكل سياسي ومشروع الوجود الجماعي الموعود والذي يخطو ويتراجع ويظل مع ذلك مطروحا كشكل غير متحقق مدفوعا من القومية العربية كعقيدة فاعلة مستمرة في حياة مجموعات بشرية كبيرة ٠

هذه بعض الاسئلة الاساسية التي نحاول معالجتها على ضوء واحد جوهري نسميه الثقافة العربية ونصفه بقابلية التجدد ٠

وبالفروع تنفك الاسئلة الاساسية وتتفرع الى غصون من الاسئلة الهامة قد نشير الى بعضها في هذا المقام محض اشارة عابرة لتعود وتتخذ مكانا لها واضحا في متن هذه المحاولة النظرية التصدي لمشكلات العروبة ٠

بعض تلك الفروع من المعالجة سوف يحمل وجهات نظر في مشكلة العروبة امام الصهيونية ، ومشكلة العروبة امام الامبريالية كظاهرة عالمية راهنة ٠

في مجمل الكتابات القومية المعاصرة يشار الى القومية على انها مسألة جوهرية فهل هي كذلك ؟ يرى الكاتب ان ثمة مفهوما واحدا مقبولا لتعريف جوهرية القومية العربية وتحديده ٠ وهذا المفهوم يضع (الجوهر) في مقابل (الظاهرة) فالمعنى المقابل والمضاد لجوهرية القومية العربية هو ظاهرية القومية العربية ٠

ان مفهوم القومية العربية على انها جوهر نفس عربية ، جوهر يرمز الى وحدانية مصير الجماعات البشرية العربية في شتيت اقطارها ، هو مفهوم ذو اصالة مرغمة وان له مغزى مصيريا ، واقول دون تردد « مغزى قدريا لاراد له » فهكذا تطرح جوهرية القومية العربية ذاتها اذا كان للفظ معنى ٠

اما ان تكون القومية العربية « ظاهرة » فذلك هو المفهوم المضاد تماما للمسألة ٠ فاذا كانت القومية العربية ظاهرة فانها تكون بالضرورة محدودة بزمان منظور ، والاهم من ذلك فان طرح القومية العربية على انها ظاهرة يعني بالضرورة الملزمة انها منفعلة لا فاعلة ٠ وبالتالي فانها حصيلة مجموعة من المواضعات الدولية والمحلية بكل تفريع تلك المواضعات ، وبالتالي فليس لها وجود مستقل عن مجمل المواضعات المتفاعلة من دولية ومحلية ٠

فاذا كانت القومية العربية ظاهرة فحسب فهي اذن قابلة لان تحسب ٠ والاصالة في عملية الحساب هذه سوف تكون لمجمل الظروف الدولية الراهنة في مقابلة مجمل الظروف المحلية لكل قطر عربي ٠ ولسوف ينتهي الدارس (اعني دارس القومية العربية باعتبارها ظاهرة) سوف ينتهي الى التحكم بمصير القومية العربية اذا امتلك عناصر الفعل في مجمل المواضعات المشار اليها ٠

فمثلا (وعلى سبيل المثال فقط) ان دولة قوية عظمى مثل الولايات المتحدة تملك قطعا عناصر الفعل في مجمل الظروف الدولية الراهنة ٠ واذا كانت القومية العربية ظاهرة لا غير فان دولة بهذه القوة تستطيع ان تسير بالقومية العربية في اي اتجاه وايما مصير تشاؤه هي ٠ وان الولايات المتحدة تستطيع استعمال الكومبيوتر استعمالا مجزيا في هذا الصدد ٠ (كل هذا على فرض ان القومية العربية مسألة ظاهرة لا مسألة جوهر) ٠

اما اذا كانت القومية العربية مسألة جوهرية فلسوف يعجز أي كومبيوتر في العالم على ان يرسم قدرها ومصيرها ٠ ذلك ان مفهوم الجوهرية يعني مفهوم نفس فاعلة لا منفعلة في المآل وان بدت منفعلة في حقبة تاريخية معينة ٠

اذا كانت القومية العربية ظاهرة فذلك يعني بالضرورة انها قابلة للتحليل ٠ وذلك مغزى اخر من مغازي المقابلة بين الجوهر والظاهرة ٠ فالتحليل هو عملية فعل والظاهرة سوف تكون بالضرورة محل الفعل ، اي سوف تكون منفعلة وعلى سبيل المثال فقط والمثال المشار اليه آنفا تستطيع الولايات المتحدة ان تحلل القومية العربية اي ان تتخذ الدور الفاعل وسوف تكون القومية العربية محلا لتحليل اي منفعلة اي بالتالي ليست الا ظاهرة من احدى الظواهر التي تتأثر بجوهر خارجي فاعل ٠

وعلى العكس تماما فاذا كانت القومية العربية جوهرية فانها بالضرورة تملك ارادة فاعلة لا تنفك عن مفهوم جوهريتها ٠ وبالتالي فمهما بدت مهزومة منفعلة في حقبة تاريخية معينة فانها سوف تكشف عن ارادتها المدخرة الفاعلة ذات يوم ، واذ ذاك واقول اذ ذاك فقط سوف يعرف جوهر العروبة التي سميت بالقومية العربية في حقبة معينة من حقبات التاريخ ٠

ومنذ هذه اللحظة صاعدا في بحثي هذا ، فان اللفظ الاساسي الوارد سوف يكون « العروبة » ولسوف يكون هذا اللفظ تعبيرا عن جوهر العرب الذي اؤمن به ، والذي اؤمن به على انه حقيقة مصيرية واؤمن به على انه حقيقة جوهر قدرية لا راد له ٠

ومن العرضي والمحتمل بل ومن المؤكد ان يرد في سياق بحثي هذا الفاظ من مثل القومية العربية او الوحدة العربية او العدالة بالمفهوم العربي ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠٠

ولكـــن ٠

وباعتباري انسانا عربيا يؤمن بان كل ذلك وسواه يصدر بصفة الظواهر عن جوهر مؤكد لاراد له هو العروبة ، فانني اتكلم عن جوهر فاعل وهو جوهر يتعدى كل الظواهر من كبراها الى صغراها في هذه الحقبة السوداء البائسة ٠ وهو جوهر لم يفصح بعد عن ارادته الكامنة الفاعلة ٠ وهو الجوهر الذي اسميه « العروبة » وان هذا اللفظ الذي طالما تعثر على شفاه صادقة تشعر به ولا تكاد تستبين حقيقته ٠ نعم ان هذا اللفظ هو جوهر ٠

لو كانت القومية العربية ظاهرة لتعين فهمها فهما سياسيا بالاصل وكل ما عدا ذلك سوف يكون فرعا من الاصل ٠

ولو كنت افهم القومية العربية على انها ظاهرة بدأت في القرن التاسع عشر لما اضفت في بحثي هذا حرفا الى حرف ، وايضاحا اضيف بأنني لا اكتب بحثي في السياسة على الرغم من ان بعض الاشارات السياسية سوف تجيء في متن البحث ولكنها تجيء فروعا للاصل ولن تكول هي الاصل ٠

يحاول هذا البحث ان يتقرب من مشكلة العروبة باعتبارها ظاهرة حياة ٠ فاذا كان الامر كذلك فان العروبة « نفس » ولها جوهر حي في الاعماق ، وسيماء ملامح وقسمات في الظواهر ٠

فيجب ان يكون واضحا اذن ، ان منظور هذا البحث مسلمة غير قابلة للنقاش على الاطلاق مثل بداءة علم الهندسة الاولى ، وهذه المسلمة التي سندور حولها تقول بأن جوهر العروبة الذي اتخذ شكل امة بدءا من شخصية « محمد » هو جوهر حياة ما تزال مستمرة وانها قد غفت لبضعة قرون ثم استيقظت في نهاية القرن العشرين، لا يهمنا تحديد شاهد زمني على يقظة هذه النفس وانما تهمنا حقيقتها ٠

ان تعبير « اليقظة العربية » يصبح بهذه الطريقة من التفكير حقيقيا لا مجازيا ٠ فاذا قيل هذا بحث لا علماني فان النتيجة هي غاية التقبل والرضى ٠ واذا قيل هذا بحث لا منهاج له فان الكاتب يكون مغتبطا ٠

« تعرفهم من سيماهم » ٠

« في القرآن الكريم وهو ينبيء عن المؤمنين الذين على وجوههم اثر السجود » ٠

وهكذا تعرف العروبة معرفة سيمائية لا معرفة منهاجية ، تماما كما يتعرف الانسان الى وجه حبيبته وسط الزحام وليس كما يعرف جدول الضرب في علم الحساب مثلا ٠

هذه هي المعرفة السيمائية ٠

فاذا قيل ان الكاتب مدين لاشبنغلر بهذا الضرب من المعرفة فان اول واجبات الامانة ان يعترف الكاتب بهذا الدين الكبير ٠ ولكن الحقيقة تقتضي ان يقرر فورا بأن جوهر نفسه العربي يجعل الكاتب على طرف التضاد مع اشبنغلر في كثير من الحقائق الاساسية الكبرى المتصلة بمشكلة العروبة وبشكل خاص فيما يتعلق بمصيرها النهائي ٠

انني اختار عن سابق تعمد كلمة « عروبة » بدلا من مصطلح « القومية العربية » فهذا المصطلح الاخير اصبح نمطا لمناهج سابقة في التفكير ، مناهج ليس من شأني هنا ان اقف لمناقشتها ولا حتى ان اعرضها لولا بعض احتياج للايضاح ٠

كلنا يعرف ذلك المناج القائل بأن القومية العربية هي جماع من العنصر والمعرفة والتاريخ المشترك والتقاليد والعادات المتقاربة والمصالح المشتركة ٠

نحن لا نقول بنفي هذه الجزئيات الواقعية ولكننا ننفي طريقة التفكير القائمة على جماع جزئيات والعاجزة عن الاقتراب من حياة الوحدة التي نسميها « عروبة » والتي نفرق بين جوهرها واشكالها الخارجية ، اذ في هذا التفريق نفهم الايمان المصر على العروبة اي : على الجوهر الدائم الحي منها ٠ ونقبل بل ونسعى الى تطور اشكالها الخارجية بما يجعلها قادرة على الاجابة على التحديات المتجددة ٠

كلنا نعرف ذلك المنهاج الذي حاول ان يحشر العروبة ضمن معسكر سياسي دون اخر باعتبارها جزءا من التحرك الاشتراكي ضد السيطرة الامبريالية واستغلالها ٠

نحن نؤكد على مواجهة العروبة الاقتصادية المريرة للاستغلال الامبريالي المزود بطاقات هائلة من الخبرات والانجازات التكنولوجية ، والمندفع برغبة الربح والذي لن يجد وازعا لامتصاص جهود كل الشعوب الا اذا قامت تلك الشعوب باقامة كيانها القوي الذي وحده يوقف الاستغلال ويحسره ٠

اما في الهجوم الثقافي فان ثقافة كلا المعسكرين بل واية معسكرات اخرى خارجة عن العروبة هي ثقافة غريبة يجب ان يرفض جسم العروبة وأن يستبدل بها دم ثقافته الخاصة .. مع تحفظ كبير الح عليه وهو ان العروبة الحية السليمة تستطيع ان تهضم خير ما في ثقافات الامم الاخرى كما هضمت من قبل ثقافات اليونان والروم والفرس وغيرهم من الشعوب .

ان قابلية الهضم هذه من المؤشرات الدالة على حياة العروبة وافتقاد هذه القابلية يعني موتا ، ولن يكون موت باذن الله .

ومن اجل ان اجلو هذه المسألة اكثر اقول :

ان صرخة الاحتجاج ضد الظلم الاجتماعي المتمثل بفروق طبقية هائلة تقيم فئات مترفة مقتولة ترفا ، واخرى متضورة مقتولة جوعا . أن هذا النداء الانساني الحار اصبح نداء البشرية كلها .

والعروبة كشكل اقتصاد سوف تلبي هذا النداء تلبية انسانية متقدمة . قد تهتدي مثلا في بعض التطبيقات بنظام ضمان اجتماعي متقدم في بلد اوربي وقد تهتدي بتطبيق نظام زراعي معين بتجربة من الصين .. الخ

ان على العروبة ان تهضم ارفع ما في تجربة اشكال العدالة الاقتصادية من قابلية عملية لدى كل الشعوب . ويجب ان تهتدي بتجارب الاخرين وكل هذا رهن بظرف مرحلة او اخرى . ولكن الاهم من كل شكل اقتصادي ذلك الجوهر الذي سوف يجلى عنه ركام النوم اكثر فاكثر ، حيث تستعاد في الاذهان والوجدان شخصية « محمد » « نور العروبة » والتي ستكون العدالة بعض جوانبها المؤكدة الملحة . وستكون امكانية صياغة الاطر والاشكال بعض قدراتها المتجددة على ان تلقى لكل مسألة من مسائل العيش جوابا واطارا نابعا من الجوهر .

(تعرفهم بسيماهم) .

فسيماء العدالة الاجتماعية المتقد[illegible] لن تخفى على العين من

اول نظرة • ومجتمع العروبة المسلم لن يكـون لـه جوهر العروبـة المسلمة دون ان تلمح العين سيماء العدالة بنظرة واحدة تلقى على بنية المجتمع •

وكل ما عدا ذلك سيكون اكذوبة فلا هو اسلام ولا هو عروبة •

وما دمت ، استعرض سريعا بعض مناهج القومية فلا بأس بأن اشير الى ذلك المنهاج الذي اعتمد اساسا له فاعلية الواقع الجغرافي ففكر بوحدات عربية صغرى من مثـل سوريـا الطبيعية والمغرب الكبير •• الخ تربط تلك الوحدات الجزئية في المآل ضمـن اطار مـرن •

والمرء طبعا لا يمكن ان يعترض علـى وحـدات صغيرة تضم بمرونة الى وحدة كبرى ، والمناقشة التي وجهت ضد هذا الضرب من التفكير القومي قد تكون التجـأت الـى ضرب مـن المهاتـرات الكلامية ، قد تلخص بهذا السؤال « من تهمه وحدة العرب اكثر ؟ ومن يخبيء نوايا قطرية تحت ستار القومية ؟ » •

ولكن تلك الحروب الكلامية على طريق البحث عن نظرية او منهاج للفكر القومي لم تبق مناهج يستقل الواحد منها عن الاخر ، بل سرعان ما بدأت تنهار الجدران المنهاجية التي اصطنعتها وبدأ كل منها يؤثر في الاخر او يتأثر به او تقوم العمليتان المتبادلتـان معا •

ورغم انه ليس مما يفيد هذا البحث ان يسمي الاحـزاب باسمائها لانه يبحث عن حقائق ابعد من الوقائع الزمنية • رغـم ذلك ومن اجل مزيد من الايضاح اشير سريعا الى ان الفكر القومي المنهاجي لحزب البعث سرعان ما اخترق بهجوم الفكر الماركسي الذي اعتبر العروبة جزءا من المعسكر الاشتراكي • وكذلك فـان الاحزاب الشيوعية عانت من الضغوط الملحة على ان الامة العربية حقيقة مستقلة فاعترفت على استحياء بواقع قومي عربي • وعانى القوميون السوريون من زوابع مشابهة •

وليس من شأننا في هذا البحث ابدا ان نقيم تجربة الاحـزاب المشار اليها او غيرها • اننا نشير الى نظرياتها كمناهج فكر قومية

عانت ازمة الفكر · اما الفاعلية الواقعية لتلك الاحزاب او غيرهـا فلسوانا ان يقيمها او لعلنا ان نقيمها في غير هذا البحث الذي يضع هدفا ثابتا يسعى اليه ·

ولان الاحزاب احدى الاشكال اللانهائية في سيماء العروبة ، فقد كانت مضطرة لان تنظر « للقومية العربية » نظرة منهاجيـة ذرائعية تستقطب جماهير العرب الظامئة لاية فكرة مبسطة تلبي ذلك النداء اللامحدود في اعماقها · نداء النفس العربية المستيقظة والشاعرة بكيانها شعورا حادا قلقا ·

فمن حيث انها اشكـال عمـل سياسيـة فلسنا معنيين هنا بمناقشتها · اما من حيث انها نظريات تتناول المشكلة العربية بالوعي فاننا ننعي على كـل نظرياتها ذلـك القصور عـن ادراك الجوهر الدائم في العروبة والذي نقدمه على انه جوهر نفس ونفصله عن السيماء والاشكال كلها ·

« امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » ·

هذا هو الشعار المنهاجي الكبير لاهم الاحزاب القومية في تاريخ العرب المعاصر ـ اعني « حزب البعث العربي الاشتراكي » ·

وكما قلت آنفا فان هذا البحث لن يهتم بتفصيلات اي واقـع « سياسي ·· اقتصادي ·· اجتماعي ·· الخ » ، الا بقدر ما يكون ذلك السيماء الظاهري كاشفا عـن جوهر العروبة منبئا عنها · اذن فلا يهمني في هذا المجال تاريخ حزب البعث الواقعي · اما فـي صعيد النظرية فاشير الى تصور جلي من منظوري الخاص ··

قد نفهم من « امة عربية واحدة » ان المقصود هنا هو قدر المصير وهذا امر رائع فيما يتعلق بمنظورنا ، (واما الفهم الاخـر الذي ليس من اهتمام الكتاب فهو تحديد الشكل السياسي للامة الواحدة كذلك النقاش بين الوحدة الاندماجية والاتحاد الفيدرالي ·· الخ · كل تلك اشكال وليست هي الجوهر ·· اما المصير فهـو الجوهـر) ·

وفيما يتعلق بالشطر الاخر من الشعار « ذات رسالة خالدة ٠٠ » ٠

فانني أؤمن به فقط على انه مفهوم جوهر العروبة المسلمة او الموحدة ٠٠ ولم يكن ذلك هو مفهوم الرسالة العربية في الشعار ٠٠ بل في الحقيقة ان الرسالة الخالدة ظلت دون ادنى مفهوم واخذت على الدوام من زاوية تشجيعية افتخارية عاطفية فقط ودون جذور ولا وريقات من ايحاء ٠

لعلنا قد سارعنا اكثر مما ينبغي في طرح غاية البحث ولعل هذا التسرع ان يؤدي الى تشوش مبكر واعتكار في الرؤية من اجل ذلك لا بد ان نشير الى ان للاسلام ايضا جوهره واشكاله وجوهره الجلي هو شعار صلاته وحروبه ٠

لا اله الا الله ٠

وسوف نجلو رويدا رويدا كيف نحن نضع كلمات « العروبة » ، و « الاسلام » و « التوحيد » فتدل اية كلمة منها على الاخرى تماما كما تشير الصفات الى الذات في اسماء الله الحسنى وما يستغرقه اسم ولا صفة : له ما لا يتناهى من الاسماء والصفات وهو ذات واحدة ٠

ولقد يخال اننا اذا نصف المناهج القومية السالفة الذكر (او غيرها من مشابهاتها) بالعجز ، فانما نحاول ان نقيم على انقاضها منهاجا لاحقا او بديلا ٠ والحق ان ذلك ليس مبتغى هذا البحث لاننا لا نحاول اقامة نظرية لحزب قومي جديد ، ولا ان نرمم نظرية حزب قومي موجود ٠

ولكننا نصر على القول بأن فشل اية نظرية قومية او منهاج تبناه شخص او فئة قومية لا يعني ابدا فشلا لجوهر العروبة ، واذا استطاع هذا البحث ان يساهم بجهد متواضع بتدعيم هذا الشعور وان يساهم في محاربة اليأس الذي يضغط النفس العربية ويغريها بالنوم مجددا ، اقول : اذا كان للبحث اية مساهمة في هذا المجال فذلك مبعث امتنان وشعور بالشرف ٠

وفي كل الاحوال فان انقشاع اليأس وعودته وانقشاعه محددا ، هو جزء من طبيعة العروبة وقدرها · ان التوقع السريع لقطف ثمار الظفر جزء اصيل من طبيعة النفس العربية ولهذه الطبيعة وجهان متضادان ·

– فمرة تتجلى هذه الطبيعة المتسرعة ايجابية قادرة فعالة في مجال الواقع بشكل باهر قد يوصف بالاعجاز ، وليس ادل على ذلك من زوبعة الفتح العربي الاسلامي التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الفتوحات المستقرة · فبعد قرن ونيف من السنوات على دعوة محمد في مكة ، تلك الدعوة التي ضيق عليها الخناق وظلت عشر سنوات لا تكاد تجاوز في انصارها عدد سكان عمارة حديثة من عمارات اليوم · اقول بعد قرن ونيف من السنوات على تلك البدائية البسيطة كان العرب قد وصلوا حدود الصين شرقا وحدود فرنسا غربا · واقاموا ذلك الصرح الذي لا يحتاج لمزيد من وصف ·

– ومرة اخرى تبدو تلك الطبيعة المتسرعة عاملا سلبيا هداما وذلك حين تواجه النفس العربية نكسات جدية فتتمزق على ذاتها وينفرط عقدها وتميل للاشفاق على الذات · وتغري بالانصراف عن رسالتها وهو ما نسميه في حالة الامة بنوم الروح القومية ·

وقد عانى محمد طبيعة هذه النفس العربية معاناة مريرة واننا لنجد في القرآن شواهد ليس هنا مجال ذكرها على توبيخ لسلبية تلك الطبيعة واذكاء ايجابيتها · فالتذكير المستمر بثواب المؤمنين حملة رسالة العروبة المسلمة وعقاب المنافقين والمتقاعسين والكافرين بها ، وقد كانت هزيمة احد مدعاة لنزول ابلغ آيات التعزية على المصاب ، وكثر من الآيات الحاثة على استئناف الروح الايجابية الفعالة ·

وهنا تتبدى الحاجة التي طالما أشير اليها وهي حاجة العرب الى الزعيم الفرد · وان رمزية محمد الخالدة في مجرى تاريخ العروبة تفيض في واحدة من جهاتها المتعددة بأنه قد اختزن في شخصيته مطلق الايجابي من هذه الطبيعة وبه عالج السلبي منها ·

وها اننا الان ومنذ الستينات من نهاية هذا القرن العشرين نتعثر خطوة بعد خطوة حتى اذا كانت الحرب الكبيرة ١٩٦٧ حيث كان كل عربي تقريبا يتوقع نصرا سريعا حاسما يلغي اسرائيل نهائيا وعلى نحو شبه اسطوري ، وعندما حلت الهزيمة تمزقت النفس العربية وكأنها قدح بلور شفاف يسقط ٠

ان الايمان بجوهر العروبة الحي يجعلنا ننظر الى هزيمة ١٩٦٧ والى الهزيمة او سلسلة الهزائم التي سوف تتبع نظرة هادئة تنبعث من شعاع شخصية محمد الذي كان يقول قبل «صنيات صن» بثلاثة عشر قرنا « هذه مجرد الهزيمة رقم ١ – ٢ – ٣ – ٠٠ الخ » ٠

هذا هو واقع السنوات البائسة والاخيرة والتي اهم بكتابة هذا البحث في خضمها فلولا ان يساء فهم مقصودي بما يتجافى وغاية البحث الكبرى لفصلت اكثر فيما يتعلق بالحادثة الجزئية المسماة نكسة حزيران وما تلاها ٠ ولكنني ان شاء الله لن اكون ضحية أية خشية عندما اعالج في فصل مستقل المسألة الفلسطينية بمجملها كاحدى الاشكال الهامة في سيماء العروبة الحديثة ٠ العروبة التي تحيا ٠

اذن فليس هدفنا في هذا البحث اقامة اية نظرية منهاجية للقومية العربية لاننا لا نفكر بامتداد لتلك التجارب المتعددة السابقة ، والتي رأت أن الطريق الوحيد لانجاز الرسالة العربية هو في الاستيلاء على الحكم بطريقة او باخرى واصدار الاوامر من عل ٠ وانني لاعرف بشكل يمحق القلب ان وجدان كثيرين جدا من القراء سوف يتوجه الى التالي :

اذن فهذا البحث خصص بقصد الدفاع عن انظمة الحكم العربية الراهنة وللحض على عدم التصدي لاجهزة الحكم الفاسدة ٠

فبالنظر الى الاتية يكاد يكون كل شكل ظاهر من واقع الامة العربية فاسدا ، وان انظمة الحكم فاسدة ايضا من حيث انها لا تجسد جوهر العروبة ٠ ولكن المواطن العربي الفرد فاسدا ايضا في ما لا يحد من مواقع فكره وخلقه وسلوكه ٠ ولولا انني اسمع

نبض الانسان العربي وادرك كيف يتوجه هذا التوجه السريع المرتاب لما وقفت وقفة كهذه .

انها لمسألة غاية في السذاجة ان تقارن شخص عبد الناصر بقصوره وانجازه وبكل ما له وما عليه ان تقارنه شخصا او رمزا بالملك فاروق مثلا .

ولكن هذا البحث يتوجه الى المستقبل لا الى الماضي ، بل واكرر وألح لا يتوجه الى الحاضر ايضا الا بمفهوم استحثاث الحاضر .

وقد يفكر الان وفي هذه اللحظات بالذات عدد من الاشخاص وفي مكان ما من الوطن العربي الكبير بانه يتوجب عليهم ان يستولوا على الحكم ، فليس لدي ما اقوله لهم تشجيعا او تثبيطا في غايتهم تلك . اما فيما يتصل بسؤال العروبة فانه يتوجه اليهم والى ذلك الذي يقصدونه ، وهذه الحقيقة لا تعني ايضا انهم سواسية بل تعني ثبات جوهر العروبة ومخاطبته حتى لابي جهل المعاصر .

ولكن هذه وتلك ليست اطروحتنا ، ومع ذلك فتتوجب هذه الاشارات المتعاقبة لانني لا اتوجه الى التاريخ المطلق ، مع انني احاول اختبار تاريخ العروبة الخاص المطلق . انني ايضا وقبل كل شيء احاول ايقاظ النفس العربية جهد طاقتي وبقدر ما يستطيع فرد واحد ان يفعل .

اتوجه اذن الى الانسان العربي الممتلىء شكوكا وارتيابا ، فيتوجب علي اذن ان اتكلم من نفسه . وان هذه النفس الشكوكية الممزقة لترى جلبا في هذا الشكل البائس من التفكير الشكل الذي نلخصه بـ (قل لي من اكتسبت من الاعداء اقل لك ان كنت مخلصا ام لا . قوميا ام لا . وطنيا ام خائنا تستحق الاعدام) .

ولكن محمدا لم يكن يحدد باعدائه بل بدعوته التي تترك حيزا رحبا لكل البشر .

(وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) .

وهو الذي في اوج صراعه المرير القاسي مع اليهود وقف لجنازة يهودي فاستغرب صحبه وقالوا :

ـ لكنه يهـودي !

فقـال :

ـ أوليست نفسا ؟ • قفوا •

ان الرائد او الرواد او الامة الرائدة لا تعرف باعدائها (مـع انه سيكون لها في كل وقت اعداء) وانما تعرف بالرسالة التـي تحملها ، واذن باصدقائها المفترضين سلفا (جاءكم رسول مـن انفسكم) •

وفي التاريخ الحالي المنظور جهارا نجـد اليوم عربا يعادون روسيا باسم امريكا او يعادون امريكا باسم روسيا اكثر من عداء روسيا وامريكا احدهما للاخر • (الا ساء ما يأفكون) •

وكشكل سياسي محدود بالزمان والظروف نجد ان موقفا غير شديد الاحكام سمي ذات يوم « الحياد الايجابي » قد جوبه للوهلة الاولى بعداء امريكا ثم بعداء روسيا ثم بصداقة امريكا وروسيـا لمصر ، وكان ذلك جزءا من العبقرية التي مثلها عبد الناصر • وكان الانهيار الحزيراني نتيجة محتمة للحظة العروبة غير المستعدة ، وعبد الناصر كان في المجرى فيحكم عليه بالخطأ من هذا المفهوم ، ولكن لا تنسى له قط ملامح عبقرية العروبة التي مثلها مؤقتـا • وسوف يبزغ من يمثلها مؤقتا بعده وسوف يخبو ويبزغ غيره والنهر يجـري •

(من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فالله حي لا يموت) •

هذه كانت كلمات ابي بكر في اجتماع سقيفة بني ساعدة في اللحظات الحرجة التي تلت موت الرائد الاول والاخير محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم • وكان ذلك الاجتماع احدى المنعطفـات الحاسمة في تاريخ العروبة • ووجدت العروبة في شخص ابي بكـر ليسير في طريق المصير العربي الاسلامي الذي لاراد له •

وكلنا يعرف ان ذلك الاجتماع كان حاسما لان رسالة الاسلام كانت تتأرجح بين يد الظفر الممثلة في اصدقاء محمد المهاجرين ،

ويد القطرية المحدودة جدا الممثلة في مصلحة الانصار المؤقتة جدا والتي لا رسالة لها ممثلة في سعد بن معاذ فلو انه فاز بالخلافة لخابت قضية العروبة الاسلامية ، ولكنه قدر مضمر • انها لا يمكن ان تخيب •

وكان كل شيء يبدو وكأنه سينهار وهو لن ينهار لان شخصية ابي بكر كانت مرصودة بقدرها وليست مجرد صدفة عشوائية فاوقفت كل تلك الدهشة العربية البائسة لوفاة محمد • ووضع حدا حاسما للصغار الرعاع الذي كانت ستمثله مصلحة مدينة يثرب في مواجهة مدينة مكة • واعلن ان محمدا قد مات كشخص • مات نهائيا اما الله فحي لا يموت ••

وبالطبع فان عبد الناصر هو احد رموز العروبة المستيقظة وقامته العالية علينا القصيرة جدا الى جوار محمد ، ظلت مع ذلك محل نقاش رمزي يشبه العبادة لفئات نسيت القضية التي كان عبد الناصر مجرد شكل قائد فيها •

وبكلمات اخرى نقول اذن : ليس هدفنا في هذا البحث ان نمتطي امواجا تشبه العروبة وليست هي حقيقتها وجوهرها ، بل ونرجو الله ان نكون صادقين : انما نهدف الى تقديم قربان الى العروبة •

اذن فهذا البحث بكل ما قد يتضمن من حجج ومناقشات يحب كاتبه ان يرى على انه طقس او شعيرة في مجال فكرة موحدة عربية•

ولسوف نغامر ونكشف اولى الحقائق اليقينية التي تلوح لاعيننا من وراء كل جدل •

الحقيقة تقول :

(ان اول مؤسسة ذات شكل جماعي عبرت عن جوهر العروبة المتطلع الى تكوين ملامح وقسمات هو سوق عكاظ) •

ولعلنا نصطدم بكل المفاهيم الخاطئة التي ما زالت تتحكم بالنظريات القومية العربية المعاصرة ولسوف نواجه جيشا لا يحصى له عدد من اخصائيي التاريخ وعلماء الاثار واللغات •• الخ وكل سيثبت من خلال حفرياته بأن تاريخ العرب يبدأ قبل عدة قرون او ربما بضعة عشر من القرون قبل هذا الشاهد الزمني المختار في نظرتنا •

ونحن لا يمكن ان نناقش ايا من تلك الحجج لاننا نتحدث عن حقيقة يقينية غير قابلة للنقاش وليس يهمنا قط ما علاقة عنصرنا بالهجرات السامية السابقة ، ولا صلة اللغة العربية بالفينيقية مثلا وذلك لسبب فاضح في دلالته ٠

فجوهر نفس العروبة الذي نشير اليه هو ذلك الجوهر الحي المستقل بخصائصه عن كل مقدمات له ٠ وهو المعبر عنه بثقافة او قل بلغة استعملها الان في هذا البحث ٠

وما كنت لاتردد في ان ابدأ تاريخ العروبة منذ النقطة الزمنية التي بدأ بها محمد دعوته الموحدة لشتات العرب والمكلفة لهم برسالة ينتمون اليها بالحاح ، ما كنت لاتردد بذلك لولا انني اعتبر رمز سوق عكاظ (قل الشعر الجاهلي ان شئت) هو بكامله ارهاصا ملحا بالدعوة المحمدية ٠

وبالطبع فان سوق عكاظ هو التعبير المشهود الجماعي الذي في اطاره تمخضت لغة عربية ناضجة عن حيوات تلك القصائد (الحيوات الصغرى) ، المشيرة بشكل ضاغط الالحاح والتركيز الى ميلاد الروح العربية ٠

ان هذا الاعرابي الواقف تحت الشمس قد جاء من اطراف شظف العيش الصحراوي واجتمع الى نثار من اخوانه الملوحي الوجوه ، وتنافس احدهم مع الاخر كلمة الى كلمة كصراع حربة مع الحربة في بهائه ٠ ولكنه صراع نبيل في باطنه لانه يبحث عن الميلاد المتجوهر لروح عربية تحملها كلمة عربية ، وليس صراعا من اجل القتل ٠

ولسوف اعود الى معالجة ميلاد الروح العربية بالمفهوم الذي ننتمي اليه الان ومعالجة سوق عكاظ كمنظور ثقافي روحاني معين ٠

اما في هذا المقام فأود ان افصل قليلا حول اثر هذه النظرة على المناهج السالفة في الفكر القومي ٠ عندما يتبنى الماركسيون فكرة وجود امة عربية فانما يتبنونها كاحزاب شيوعية ذات اهداف سياسية مؤقتة ، اما في الصلب النظري للعقيدة فانهم يتناقضون

مع انفسهم . فالفكر الماركسي اصلا يرفض ان تكون ثمة خصائص جوهرية لامة . لانه في اية امة جوهر نفس بالمعنى الذي قلنا به ، ولذا فان محاولة وضع منهاج لفكر ماركسي قومي هـو ضـرب من التلفيق وخدع الفئات السياسية ومناوراتها في حدود نظرة برجماتية مؤقتة ولن تصمد لعصف مصير الامة .

ان الفكر القومي الاصيل ينظر الى الامة كظاهرة حياة « شجرة مثـلا » ولا يفتعل مزيجا من الافكار التي هي ردود فعل واقع جزئي ليصل الى اهداف مؤقتة .

ان الفكر الماركسي وفكر العروبة لا يمكن ان يلتقيا من حيث انهما تشخيص نظرة الى الكون . وفي الجهة الثانية سوف نضـع كل النظريات والمناهج القومية في كفة واحدة فنقول انها تتلمس اساسا للنظرة القومية ولا تكاد تقترب منها .

ان شعار « امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » لهو شعـار صحيح مئة بالمئة ، لو كان واضعوه قد وفقو االى استكناه المغزى الحقيقي وراء الامة الواحدة والرسالة الخالدة . ولكن كأنما بضرب من الوحي تليت هذه الكلمات على قائلها وترك هو ومن بعده حائرين بمعنى الرسالة التي وصلت اليهم . قرأوا ان القومية جماعا بـين العنصر والتاريخ والعادات والاهداف المشتركة . انك لو امتحنـت كل عنصر من عناصر التفكير بهذه الطريقة لانتهيت في لجة .

ان شخصية محمد لذروة تعبير عن روحانية عربية وقد كشفت حياته ورسالته بشكل متكامل عن رسالة العرب المسلمة ، والتـي تلخص بكلمة واحدة شاملة لكل جزئياتها مانعة من الالتباس بأية رسالة حملتها دعوة او امة اخرى كلمة « التوحيد » في ثلاث وعشرين عاما من حياته الفريدة في مغزاها كان محمد قد وضع الاساس الخالد لرسالة العروبة الموحدة « لا اله الا الله »

تلك هي الحقيقة التي ظل محمد ينتظرها بعناء ومشقة وهو يغدو الى غار حراء . كان مدعوا لشيء ما غامض لا يكاد يستكنه ما هـو ؟

وكانت نفس محمد معذبة ممزقة بذلك الانتظار الشاق واننا نحتاج لقدر هائل من مكنة اختبار تلك التجربة في وجداننا قبل فكرنا لنستعيد مدى التمزق الذي عاناه محمد وهو ينتظر يوما بعد يوم ، شهرا بعد شهر ، عاما بعد عام ، ينتظر شيئا لا يعرفه ٠

وبوحي من الله توحد شتات نفسه وكان ذلك هو الاساس لتوحيد شتات عشيرته الاقربين اولا ، ثم توحيد شتات القبائل العربية ثانيا ٠ وكان مغزى ذلك ولادة امة تحمل رسالة فريدة ٠

ولم تكن « لا اله الا الله » محض كلمات ترن رنين وعاء معدني خاو كما احيلت في عصور اخيرة ، بل كانت سلسلة محكمة من الواجبات الملزمة في كل منحى من حياة الفرد والجماعة تهدف قبل كل شيء الى صقل الانسان العربي مسلما قادرا على حمل رسالة تسمو بمعنى الانسان وترتفع بشأن روحه الى الله باريه ٠ وكانت تهيئة له كي يرث امبراطوريتين منهارتين ٠ وقد دقت ساعة الانسان كي يرفع رأسه من نير الرق والاذلال والجهل ، فكل هذه ومشتقاتها وتوابعها هي حجب تكفر (اي تغطي) الجوهر الالهي المودع فيه واللائق بالتكريم ٠

ان الفتح الاسلامي يظهر لكثير من الدارسين ولا سيما الغربيين منهم كزوبعة عجيبة غير قابلة للفهم والتحليل وقد اشير اليها على انها معجزة العرب ٠ والحق انها لمسألة تدعو لعميق التأمل ٠

فأول معركة حاسمة خاضها محمد كانت معركة بدر ، وكان جيشه يعد ثلاثماية رجل يزيدون قليلا ، وكان جيش العرب الذين لا يؤمنون بحقيقة (لا اله الا الله) يعد ما يزيد عن الف ٠ وتم النصر لمحمد او لدعوة الله الذي لا اله الا هو ٠

وكانت اخر معركة خاضها في حياته هي معركة فتح مكة وهي معركة سليمة تماما ، لم يقتل فيها وبكل ذيولها عشرة اشخاص ، وكان جيش محمد يعد عشرة الاف شخص وجيوش الكافرين غير قابلة للعد من حيث انها غير منظورة ، فقد دخل محمد مكة وهي

مدينة مفتوحة ورفع نداء « من دخل بيته واغلق بابه فهو آمن ٠٠ » وتوجه محمد فورا الى الكعبة والتي هي رمز توحيد اسلامي مجسد ، وكسر الاصنام هناك بكل ما ترمز اليه من تشتت في الولاء وشرك بالوحدانية ٠

ونستطيع اعطاء فتح مكة صفة رمزية لتوحيد الجزيرة العربية رغم ذيول حرب الردة فانها مع خطورتها تعتبر هامشية اذ كان من المستحيل قبول انبياء مثل مسيلمة كظاهرة قادرة على محاربة الرسالة التوحيدية ، ومنع الزكاة كان سيعالج آجلا او عاجلا ٠

ان المعارك التي خاضتها دعوة التوحيد بعد ذلك كانت في غالبيتها سريعة كخطف البصر ، وكانت نسبة المقاتلين العرب الموحدين في كثير جدا منها - ١ - الى - ١٠ - يقفون كاعداء لرمز التوحيد ٠

وهكذا اندفع العرب من جزيرتهم شرقا وشمالا فضربوا في الشرق امبراطورية فارس ضربات سريعة في وقت يكاد ينطبق تماما على اتجاههم نحو سوريا وفلسطين يريدون دمشق والقدس ٠

ولسنا بصدد تأريخ الفتح العربي وانما تجدر الاشارة المكررة الى ذلك الدخول الفذ لعمر بن الخطاب مدينة القدس التي اشترط بطريقها ان يسلمها لعمر شخصيا ، فوصل المدينة وخادمه راكب الجمل وهو يقوده وفي ذلك الوقت المبكر اعطى عهودا محترمة ، تعتبر تقدمية حتى يومنا هذا في حرية الاديان ، معطيا لاماكن العبادة المسيحية واليهودية ذات الحصانة التي يتمتع بها المسجد ٠

ومن الواضح ان اندفاعة العرب غربا كانت اقوى من اندفاعهم الشرقي ، ومن الواضح كما نرى الان ان الفتح الراسخ الذي اكتسب صفة ظاهرة حياة عربية هو ذلك الامتداد الغربي ٠

فتحت مصر باربعمائة مقاتل عربي وخلال حرب لم تبلغ الشهر زمنا ٠

ولم يكد قرن واحد (وهي فترة زمنية قد تستغرقها حياة انسان فرد) لم يكد قرن فقط ينسلخ من عمر التاريخ حتى كانت الدعوة التي بدأت برجل واحد في مكة توحد في رسالتها شمال افريقيا

وكانت اوربا تغط في نومها العميق المسمى تاريخيا بـ « عصور الظلمة » بكل دلالة الكلمة من غفوة الروح وانعدام القيم وشيوع انظمة اخلاقية اجتماعية اقتصادية كلها تحط من قيمة الانسان ٠

وهذا هو كامل مغزى فتح اسبانيا حيث احرق القائد العربي طارق سفن جنوده ، ففكرة التراجع لم تكن واردة في مخططه على الاطلاق ٠ وواجه جيشا تجمع كل المصادر على انه يصل عشرة اضعاف الجيش العربي ٠

لقد كانت رسالة العرب في اسبانيا مؤقتة اذ لم تدم الا سبعة قرون ٠

اما القطعة من الارض المترامية بين العراق شرقا الى حافة المغرب من المحيط الاطلسي ، فقد اصبحت جسد العروبة النهائي ٠

اما ما يقع شرق العراق فتلك مسألة نعود الى بحثها في فصل لاحق ٠

قلنا ان العرب قد دخلوا اوربا بعد قرن تقريبا من ظهور موحدهم ، وبعد خمسة قرون على ظهور محمد كانت اوربا ترد الزيارة الى جسم ارض العروبة بشكل مقزز ٠

وليس هذا بحثا في التاريخ ليتحدث المرء عن قصة الحروب التي سميت بالحروب الصليبية ، ولكن المرء المهتم بالمسألة يستطيع ان يجد في المراجع الغربية قبل العربية مقارنة بين القيم الروحية والتي تجلت في اشكال رائعة من العدالة الاجتماعية والمؤسسات الثقافية والعمران والفنون العربية الجميلة ، هذا من جهة العرب كطرف علاقة ، وبين كل معالم التدمير ووحشية المعاملة التي تضمنتها تلك الحروب التي سميت بالحروب الصليبية ٠ ومن الواضح انني اضرب صفحا عن محاولة العرب دخول اوربا من شرقها عبر سلسلة من معالجات لمدينة القسطنطينية على يد فاتح عثماني ٠ فذلك الفتح خارج عن نطاق التاريخ العربي وهي مسألة تهم الاتراك ٠

ومن الواضح ان حملة الاسلام هم العرب وانهم يوم ان اسلموا قيادة رسالتهم الى شعوب اخرى قد سقطوا الى الحضيض ·

ويا لها من مهزلة تلوح للوجدان المحمدي تلوح دامية يأتي العثمانيون باسم الاسلام ويستعبدون العرب انفسهم ·

فاذا كنت لا اقف عند تسلسل تاريخي ، فلأن هذا البحث ليس تاريخا بأي معنى وانا استحضر اية واقعة تاريخية فقط لاجعلها نور كشف اخر احاول ان اضيء به جوهر العروبة ·

ومن الشرق ايضا جاءت كارثة ، بل جاءت كارثة رهيبة لا يكاد يتصورها خيال · ومثل المغول ذلك الدور القصير المرعب في قصة حياة العروبة · وكانت العروبة منهكة تماما وعانت من ذلك الميل الذي لا يقاوم لان تنام · وفي منتصف القرن السابع بعد ظهور محمد كان جسد العروبة يمزق على يد الفتح المغولي لبغداد ·

ان قرون الانحطاط هي نوم كامل للعروبة · صحيح ان العرب قدموا كثيرا من الضحايا وان التاريخ يسجل بعض الانتصارات الباهرة خصوصا فيما يتعلق باجلاء الاوربيين حيث اختتمت الحروب التي سميت صليبية · بل ان العرب قد قتلوا في هذه الحقبة الطويلة كما لم يقتلوا قط · طبعا لان ميلهم للاستسلام كان يفتح شهية القتل عند الغزاة سواء أجاؤوا من الشرق ام من الشمال ام من الغرب · ولكن تلك الانتصارات ايضا يجب ان لا تكون محط فخر عربي مهني ضمن سجل التراجع ·

كانت العروبة تريد فقط ان تنام وكانت على استعداد لان تسلم رسالتها لاول طارق وكان هذا مقدمة ضرورية للسيطرة العثمانية على العروبة ·

وكان الدور الذي مثله العثمانيون بائسا للغاية · ولم يكن العرب جديرين باكثر من اداء وظيفة البقرة الحلوب لمستعمر جلف ليس لديه الا فضيلة القتل ، وهي والحق كافية لاستذلال امة مستنيمة ، ولكنها ليست الا رزيلة في نور الرسالة التي يتألق بها رمز محمد والفتوحات الجميلة التي نشرتها رايته ·

وعلى اية حال ففي القرن التاسع عشر كانت اوربا الغربيــة قد استكملت نشاطها الفتي ، وكان واضحا ان العثمانيين لا يملكون اية حقيقــة في مواجهــة روح كالتــي يمثلها الفرنسيون والانجليز وغيرهم من وحدة روح الغرب والتي كانــت بصــدد تصفية بعض حساباتها الداخلية بعضها مع بعض ، حتى اذا استقرت بعض النتائج المؤقتة في عمر التاريخ راحت تلك الدول تقتسم قطعا مــن جسد العروبة عبر الحروب او عبر اتفاقيات نظيفة او عبر مراوغة بين هذه وتلك • وهنا لاحت بعض الرعشات على اطراف الجســد النائم • ففي هذا المحيط الساكــن مــن البشــر الاكلين الشاربين المتناكحين النائمين ، نعم من بينهم قال واحد بيت شعر او تمرد اخر دون هدف واضح فصرع دون ان يسمع به كثير خلق او لعلهــم سمعوا فذهبوا ليأكلوا او ليناموا •

وقد يرى احدنا اليوم ان حملة نابليون على مصر كانت اولى الصدمات التي هزت عصبا في جسم العروبة وقد لا يتفق معــه آخر •• سيان •• فلسنا هنا مؤرخين •

المهم انه في اواخر القرن التاسع عشر او في اوائل القــرن العشرين بدأت العروبة تشعر بذاتها وبوطأة هذا الجسد الضخم عليهــا •

وفيما يتعلق بأوروبا داخل روح شخصيتها فقد كانت قيــم انسانية جيدة تشق طريقها الى النور ومدارها الانسان •

ولسنا هنا بصدد تفصيل حركة التنوير هذه ولا لنؤرخ للثورة الفرنسية : ارهاصاتها الفكــرية وواقعها المضطرب وتوابعهــا وتأثيرها المنظور وغير المنظور ضمن شخصية الحضارة الغربية •

كانت ثورة التكنيك وثورة الفكرة تســيران جنبا الى جنب بغض النظر عن أي ترتيب زمني تسبق فيه احداهما الاخرى مما أثر على رؤية التاريخ •

المهم أن أوروبا كانت قد اعدت نفسها بكفاءة ولياقة لاجتياح العروبة • وكان نابليون في زيارته لمصر يحمل المدفع والكتاب معا • وكان معه جيش من المحــاربين وجيش من العلمــاء في مختــلف

الاختصاصات · انني اشير الى نابليون فقط لكي اجلو ما استطعت ظاهرة الاستعمار الغربي علما وتكرارا بالاشارة الى انني لا أؤرخ للعالم العربي ·

فبشكل رئيسي كانت انكلترا وفرنسا هما وريثتي جسد العروبة وممتصتي روحها واقتصادها· ومن شاء تفصيلا لهذا فليعد الى كتب التاريخ ·

ان ظاهرة الاستعمار الغربي بنظرنا تشير الى حقيقتين : الآلة والكتاب جنبا الى جنب · وقد أخذنا غزوة نابليون لمصر فقط كرمز لظاهرة الاستعمار الغربي سيان أكان فرنسيا أم انكليزيا أم ايطاليا ·· الخ ·

فمن وجهة النظر الاقتصادية البحت كانت الآلة رمزا لنشاط رغبة الانسان في الربح المادي وتطور امكانات جسمه في السعي من اجل الرفاه ·

ومن وجهة النظر الموازية الاخرى فقد كانت اوروبا الغربية قد خاضت معركتها الخاصة بها في مواجهة مصير صعودها الانساني، وكانت قد انجزت في مجال تحرير طاقة الانسان قدرا موازيا لانجازها في تقدم وتطوير الآلة ·

وبالمقابل كان العالم العربي يمثل خواء وفراغا في كلا الحقلين·
ومن وجهة نظر عربية اسلامية بحت اقول : ان انسان فرنسا او انكلترا كان لائقا بصورة الكرامة الانسانية (بمفهومها الاسلامي) اكثر من الانسان العربي الخانع ·

وكانت الآلة احدى مجالي القدره في يد انسان الغرب ·

انني أواجه صعوبة اضافية وأنا اقرر هذه الحقيقه · فالفهم العربي السقيم المبدأي سيقول : هذا تبرير للاستعمار · والحقيقة المؤكدة أن اقول هذه الحقيقة على لسان انسان عربي هو أنا يدل على قدرة محاربة الاستعمار ، بل بالاحرى يدل على يقظة النفس العربية التي تستطيع أن تختبر داخل ذاتها تصور ذاتها لكي تعالج امراض ذاتها ، وبالتالي تحارب القوى المتقدمة لصراعها ·

ان ايماني بانتصار العروبة لهو ايمان غير قابل للنقاش وانني منتدب بشكل قدري لقول هذه الحقائق على طريق انتصار العروبة.

ان بحثي هذا لهو بحث عربي مئة بالمئة وهو سيعادي كل هجوم على العروبة غريب عن روحها فهذا قدر البحث .

وبالوقت ذاته فأنا اختبر كل شكوك النفس العربية بذاتها . ولهذا اوضح مرة تلو مرة أهداف البحث . ان هذا البحث حقيقي مئة بالمئة ولذا اعاني في تأليفه صعوبات عجيبة .

اقول : هكذا يجب أن ينظر لمسألة الاستعمار الغربي للامة العربية من أجل أن نستطيع دفع هذا الاستعمار الغريب في تعدد طاقاته وأشكاله .

وهكذا قامت اشكال الصراع من أجل الاستقلال . ولانني مصر على الاحتفاظ بالجوهر الروحي للبحث فلن اتتبع استقلال قطر دون آخر فمثل هذا التتبع سيمزق الرؤية الواحدة وانا اكتب بحثي من أجل (التوحيد) .

فكّر باستقلال مصر عن الانكليز أو فكّر باستقلال سوريا الاسبق عن الفرنسيين .. فكّر بمعركة مثل ميسلون ، فكّر بتونس او بالجزائر فكل ذلك سواء بالدلالة وبغض النظر عن اسم المستعمر وبغض النظر عن السنة التي اعترف رسميا باستقلال هذه الدول العربية او تلك ، او تاريخ استقلال كل دولة . كل هذه الاشكال من النضال في طريق الاستقلال معنى واحد .

وهذا المعنــى هو :

أولا : مزيد من مظاهر اليقظة العربية والتــي خاضت صراعا كان بعض الاحيان داميا وحقيقيا .

ثانيا : وهو الاهم . ان هذا الاستقلال زائف جدا بالمغزى الذي نتحدث عنه ، لان الاقطار العربية كلها التي حظيت بوثيقة استقلال ظلت في قدر الظروف وتحت سلطان الزمان وحكمه تحت رحمة الغرب ومفهومه للحياة وطموحه الخاص .

وقد بسطت هذه المسألة بالشكل التالي :
لقد انتقل الاستعمار الغربي الى مرحلة الامبريالية .

مبدئيا نحن نوافق على هذه الترجمة في المآل ونحن نرفضها .
لماذا ؟

لانها تبسط المسألة ولا تضعها في نطاق خطورتها الحقيقية .
ان الاستعمار والامبريالية لاخطر بكثير من كل تحليل أجري لهما حتى الان وبمفهوم العروبة المسلمة .

كيف ذلك ؟
ذلك كالتالي :

في عهده كان محمد اكبر رمز ثورة على الرق مثلا (واول مثلا فهذا وجه واحد فقط من الوجوه اللانهائية لعظمة محمد) .

وبالتالي : فان العروبة التي تنام تحت سيطرة العثمانيين لسبعة قرون هي امة من الرقيق ، وسواء اكان آذان (الله اكبر) يقام على مآذن مساجدها ، أو كانت اية جملة انجليزية او فرنسية هي المنطوقة المرفوعة فان هذه الامة تمثل الرقيق بأحط ما في الكلمة من معنى .

فمن وجهة نظرنا المحمدية كانت الامة العربية لا تقدم اي انموذج شرف لصورة الانسان . وبالتالي فان منطق الوقائع ، منطق هزيمة العرب امام كل تقدم غربي كان امرا بسيطا ومفهوما .

ومع ذلك فيجب ان يكون مفهوما ، وبشكل اكثر قوة ، ان اية محاولة جدية من الروح العربية سوف تحسر مبدئيا اشكال التقدم الغربية التي تجتاح جسد العروبة .

والسبب بسيط وجلي .

فهذه الارض وروحها وشعبها ليست قطعة من الجوهر الغربي، والغرب يتقدم احتياحا اي بشكل مضاد للجوهر .

ولكن هذه الحقيقة المبدئية ايضا يجب ان تتلى بحقيقة اخرى.
فجوهر العروبة ما يزال فقيرا جدا في اشكال التعبير عن حقيقته ، حتى في مجال فقره هو قد حقق انتصارات واضحة ـ ومع

ذلك فهو متخلف جدا في واقعه ، وان كان جوهر حياته اكيدا وبالتالي فان واقع مستقبله المنتصر حقيقة ايضا ٠

بسبب مجمل هذه العناصر ، سقط العالم العربي (وهو ما نسميه جسد العروبة) تحت تأثير القوى الخارجية مرة اخرى ، وان مفهوم الامبريالية المبسط ليس الا صورة واحدة من مجمل ظواهر التقهقر العربي في وجه الطفرات الخارجية ٠

في ١٩٧٣ في هذه السنة التي اكتب بها بحثي يمكن تفحص اللوحة العربية بمجملها كالتالي :

ان واقع الدول او الاقطار العربية هو واقع الدول التي حظيت باستقلالها غير المهم في النصف الاول او يزيد من القرن العشرين ٠

ان واقع الهجوم الغريب عليها هو واقع هائل متقدم جدا على واقع العالم العربي في مجالي المادة (التكنولوجيا) ، والمعنى (الاخلاقيات) بكل اشكالها من عدالة اقتصادية وحقوق اجتماعية ومظاهر ديمقراطية ٠

ان العروبة، كي تنتصر ، مطالبة بأن تجيب على كامل التحديات وسوف تفعل باسم محمد (ولا شيء دون اسم محمد) (١)٠

ان معنى انتصار العروبة المضمر مع واقع الحال البائس ضد واقع غريب يبدو في اوج ظفره لهو معنى عجيب وبالكاد يصدق ٠ ومع ذلك فهو ليس فقط حقيقة بل هو الحقيقة المؤكدة ٠

فلسوف تنتصر العروبة لا ضد اسرائيل فقط (فهذه واقعة جزئية جدا) بل ضد روح اليهودية وضد روح الغرب كلها ٠

ان روح الغرب بنظرنا تضع روسيا وامريكا على حد سواء ٠ وبغض النظر عن كل واقع زمني مؤقت ٠ وهذا لا ينفي ان يتحالف العرب مع هذه الجهة او تلك ، والحق ان محالفة اية جهة او مضادها هو من صميم اساليب العروبة كي تتفتح ٠

ان للعروبة اصدقاء مؤمنين ٠

وان للعروبة اعداء مؤمنين ٠

---

(١) لا بد ان البحث كتب تحت وطأة الاضطراب الفكري والروحي والارتداد الديني ــ المثالي المؤلف قبيل انتحاره .

ولكن للعروبة فوق هذا وذاك جوهرا مضمرا لا يكاد يرى وهو فوق صداقاتها وعداواتها المؤقتة • انه حقيقتها وانه رسالتها •

ومرة اخرى تبرز شخصية محمد تعبيرا اسمى وشكلا ارقى عن جوهر العروبة • وهكذا يجب ان ينظر اليه في مجال المقارنة الرمزية بين الانبياء الذين يتصلون به بشكل او باخر •

فاذا افترضنا من اجل الايضاح فقط ان موسى كان النبي المعبر عن قدرة الله وجبروته • واذا افترضنا ان تكسيره للالواح هو عنوان الغضب الذي تمثله القدرة الفائرة ، واذا افترضنا ان اسلوب صلته بالله من حيث الجرأة في الخطاب وطلب رؤية وجه الله (راجع القرآن والتوراة) • اذا افترضنا ان ذلك كله هو تجسيد القدرة والقوة وفهمنا اصراره على ترك قومه وذهابه لملاقاة ربه فهما رمزيا خاصا دالا على افتقار القوة المجردة في عالم الكينونة الانسانية ، وفهمنا غيابه ليكلم ربه على انه افتقار عالم القوة في عالم الكينونة وصبوة القوة ممثلة في موسى الى عالم الشهادة حيث يتجلى الله • وحيث في واقع حياتهم ضلّ بنو اسرائيل واخذنا واقعة عبادة العجل رمزا لضلالتهم •

فاننا اذا رأينا هكذا •

نرى المسيح مشيرا الى صورة مضادة تماما • ورأينا حياته حلما من شهود الله متصلا • ولذلك كانت معجزة موسى سحرا • بينما كانت معجزة المسيح تأثيرا غامضا لعالم غير منظور في داخل كينونة النفس غير المنظورة ايضا • وهكذا يتجلى عالم الشهادة في عالم الواقع غريبا مستقيما تماما كغرابةحياة المسيح ورمزه، ورأينا اصحابه يلاقون مصيرا تراجيديا منفعلا بالكون سواء اتمثل ذلك بصلب المسيح او بانتحار يهوذا ، او بسلسلة الشقاء المستسلم للدعاة الذين كانت امبراطورية روما المادية تلقيهم به الى الوحوش •

لقد كان موسى رمزا لفاعلية القوة في الكون ورمزا لقصورها • وهكذا تم الفتح لليهود لا على يد موسى بل على يد خلفائه وكان يبدو في الصورة الشرقية للكون ان ثمة شيئا ما قد كسر في معنى

حياة البشرية ، وربما كان تكسير موسى لالواحه رمزا مناسبا لهذا الانكسار الذي اتخذ شكل الجبروت الذليل ٠

وبالمقابل فان المسيح يرمز الى ذلك المعنى المفقود في مجمل الرسالة الموسوية ٠ فالمسيح يمثل منتهى الاستغراق في ملكوت الشهادة ولذلك فانه يبدو لنا من وجهة نظر واقعية فاعلية او من وجهة القدرة يبدو عاجزا في العالم المنظور وهذا هو مغزى الصلب المأساوي ٠ وهذا هو مغزى الندم الساحق والذي جعل يهوذا بجبروته الخائن ينتحر ، وهذا هو مغزى المجازر البشعة اللاحقة التي اتخذت بحق اتباع المسيح ٠

وهنا تنتصب القامة المحمدية باعجب رموزها وارجحها دلالة ، فمن وجهة معينة نجده روحا فانية تماما في الشهادة (اشهد ان لا اله الا الله) وبالتالي فمن هو الصنم ؟ أو من هو عابد الصنم ؟ وحتى لو كان سيدا امويا ، سيدا ثريا مطاعا تدين له الفرسان وتتحرك بكلمته الثارات ورغبة الغزو والنهب ٠

من السيد الاموي ٠

(اشهد ان لا اله الا الله)

وما عدا ذلك !

ان عالم الشهادة لعالم رؤيا ٠ فالمسيح رأى ايضا ان لا اله الا الله والمسيح تحرك بين صيادي السمك او بين سماسرة اليهود او بين معابدهم التي هي ايضا رمز من عالم القدرة (المال) ٠ تحرك كأنه نائم عن قدرة هذا العالم المادي لانه شهد (رأى) ان لا اله الا الله ٠ وهكذا محققة عالم القدرة ٠

وان نتخيل الان كيف احاطت به القدرة اليهودية الماكرة وسيرت امكانات العالم الموجودة (بيلاطس) حتى احكمت ذلك المشهد الصلبي المأساوي ٠ ان نتخيل ذلك امر ذو دلالة ٠

فالمسيح هو حقا ابن الله ٠
وانا ابن الله ٠
وانت ابن الله ٠
وهو ابن اللـــه ٠
وكلنا ابناء الله ٠
ان الصليبية ليست هي المسيحية ٠

والمسيح لم يتخذ رمزا له ولا لرسالته ٠ لان الرمز وثن والمسيح عدو الوثنية تماما كما هو محمد عدو الوثنية ٠
والصليب رمز لعملية الصلب الاجرامية ٠
والمسلم الذي يقول بعدم الصلب يجب ان يعني برفضه هذا

لان تكون عملية الصلب الاجرامية نهاية للروح القدس ٠
والكلمة لم تنته بعملية الصلب ٠

فالمسيح لم يصلب اذن ٠
لان كلمة الله لا تصلب ولا يمكن ان تصلب ٠

فاذا قلنا بأن الصليبية هي حرب على الاسلام ، فانني اعني بأن مفهوم الوثنية ولو تسمى كذبا باسم المسيح هو مفهوم عــدو محارب للاسلام ٠

اي انه عدو للاسلام الذي ينطوي على المسيحية واليهـوديـة في جنبات صدره ٠

ـ المسألة اليهودية في شكلها الصهيوني المعاصر ـ

(٣)

المسألة اليهودية اذا نسبت الى تاريخ العالم فانها الشذوذ ذاته • ذلك ان الثقافة اليهودية العنصرية التعصبية قد استعصت على الهضم منذ الصراع اليهودي المصري حيث برزت شخصية موسى نبيا وحتى الان عبر سلسلة من الصراع الذي يبدو قدرا لا راد له • اما المسألة اليهودية المعاصرة فقد تبلورت اخيرا في شكلها الصهيوني على يد هرتزل باني اساس دولة الكيان الصهيوني المعاصر • ولقد شكلت دولة يهودية تحمل اسم اسرائيل•

واسرائيل كما نعلم هو حفيد ابراهيم الخليل ولقد وعد الاله اليهودي « يهوه » نسل اسرائيل بحكم اراض شاسعة تكاد تغطي كامل البقعة المصطلح عليها حديثا باسم الشرق الاوسط • وذلك الوعد الذي تحمله التوراة هو وعد توسعي اذا ما قيس بسابقه المعطى من يهوه ذاته الى الجد السامي ابراهيم الخليل •

ان الصهيونية دون شك هي الشكل الاخير للمسألة اليهودية • اذن فالمسألة اليهودية قد اكتملت وهي تعيش الان سنوات تحققها، ولسوف تزدهر عقودا معدودة من السنوات ثم تنهار انهيارها المريع المحتم •

ولم يسبق قط ان شهد التاريخ مواجهة غريبة في مغزاها كتلك التي بدأت تقوم بين العروبة المعاصرة والصهيونية •

واكرر بأن المواجهة قد بدأت تقوم ، ويا له من واهم ذلك الانسان الذي يعتقد بحلول وسط في هذه المواجهة التي سوف تسفر عن وجهها الحقيقي المدهش • اما الواهم الاكبر فهو ذلك الانسان الذي يعتقد ان المواجهة مع الصهيونية قد انتهت بانتصار الكيان الصهيوني على فكرة العروبة •

ان المعركة بين الصهيونية والعروبة بالكاد قد بدأت ، ولسوف تأخذ مداها الزماني ومداها المكاني على نحو بعيد عريض في مواجهة لا راد لها •

١ الصهيونية كما اسلفنا هي اليهودية المتبلورة وهي ختام قصة ٠ اما العروبة المعاصرة فهي بداية قصة تضرب جذورها في الاعمق من تراب التاريخ ٠

ان العروبة المعاصرة تولد ٠ وان الصهيونية او اليهودية المعاصرة قد اكملت شبابها وتعيش الان عنفوانه لتنهار امام العروبة الناشئة ٠

يلوح الاحتراب اليهودي العربي فاجعة محتومة ٠ ولقد انهك الساسة والكتاب هذه المسألة بحثا ٠ وتمحيصا ٠ واستحضر الطرفان المحتربان نصوصا تاريخية واحتكما الى المحافل الدولية وتبودلت الكلمات الملفوظة والاخرى المكتوبة حتى ليبدو مزيد من القول في المسألة لغطا لا طائل وراءه والكتابة عنها تلطيخا عابثا للصفحات البيضاء ٠

وفي الجانب الاخر من المواجهة فقد التقى الطرفان غير ذي مرة محتكمين الى السلاح ، وكان الانتصار اليهودي جليا لا يحتاج الى تعليق ٠

ولكن عندما يقول العربي (خسرنا معركة ولم نخسر حربا) فانه لمن الخطل ان تسمع كلماته بروح من السخرية فهي كلمات جدية بروحها ، حتى ولو لم يكن ناطقها شديد الايمان بما يقول ٠

ولربما كان اليهودي يعيش نهار انتصاره ويقطف ثماره في ضوء شمسه ولكن العربي يعاني كابوسا ثقيلا في احلك فصل من ليله ونحن قد نكون جميعا عرفنا ذلك الفزع المشحون باعنف اشكال القلق ، والذي ينتاب النائم ضحية الكابوس عندما يصل للحظة يدرك في الاعماق السفلى من نومه ان ما يواجهه ليس الا كابوسا ٠ ويكون المرء اذ ذاك مدركا لحقيقة انه نائم وانه لو استيقظ فسوف ينتهي كل شيء ٠ ويزيد في قلقه انه كلما بذل مجهودا لليقظة فشل وازداد ادراكا لحقيقة انه نائم وازداد الكابوس ضغطا عليه وتصبح المسألة في لحظة هي الذروة مسألة حياة او موت ٠ حينذاك يستيقظ النائم ٠

ومن العسير على الانسان ان يصدق بأن كل اليهود مصدقين للوعود المدونة في التوراة المتداولة ٠ رغم ان الانسان المتسامح والذي يبدي استعدادا صادقا لمناقشة كل الفرضيات ، سوف يجد بأن الوعد المدون المعطى لنسل ابراهيم من قبل اله اليهود نفسه انما يشمل النسل العربي الاكثر عددا وذلك بدلالة التوراة المدونة ذاتها٠

ولكن العربي المسلم الذي ينيب الى الله ، والذي يرى ان اله البشر جميعا اله واحد ، والذي يجبره قرآنه على التسامح بدلالة امر الله (لا اكراه في الدين) هو انسان قادر ، دون ان يتجاوز سلامة المنطق بل بموجب تلك السلامة ، ان يرفض فكرة الوعد المعطى من (يهوه) مع انه يعبر عن السماح لليهود بأن يعبدوا الههم الخاص وبغض النظر عن رأيه الشخصي بيهوه ٠

لا بد ان بعض الساسة اليهود المعاصرين قد اكتشفوا حقيقة مزعجة وهي ان العروبة موجودة بالقوة وانها توجد فعلا ٠ وبالتالي فان النشيد الحربي اليهودي رغم قوة لحنه وانتظام ايقاعه الممتاز غير قادر على تبديدها ورغم الانتصارات الباهرة ٠

□

لقد سئل الجنرال موشي دايان عشية الانتصار اليهودي عام ١٩٦٧ عن مصير الكتل البشرية التي كانت تخرج من بيوتها مذعورة من النشيد الحربي اليهودي ولقد سجل التاريخ على لسان الجنرال اليهودية الاشهر قوله :

(ماذا عسى ان يهمني امرهم ؟) ٠

والحق انه جواب عسكري بليغ يليق بجنرال له حزم جينكزخان وربما ارادة من فولاذ ٠ وفي الوقت ذاته فانه بمقدار بلاغة النصر في جواب الجنرال السيد موشي دايان بمقدار ما يتضمن من وضاعة انسانية ٠

قد لا يفهم العسكري الفذ معنى « وضاعة انسانية » ويجب على المرء ان يصدق دهشتهم امام قيم كهذه « سمو انساني »

و « وضاعة انسانية » والمرء يجب ان يفهم بأن الروح العسكرية قائمة على قيمة اساسية هي : النصر ٠

ونحن العرب ندرك قيمة النصر وربما ندركها اكثر بكثير مما يخطر ببال اليهودي ، وذلك ببساطة لاننا عرفنا مذاق الهزيمة وهو ليس بالمذاق العذب في كل الاحوال وانه لمن الصواب ان يقال بأن العرب قد ذاقوا طعم المذلة ايضا وهي قرين الهزيمة ٠

□

انه لواهم ذلك الذي يعتقد ان ميزان المواجهة العسكرية العربية امام العسكرية الصهيونية سوف يميل لمصلحة الكفة العربية في المدى الزمني القريب ٠

وانه لضحية الوهم الاشد مراوغة من يعتقد ان السلام الدائم قد يتحقق بوجود دولة صهيونية في قلب الوجود العربي ٠ اما ضحية الوهم الاكبر فهو من يعتقد ان دولة الكيان الصهيوني لن تهزم ولن تدمر في المدى الزمني البعيد ٠

في المواجهة بين العربية واليهودية ليس السلام الا اضغاث احلام ٠ والمواجهة العربية واليهودية تمر الان باحلك حقبات الظلمة وهي حقبات انتصار باهر لليهود ومذلة مريعة للعرب ٠

ان اليهودية قد اكتملت ولها الان كيان ذو ارادة صارمة يسمى (اسرائيل) ٠ ان اليهودية الان في ذروة عظمتها الواقعية ٠ اما العروبة المعاصرة فهي تدرج نحو اليقظة ٠ ولذا فان مصطلحات مثل (النهضة العربية) او (اليقظة العربية) او (البعث العربي) هي مصطلحات تشير الى ظاهرة واحدة مهما تعددت الاسماء ، انها ظاهرة العروبة المعاصرة الوليدة ٠

ولذا فان اليهودية المكتملة (اسرائيل) تنجز النصر تلو النصر، والعروبة المعاصرة الطفلة تضرب ضربا مؤلما في الحقيقة ٠

ومثل مقارنة كل كيان حي بكيان اخر ، فان المستقبل يتضمن

دون ذرة شك انحلال الارادة اليهودية (انحلال اسرائيل) واكتمال العروبة ـ الوحدة العربية ٠

□

لقد اسيء فهم العروبة بالقدر ذاته الذي اسيء به فهم (اليهودية) ٠ وضاعت حقيقة المسألة في خضم من التعريفات والمصطلحات وبهتت اللغة وبالتالي فقد انهارت الحقيقة امام ضربات الواقع المؤقت ٠ وبدأ اليأس يلف شباكه حول جوهر حقيقة العروبة ٠

ولكن العروبة ليست بحاجة الى فرد بعينه ولا الى كتاب بذاته لانها تعبر عن حقيقتها اكيدا ومهما لاح تعبيرها بطيئا ٠

□

وعندما يقارن الموروث العربي بالموروث اليهودي تلوح المقارنة مضحكة ٠ ولكن « اليهودية » قد حسبت لهذا الجانب من المسألة حسابه ، ولذا تفشت عادة السخرية من التراث بين ابناء العروبة ذاتهم ٠ ومن المؤكد ان الفهم الخاطيء للتراث هو العامل الاساسي المعتمد من قبل اليهودية لتدمير روح العروبة ٠

ولكن العرب يتحسسون يقظتهم المعاصرة (وبالتالي يتحسسون جذور تراثهم على نحو شديد الغموض) ، وفي اسوأ الاحوال فان العربي يشير الى التفوق العددي وهنا يواجهه اليهودي بالتفوق التكنولوجي ٠

ومرة اخرى تلوح المسألة مضحكة ٠

□

وهنا يطرح السؤال الاخطر ٠

فاما ان تكون المنطقة المتعارف عليها سياسيا باسم الشرق

الاوسط هي منطقة ذات روح عربية • او انها منطقة ذات روح يهودية ، او انها منطقة بلا روح وبالتالي فهي ملك للتفوق التكنولوجي •

ونحن المؤمنين بالعروبة نؤمن بانها ارض عربية الروح • اما اليهودي فاذا ما كان مؤمنا فانه سوف يشير الى الوعود التوراتية واذا ما كان ملحدا فلا حاجة به للاشارة الى سلاح الجو اليهودي •

ونحن المؤمنين بالعروبة نعرف بان سلاح الجو اليهودي ليس الا مظهرا واحدا من مظاهر انتصار اليهودية كفكرة اكتملت واصبحت تدعى « الصهيونية » عقيدة وتقدم كدولة باسم « اسرائيل » •

ان اليهودية والصهيونية واسرائيل تعبيرات مختلفة لحقيقة واحدة ، حقيقة تحتفل الان بأوج انتصارها وتنتظر فقط ان تدمر •

١٩٧٣

خواطر خاطفــة حول الفن والتراث والتاريخ

المذهب الانساني

المذهب الانساني في الفكر تيار متكامل له ابعاد وحدود مميزة • على الرغم من ان كلمة (انسانية) باتت تستعمل في كثير من الاحيان جزافا ودون دلالة واضحة ، ترد على السنة المثقفين وكأنها تشير اشارة عابرة الى الرحمة والعدالة مثلا •

نعم ان الكلمة تتضمن فيما تتضمن هذه الاشارة ولكنها لا تقف عند حد الايماء ، بل ترسم الحدود كما قلنا •

المذهب الانساني في الفكر هو صرخة احتجاج على كل ضرب من ضروب التفكير او السلوك يؤدي بالتضحية بالانسان من حيث هو كائن حي متكامل بعاطفته وعقله ، التضحية به من اجل شيء اخر سواه وسوى القيم التي يمثلها • كأن نضحي بالعاطفة من اجل العقل او العكس • او ان نضحي بالروح من اجل المادة او بالعكس • او ان نضحي بالحياة الفكرية من اجل الحياة العملية او بالعكس •

ليس الانسان باله وليس بحيوان • بل هو حلقة وسطى تصل ما بين الحيوانية والمثال الاعلى • ويجب الا يطمس جزء من طبيعة الانسان لحساب جزء اخر •

وبهذا المفهوم فان كل ثقافة تشعر الانسان بانسانيته من حيث هو كائن حر الارادة يختار الاهداف بحرية ، ويفكر لتحقيقها بحرية ، ان كل ثقافة من هذه السوية هي في المآل ثقافة انسانية• وان كل ثقافة تلجم جزءا من كيان الانسان وحريته هي ثقافة لا انسانية •

ما هـي المحاكاة

المحاكاة في اللغة ، التقليد والمشابهة • وهذا الاصطلاح الادبي النقدي ينحدر في الاصل من الفلسفة الميتافيزيقية • وهو يعـود الى نظرية افلاطون في الوجود • تلـك النظرية القائلة ان اساس الوجود ينقسم الى ثلاث اقسام :

١ ـ عالم المثـل •
٢ ـ عالم الحس •
٣ ـ عالم الظلال او الفنـون •

ففي نظرية افلاطون ان اصل الوجود هو المثل الاعلى ، ومـا عالمنا المادي المحسوس بكـل اشكالـه الا انعكاسا للعالم الاول • وبالتالي فان هذا العالم المادي يبتعد خطوة عن الحقيقة •
ما علاقة الفن بهذا ؟

يقول افلاطون بأن الفن هـو محاولـة مـن الفنان لتقليد عالم الطبيعة او العالم المادي ، وبالتالي فان عالم الفن يبتعد خطوتين عن الحقيقة ، وهذا مـا يفسر لنا اعراض افلاطـون عن الشعـر وموقفه المتشكك من دور الشاعر حيث رفض ادخاله الى جمهوريته المثالية •

تطورت هذه النظرية على يد ارسطو الذي اغفل من حسابه عالم المثل ، وقـال ان القصيـدة تعتبـر محاكـاة اذا كانـت كلا محسوسا • لم يفت الشاعر اثناء ابداعه لها أن يحدث بها عن طريق اللغة التي يستغلها استغلالا فنيا وعلى نحو خاص ، يحدث تأثيرات عاطفية • ويستعين الشاعر لابلاغ هذه التأثيرات الى نفوسنا بأن يعرض علينا اشخاصا او شبه اشخاص يؤدون مثلنا بعض الاعمال، وحين ننظر اليهم والى عواطفهم واعمالهم ونحن في موقف المشاهد الذي يتعاطف معهم ، نحس بأن التأثيرات العاطفيـة قـد بلغتنا فعـلا •

ننتبه هنا الى ان هذه النظرية تتـ... نوعا معينا من الشعر ،

هو الشعر التمثيلي (مأساة او ملهاة) وشعرالملحمة ولا يختص بالشعر الغنائي ٠

والمحاكاة بنظر ارسطو قد تكون مثالية اي بتصوير الشيء كما ينبغي ان يكون ٠ وقد تكون واقعية اي بتصوير الشيء كما هو ٠ وله في هذه النظرية تفصيلات تتناول طريقة المحاكاة وادواتها وموضوعها ٠

الا اننا نكتفي في هذا المجال بعرض مجمل النظرية دون تفصيل٠

الفن لماذا ؟

نتحدث كثيرا عن اصول الفن ٠ نقارن بين نتاج وآخر ٠ نكتشف ان هذا افضل من ذلك ٠ نبحث عن الاسباب ونضع القواعد المميزة بين فن عظيم وآخر ضئيل الاهمية ٠

ولكن ثمة سؤال جوهري : لماذا الفن اصلا ؟
لماذا يرسم الرسام لوحته ؟ ولماذا نسر عندما نرى لوحة جميلة؟ لماذا يكتب الشاعر قصيدته ؟ وما سر الشعور اللذيذ الذي يتولد في ارواحنا لدن نقرأ القصيدة ؟

يقول كوكتو :
(الشعر ضرورة ٠ ضرورة وآه لو كنت اعرف لماذا ؟)
ونحن بدورنا نود ان نعرف لماذا الشعر ضروري ؟ لماذا الفن بكل فروعه ؟

ثمة نظرية تفسر الدافع للفن بأنه (اللهو) فحسب ولا شيء آخر ٠ نظرية غير مقنعة ابدا ٠ ولا يمكن أن نصدق بأن الجهد الانساني الهائل الذي ترك لنا الشوامخ من مثل الياذة هوميروس ، ومسرحيات سوفوكليس ، او تماثيل مايكل انجلو او اعمال المعري ٠٠٠ الخ كانت كلها ثمرة لهو لا غير ٠

ثمة نظرية اخرى قالها الرسام موندليان ترى ان العمل الفني لا يعدو ان يكون تعويضا لانعدام التوازن في الواقع الراهن ٠

هذه النظرية تلوح اكثر جدية واقناعا ٠ والمقنع في النظرية انها قابلة للتطبيق على دافع الفنان للخلق ودافع المتلقي واستمتاعه ٠ فبموجبها يشعر الفنان بعدم الاكتفاء بواقعه الراهن ويسعى لان يملأ النقص ويعوضه بواسطة عمله الفني ٠ ومتلقي العمل ايضا يشعر بعدم الاكتفاء ويجد في العمل الفني اخصابا للواقع ٠

ولكن هل عندما يحقق الواقع توازنه ينعدم الدافع الفني فلا نعود نحتاج للرسم والشعر ، للموسيقى والسينما ٠٠ الخ ؟

هذا السؤال مردود لانه لن يقع ابدا ان يشعر الانسان ابـدا بالرضى المطلق عن واقعه · ثمة مسافة بين واقع الانسان وحلمـه قد يكون ممكنا تقصيرها ولكن من المستحيل الغاؤها · فالطبيعـة الانسانية مفطورة على ان تحلم بالابعد والافضل والاجمل · ومهما انجز الانسان سوف يظل لديه هذا التوق الغامض لعوالم جديدة ·

لا لن يأتي اليوم الذي تصبح فيه الفنون غير ضرورية ·

البغضاء في الاسطورة اليونانية

في الاسطورة اليونانية ان ايريس وهي ربة الشقاق والنزاع حين لم تدع الى عرس بهيج اشترك فيه الهة الاولمب فاجأت الحفل مغضبة حاقدة . (وصورة ربة البغضاء كما تقدمها الاسطورة منفرة وشائهة ، عينان تقدحان شررا . رأس فاحم تتلوى عليه خصل الشعر الثعبانية ، صوت ذو فحيح وعلى الصدغين يخشخش عقربان منكران) .

لقد ارادت (ايريس) ان تثأر لنفسها على التجاهل المتعمد الذي جعلها الوحيدة بين الربات التي لم تدع وكانت قد استثنيت خشية مما تثيره من كوامن العداوة . وتقول الاسطورة ان الآلهة جميعا توجسوا خيفة حين رأوها تقلب فيهم ناظريها ثم اطمأنوا قليلا حين رأوها تنصرف بعد ان القت على الخوان تفاحة ذهبية كبيرة نقشت عليها كلمة مقتضبة للاجمل .

بعد انصراف ايريس واعتقاد الجميع ان لعنتها قد ولت ، تجمعت ربات الاولمب حول التفاحة وكل واحدة تريدها لنفسها ببساطة لانها تعتقد انها الاجمل .

واحتكمت ثلاث رباب منهن الى راع يدعى باريس فأعطى التفاحة لفينوس ربة الحسن وجر على قومه تعاسة كبيرة بذلك . وقصة تلك التعاسة طويلة جدا تستغرق الالياذة بأكملها وملخصها ان باريس هذا لم يكن راعيا في الحقيقة وانما هو ابن ملك طروادة وكان ابوه قد تخلى عنه طفلا صغيرا بسبب نبوءة منذرة بشر مستطير . فلما ارادت فينوس مكافأته على اختياره لها (الاجمل) اطلعت باريس على حقيقة بنوته لملك طروادة ثم اعطته هيلين ملكة اسبارطة الجميلة ، وهذا هو كما تروي الاسطورة سبب الحرب الطويلة التي دارت بين طروادة واسبارطة والتي خلدها هوميروس بالياذته الشهيرة .

الامر الجدير بالملاحظة في شتى اساطير اليونان انها تستبطن

كوامن النفس البشرية وتكشف عن نوازعها • ولهذا نجد علم النفس وهو العلم الحديث يستعمل في مصطلحاته عددا من الاساطير اليونانية : مثل (عقدة اوديب ، عقدة الكترا ، والنرجسية) وجلي ان هذه الاسماء او المصطلحات مأخوذة مباشرة من الاساطير اليونانية • وفي اسطورة ايريس ربة البغض نجد البواكير الاولى العظيمة في فهم النفس البشرية •

ما الذي فعلته ربة البغض ايريس بتركها التفاحة الذهبية وقد نقش عليها الاجمل ، لقد اثارت نوازع التنافس الانانية بين ربات الاولمب • وكان هذا التنافس الاناني مدخلا للمأساة •

وهكذا تقدم لنا الاسطورة تحليلا للدوافع النفسية ، والغريب المدهش في هذا التحليل وامثاله ان يأتي في فجر مبكر من تاريخ المعرفة الانسانية •

اصـل اللغـة العربية

(نظـرة سريعة)

ان اقدم ما وصلنا من شعر عربي يتوقف عند القرن السادس للميلاد • عند المهلهل بالذات • والمتأمل في هذا التراث الشعـري بما فيه من فطنة واختبار انساني وعمق تجربـة وادراك يعـرف ببساطة ان هذا التراث يعود الى آماد طويلة أبعد مما وصلنا • فالادب لا يولد ناضجا بهذا الشكل وانمـا يأخـذ باسباب النماء والتطور خطوة خطوة وببطء شديد •

يقول زهير بن ابي سلمى :

ما أرانا نقـول الا معارا أو معادا من قولنا مكرورا

ويقول عنتـرة :

هل غادر الشعراء من متردم •••

فاذا كان هذان الشاعران الجاهليان يشعران بان في اقوالهما واقوال غيرهما من اصحاب المعلقات تكرارا لاقوال سابقة فأين هي الجذور البعيدة للشعر العربي او للادب العربي عامة مـن شعـر وخطابة وأمثال ؟

لقد ضاع معظم ذلك التراث طبعا لسبب بارز هـو افتقـاد التدوين • فلا ننسى ان كل ما وصلنا من شعر الجاهلية وصل عن طريق الرواة الذين تناقلوه شفاها من جيل الى جيل •

والبحث في تاريخ الادب العربي يصل بنا لزاما الى تاريخ اللغة العربية • وقد تناول جرجي زيدان هذه المسألة في مقدمة كتابـه (تاريخ آداب اللغة العربية) معالجة تناولت بايجاز :

١ ـ النظر في نشأة اللغة العربية منذ تكوينها مع ما مر عليها من احوال قبل زمن التاريخ كتكون الافعـال والاسماء والحـروف وتولد الصيغ واساليب التعبير •

٢ ـ النظر فيما طرأ على اللغة من تأثيرات خارجية بعد اختلاط العرب بالامم الاخـرى •

٣ ـ النظر في تاريخ ما احتوته اللغة من العلوم والاداب ٠

هذه المظاهر المتشعبة تسير سيرا خفيا لا يشعر به الا بعد انقضاء وقت طويل ٠ من حيث الاصل ان اللغة العربية احدى اللغات السامية ، اللغات التي كان يتفاهم بها ابناء سام وهم اهل ما بين النهرين والجزيرة العربية والشام واشهر تلك اللغات السامية : العربية ، والسريانية ، والعبرانية ، والفينيقية ، والاشورية ، والبابلية ، والحبشية ٠ واللغة العربية هي ارقى تلك اللغات طبعا وهي من بينها الاكثر بقاء اذ ان معظم تلك اللغات قد اندثرت ٠

في رأي بعض المحققين ان اللغة البابلية والاشورية القديمة هي الام لتلك اللغات جميعا ، غير ان هذا ليس محل اتفاق ويبقى ان تلك اللغات شقيقات مجهولات الام ٠

قبل الاسلام كانت العربية لغات عدة تعرف بلغات القبائل ٠ اللغة العربية التي هي لغتنا اليوم امتداد للغة الحجاز وقد دخلتها مفردات كثيرة فارسية ويونانية وحبشية وعبرانية وسنسكريتية؛ وذلك لما كان لاهل الحجاز عامة ولاهل مكة بشكل خاص من امكانات الاختلاط مع تلك الشعوب بالتجارة والتدين والحروب ٠ ويرى جرجي زيدان ان جذور الادب العربي تعود الى عشرين قرنا قبل الميلاد ، وهو من المحققين القائلين بأن سفر ايوب لم يكن الا قصيدة عربية طويلة نقلت الى العبرانية وضاع اصلها كما ضاع اصل كليلة ودمنة الفارسي وبقيت ترجمتها العربية ٠

هذه الفترة الضائعة من التراث العرب هي ما تسمى بفترة الجاهلية الاولى ، وهي تختلف عن الجاهلية الثانية (التي تمتد من القرن الخامس للميلاد حتى ظهور الاسلام) بانها عطاء قوم عرفوا الاستقرار والعمران والحضارة ٠ اما الجاهلية الثانية فهي عطاء بدو رحل ٠ وللاسف فان جل التراث المنحدر من الجاهلية الاولى قد ضاع ولم تكشف الحفريات الا عن القليل منه ٠

فاذا ثبت ان سفر ايوب كان حقا نشيدا عربيا في اصله ، كان العرب اسبق الامم الى قرض الشعر لانه يكون قد نظم قبل الياذة هوميروس بالف عام على الاقل .

غير ان الحكم على ذلك يبقى من قبيل الحدس والتخمين لاستغراقه في القدم وضياع اخبار الجزيرة بتمادي الايام . ولعل نشاطا كبيرا في الحفريات يكشف الستار عن هذه الظنون .

من شذى رمضان

ان الفكرة الجوهرية التي تتجلى للمتأمل في حكمة الصوم هي فكرة مجاهدة النفس ومغالبتها . تلك المغالبة التي اشار اليها الحديث الشريف على انها الجهاد الاكبر .

ان الصيام في ظاهره هو محض امتناع . اي انه يلوح للوهلة الاولى عبادة بالترك والسلبية ولكن جوهره ايجابي تماما . انه مجال من مجالي القدرة الانسانية المدعو للسمو على نفسها .

وبهذا المطل على الصيام نجد فكرته تتجاوز فكرة الطقس او الشعيرة لتصبح تلبية لاحتياج طبيعي من صميم فطرة الانسان.

ويا لها من معركة رائعة في دلالتها تلك التي تدور بين النفس بمتطلباتها القائمة على طلب اللذة والابتعاد عن الالم ، وبين الروح التي تختار الاختيار الصعب النقيض .

وهنا نلمح المفترق بين الانسان والحيوان ونعرف امتياز الانسان وشرف وجوده الاعلى ..

« واذ قال ربك اني جاعل في الارض خليفة ... »

ان الانسان في معركته مع النفس انما يصعد على ذاته ليستحق شرف الخلافة الالهية التي لم تعط لغيره من الكائنات .

ادبنا بين التراث والعصرية

في هذه الفترة الخصبة من حياتنا الادبية يظل موضوع التراث مطروحا بشكل ملحاح • التراث هو سفر الامة وتاريخها ومؤشر عراقتها واصالتها • والاديب المعاصر مطالب بالضرورة بان يحيي ذلك التراث ويستفيد من طاقاته الايجابية ، فيصار بذلك الى ربط ماضي الامة بحاضرها وترتسم معالم مستقبلها •

التراث لا يعني النكوص والجمود ، فالذين فهموا من التراث الوقوف على اشكال الادب القديمة هم الذين وقفوا في وجه تجديد حركة الشعر العربي المعاصر • وقد اثبت نجاح تيار تلك الحركة ان لا مجال للوقوف على الاشكال القديمة ، فسنة الحياة تقتضي التغير والتطور • الا ان التغير لا يعني بأن الاديب يبدأ من نقطة الصفر من تاريخ امته • هو مطالب بأن يعي ما قدمته الامة من نتاج ، وان يتفاعل معه ، وان يمضي خطوة للامام من حيث وجده •

وعنايتنا بتراثنا من جهة اخرى يجب الا تقعدنا عن ملاحظة تراث الامم الاخرى والاطلاع عليها والاستفادة من خبراتها ، فان هذا الالتحام بين فكر الامة ماضيا وحاضرا وتفاعله مع فكر الامم الاخرى ، شرط لتوافر عناصر النهضة الفكرية • والامم التي تنغلق على حدود فكرها تنتهي الى جمود مؤكد • اذ لا حدود لابداع الفكر الانساني ولا حواجز تمنع تلاقح البذور القابلة للعطاء فيما بينها •

يجب ان يكون رائدنا في نهضتنا الادبية محاربة العزلة بكل اشكالها • العزلة بين حاضرنا وماضينا • العزلة بين العطاء الفكري في شتى الاقطار العربية ، وكذلك العزلة عن عطاء العالم الواسع • ودعوتنا للتواصل يجب الا تنسينا ان ادبنا يجب ان يظل محتفظا بهويته العربية الخاصة • ان يحمل طابع شعبنا وان يتصل بآمال وآلام هذا الشعب •

الصراع الادبي بين القديم والحديث

ليس الصراع الادبي بين القديم والحديث مقتصرا على هذه المرحلة من تاريخنا ٠ ولا هو ظاهرة فريدة في ادبنا العربي دون غيره من الاداب ٠ ان هذا الصراع امر طبيعي في الادب كما هو طبيعي في شتى وجهات النظر بين جيل وجيل ولا شك ٠ ان الادب في معنى من معانيه هو وجهة نظر في العالم ٠

لقد عرف تاريخنا الادبي مثلا ذلك الصراع الحاد في الشعر في العهد العباسي ٠ وقوبل تجديد ابي تمام بحركة معارضة قوية اتخذت محورا لها الدفاع عن عمود الشعر ٠

ولسنا هنا بصدد تفصيل الخلافات الادبية حول عمود الشعر او خلافه ٠ فكل مرحلة من المراحل اتخذ الصراع بين القديم والجديد فيها مشكلة او بضع مشاكل محورا لها ٠

ومنذ عشرين عاما تقريبا كان الصراع بين القديم والجديد في شعرنا يدور حول مشروعية حركة الشعر الحر أو عدم مشروعيتها ٠ ومع كل ما قيل حول المسألة فان حركة الشعر الحر اثبتت جذورها ونمت ٠ ولم تعد الان مسألة مطروحة للنقاش الجدي ٠

ولكن الواقع الادبي لشعرنا العربي المعاصر يطرح الان على شعرائنا نداء التجديد مرة اخرى ٠ وليس التجديد بالضرورة هو تجديد بالامور التي تناولتها حركة الشعر الحر ٠ بل على العكس تماما فان التجديد يعني تناولا مخالفا للمسألة برمتها ٠ فمما لا شك فيه ان شعرنا الان يمر في ازمة متعددة المظاهر ٠ نماذجه الحالية كثيرا ما تكون تكرارا لما ابدعه الرواد الاوائل ٠ والعناوين الجديدة التي تفرض نفسها من خلال المرحلة التاريخية الراهنة تنوء بها ادوات الرواد ٠ على سبيل المثال فان طريقة استعمال شعرائنا للرموز والاساطير ما زالت تستمد من اسلوب بدر شاكر السياب شكلها ، وهذا ليس بدليل عافية ادبية ، فكما جدد السياب في مرحلة من المفترض ان يجدد رواد هذه المرحلة ٠

ومن المؤكد ان اسماء شعرية ستتقدم وتلبي هذا الاحتياج ٠

مفكر العدالة والسلام

برترانـــد رسل

يوم الاثنين ١٩٧٠/٢/٢ مات برتراند رسل عن سبعة وتسعـين عاما قضى جلها في خدمة الانسان والدفاع عن السلام ٠

لقد كان رسل واحدا من عباقرة الرياضيــات المعاصرين ، فيلسوفا اتخذ لنفسه مسارا خاصا بين شتى التيارات الفكرية التي يختضم بها العالم ، مؤرخا وسياسيا وروائيا في وقت واحد ٠ لكن الخاصية التي تستقطب مختلف اوجه نشاطه الوفير هي خدمــة الســلام ٠

ولد برتراند آرثر وليام رسل في ترليــك في انكلترا عام ١٨٧٢ ودرس في صباه دراسة خاصة ، ثم التحق بجامعة كامبردج حيــث حصل على شهادتها بتفوق في الرياضيات والعلوم الاخلاقية ٠ التحق بالسلك الدبلوماسي عام ١٨٩٤ كملحق شرف في سفارة بلاده لــدى فرنسا ، الا انه ما لبث ان ترك العمل الدبلوماسي بعد سنة ليعمل عضوا ملازما في مجلس جامعة كامبردج ، ثم مدرسا للرياضيات فيها ٠ وفي عام ١٩٥٣ اصدر اول كتبه (مبادىء الرياضيات) ٠

في سنة ١٩١٢ بدأ برتراند رسل سلسلة من المؤلفات الفلسفية بدأها بكتاب (مشكلات الفلسفة) ، وكان قد ابتدأ قبل ذلك حملته من اجل السلام ودخل السجن بسبب غلوائه في الدفاع عن ارائه ٠

سنة ١٩٢٧ اسس رسل مدرسة طبق فيها مبادىء تربــوية مجددة ٠ فالغى العقوبات الجسدية وسمح بالاختلاط بين الجنسين ٠ وانتقل من بعد الى الولايات المتحدة حيث اثارت اراؤه جدلا عنيفا ، وقد تعرض لانتقادات هائلة الا ان عددا من كبار العلماء والمفكرين دافعوا عنه ومنهم اينشتين ، وديوي ، ووايت هود ، وكان مــن ثمرة دفاعهم عنه ان سمح له بالتدريس في هارفارد كاستاذ فلسفة٠ وهناك وضع كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) ٠

وفي عام ١٩٥٠ منح جائزة نوبل وكرمته بــلاده بمنحه وساما

رفيعا ومع ذلك دخل السجن مجددا بسبب نشاطاته الشعبية من اجل السلام · وقد اسس في عام ١٩٦٣ مؤسسة للسلام تعرف باسمه ·

لقد قال رسل مرة عن نفسه :

« ثلاثة اهواء بسيطة لكنها ذات قوة لا تقاوم ، سيطرت على حياتي : التعطش للحب ، والبحث عن المعرفة ، وعطف لا حدود له على آلام البشرية » ·

وكان صادقا في ذلك كل الصدق ·

هذا المفكر المستقل ، وبغض النظر عن خطأ أو صواب نظرياته وقف حياته ومعرفته لخدمة الانسانية حتى وهو في اوهن سني الشيخوخة ، حتى اخر لحظة من حركة عقله كان يعمل للانسانية ·

ومما هو جدير بالذكر انه اتخذ موقفا ايجابيا بالنسبة للصراع العربي الاسرائيلي ، وقد ارسل للمؤتمر البرلماني الذي انعقد مؤخرا في القاهرة ارسل رسالة نقتطف مما ورد فيها قوله :

« ان المرحلة الاخيرة من الحرب غير المعلنة في الشرق الاوسط ترتكز على خطأ عميق في التقدير · ان الغارات التي تستهدف عمق الاراضي المصرية لن تحمل المدنيين على الاستسلام بل ستدعم تصميمهم على المقاومة » ·

وقال في الرسالة ذاتها :

« ان كثيرا من اللاجئين يعانون الآن وضعا غير مستقر · وان ماساة شعب فلسطين تتمثل في ان دولة اجنبية قد اعطت وطنا لشعب آخر من اجل خلق دولة جديدة · وترتب على ذلك ان اصبح مئات الالوف من العرب بلا مأوى ·

كثيرا ما قيل اننا يجب ان نتعاطف مع اسرائيل بسبب ما عاناه اليهود في اوربا على ايدي النازيين · ولكني لا ارى في ذلك

سببا يدعو الى استمرار المأساة التي يعيشها الشعب الفلسطيني » ٠

هذه كلمات الفيلسوف قبل وفاته بأسابيع قليلة قبل ان يتوفى عن سبعة وتسعين عاما ٠ واننا اذ نحيي ذكراه لنحيي الفكر الذي يخرج من عالم الكتب الضيق ليخدم عالم الانسان الرحيب ويعالج مشكلاته ويتبنى اسمى قيمة في العدل والسلام ٠

المنهج التكاملي في علم النفس
عند الدكتور يوسف مراد

الدكتور يوسف مراد واحد من علماء النفس العرب المعاصرين ولد عام ١٩٠٢ وتوفي عام ١٩٦٦ بعد ان خرج اجيالا من العلماء • وهو يعتبر من الرواد الذين اخذوا من الغرب اساس علومهم واضافوا اليها من خبراتهم الشخصية وتجاربهم المحلية فاستحق بذلك ان يوصف عالما •

وقد درس يوسف مراد على كبار علماء النفس الفرنسيين من امثال هنري دي لاكروا ولييوم جيوم وهنري فالون وامبرادان •

ولكنه لم يتبن مدرسة معينة من مدارس علم النفس المتضاربة بل ربط فكره بين شتى المدارس واكتشف الوشائج التي تمتد بينها ، وذلك للكشف عن حقيقة هامة مؤداها اننا كلما هبطنا بدراستنا في مراتب السلسلة الحيوانية تبينا ارتباطا دقيقا بين بناء الجهاز العصبي وبين امكانات السلوك الذكي •

مفهوم التكامل الذي قدمه الدكتور مراد ينطوي على معان عديدة • المعنى الاول يشير الى العمليات او الوظائف العضوية والسيكولوجية وما يطرأ عليها اثناء ارتقائها في حياة الفرد اذ تدخل من حين لآخر علاقات جديدة فيما بينها تقوم على مبدأين :

- التآزر او التعاون بين مجموعة من الوظائف لتكون معا وظيفة واحدة معقده •

- والائتمار او الخضوع اذ تخضع وظيفة لاخرى كما تخضع بعض المراكز العصبية لمراكز اخرى •

وفي معنى اخرى للتكاملية عنده يجمع ما بين جميع التيارات التي تساهم في تكوين ظاهرة من الظواهر الانسانية • وبذلك يصل علم النفس بغيره من العلوم كالتاريخ وعلم الاجتماع وعلم الوراثة •• الخ •

فكان خلاصة عمله هذا المنهج التكاملي الذي يأخذ من كل مدرسة نفسية ، لا على سبيل التراكم بل اقام بنيانا خاصا ساهمت في تكوينه نظريات متعددة ٠

فقد اهتم منذ البدء بالاثار البيولوجية على السلوك والتفكير٠ فالوظائف النفسية وثيقة الصلة بالتغيرات العضوية في الكائن الحي عموما ومنه الانسان ٠

وقد رأى يوسف مراد ان نظرية فرويد تتضمن ثغرات منهجية، لا تتفق مع ما ينبغي للنظرية العلمية ، وبين في كتابه (شفاء النفس) ان علم النفس لا يمكن ان يقتصر على التحليل النفسي الفرويدي ٠

وقد درس الدكتور مراد الوظائف النفسية عبر سلسلة المستويات الحية من الحيوان حتى الانسان ٠

ـ والثانية : تدرس ارتقاء الوظائف النفسية عند الانسان من الطفولة حتى الرشد وما بعده ٠ وبشكل خاص القيت دراسته على وظيفة الذكاء ٠ وفي تتبعه لتطور هذه الوظيفة استطاع ان يفرق بأناة وعناية بين خطين رئيسيين لتطور السلوك في السلسلة الحيوانية ٠

ـ خط ينتهي بالتخصص الضيق في الاشكال الجامدة التي اعتدنا ان نسميها السلوك الغريزي ٠

ـ وخط اخر يرتقي في مزيد من المرونة لينتهي في حالة الانسان لما نسميه السلوك الذكي ٠

وقد اتخذ من قدرة الكائن على اكتساب عادات جديدة محكا يحتكم اليه فيما يتعلق بتقدير رصيد الكائن من هذه المرونة ٠

وعلى هذا النحو ربط الدكتور مراد في نظام نظري محكم بين ثلاثة مفاهيم اساسية في علم النفس هي :

- الذكـاء ٠
- والغريزة ٠
- واكتساب عادات جديدة ٠

وفي مجال الاهتمام بالاساس العضوي لمظاهر السلوك درس تطور الجهاز العصبي ابتداء من الحيوانات اللافقرية ٠

وقد حاول الدكتور مراد ان يوسع من اطار علم النفس ويخرج عن التضيق الاكاديمي النظري الذي يسيطر على تدريسه ، فيمد آفاقه الى الاعداد المهني والتوجيه التربوي والعلاج النفسي ٠

وللدكتور مراد بالاضافة الى المؤلفات الموضوعة عدد من التراجم ومحاولة في وضع قاموس طبي بالاضافة الى عدد من النشاطات الشخصية الصعبة التحديد ٠

في محاضرة للمفكر الفرنسي الكبير « روجيه غارودي » (اثر الحضارة العربية على الثقافة العالمية) القاها في القاهرة ، وقف هذا المفكر يكشف النقاب برؤية متجردة عن اسهام العرب في شتى مناحي الحضارة الانسانية سواء في العلوم النظرية او العلوم الانسانية او الاداب والفنون ٠

وقد بدأ المفكر محاضرته باقتطاف من كتاب اناتول فرانس (فوق الحجر الابيض) حيث يوجه احد المؤرخين سؤالا الى مدام نوزييه قائلا :

ـ ما هو أتعس يوم في تاريخ فرنسا ؟
ولم تكن مدام نوزييه على معرفة بهذا اليوم فقال لها المؤرخ:
ـ انه في عام ٧٣٢م ، اي العام الذي نشبت فيه معركة بواتييه او بلاط الشهداء وهي المعركة التي تراجع فيها المد العربي عن اوربا ٠ وقال المؤرخ :

ـ في هذا العام تراجعت الحضارة العربية امام البربرية الفرنسية ٠

كم هو جميل من مفكر فرنسي بالذات يعيد للاذهان بهذه الكلمات اثر قوم غير قومه بل ان ينتصر لفترة من تاريخ العرب ، وقفوا فيها وجها لوجه امام قومه ٠

والاستاذ روجيه غارودي يصدر بهذه النظرة ذات الافق الرحب البعيد عن التعصب يصدر عن وجهة نظر عميقة في الفتح العربي الاسلامي ٠ فهو يقول في محاضرته : ان الفتح العربي قد خلق الشروط اللازمة لتجديد الحضارة وانطلاقة جديدة شابة لهذا العالم ويضيف قائلا : هذا الفتح لم يتخذ في اية لحظة من لحظاته طابع الغزو الجماعي المدمر كالذي نلحظه في غزو التتار او المغول ، فقد تغلغلت فيالق قليلة العدد في بلاد شاسعة وحصلت في بلاد عديدة على تأييدات تلقائية ٠

ان العامل الحاسم للنصر في تلك الفتوحات هو ان الفاتح العربي كان يجلب معه الى عالم عبودي منحل اشكالا من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي . ويشهد على ذلك كاتب اسباني هو بلاسكوا يبابيز اذ يقول : لقد كانت حملة حضارية اكثر مما كانت غزوا ، ومن هنا اتت الينا هذه الثقافة الشابة القوية سريعة التقدم بطريقة مذهلة .

فاسبانيا التي تقدم فيها العرب كانت ترسف في العبودية ، فخلقوا فيها مجتمعا جديدا ينشر في كل اتجاه جذوره القوية . ان مبدأ حرية الضمير وهو حجر الزاوية الذي ترتكز عليه الحقيقة العظيمة للامة كان عزيزا على العرب . ففي المدن التي كانوا يسيطرون عليها لم يمسوا كنيسة المسيحي ولا معبد اليهودي .

ومن القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر نشأت وازدهرت اغنى واجمل حضارة شهدتها اوربا خلال العصور الوسطى . وبينما كانت شعوب الشمال تتناحر في حروب دينية وتتصرف كالقبائل الهمجية . كان شعب اسبانيا قد وصل تعداده الى ثلاثين مليونا . وفي ذلك الحشد كانت تختلط جميع الاجناس والعقائد على اختلاف تباينها في تناسق كان من نتائجه صورة عرفت بقوة النبض الاجتماعي . في هذا الخليط الخصب كانت تتعايش جميع الافكار والعادات وجميع الاكتشافات التي تحققت حتى ذلك الحين في العالم وجميع الفنون والصناعات .

هذه شهادات من مفكرين غربيين عن الروحية الحضارية العربية للعالم . وهي شهادات تتخذ مزيدا من القيمة التاريخية والفكرية عندما يدلي بها غربيون .

حول فلسفة التاريخ عند توينبي

في عام ١٩٥٤ انجز ارنولد توينبي الجزء العاشر والاخير من مؤلفه الضخم (دراسة التاريخ) ٠ وهو حصيلة عمل متواصل مدة عشرين عاما ٠ وقد اثار هذا العمل زوبعة من النقد هائلة ما بين متحمس له ورافض تماما ٠

ونحن في هذا المقام نكتفي بان نورد بعض المحاور الاساسية لهذا المؤلف دون تعليق ٠ السمة البارزة في دراسة توينبي للتاريخ هي سمة الرؤيا الشعرية الذاتية ٠ والمؤلف نفسه يعترف بأن ما وصل اليه هو حصاد تجربة داخلية وانه اعتمد على المقومات الاجتماعية المعاصرة له ، والحق ان لنشأة توينبي الدينية في طفولته وتعلمه اللغات القديمة اكبر الاثر في تشكيل نظرياته ٠ وقد افاد بشكل خاص من دراسة التراث اليوناني الذي اصبح مصدرا لالهامه ٠ لقد كان الشعر والنثر والتاريخ القديم والاساطير القديمة تعيش جنبا الى جنب مع الانجيل في وجدانه ٠ كما كان لمجمل الادب الغربي تأثير كبير عليه من ميلتون وفاوست الى شكسبير وبليك ٠ كذلك فقد تأثر مباشرة ببرجسون وبشكل خاص باشبنجلر في كتاب (تدهور الغرب) ٠ فقد استرشد لاعوام طويلة بفكرة اشبنجلر عن تاريخ العالم كمنشأ للحضارات وتطورها ثم اضمحلالها وسقوطها ٠

تاريخ الجنس البشري عند توينبي لا يتقدم في خط مستقيم وانما يتكون من سلسلة من الحضارات تولد كل منها ثم تتطور وترتقي ثم تضمحل وتنتهي ، ويمكن ان تحدد كل مرحلة من مراحل الحضارة الواحدة التي قطعت الشوط كله علامات لا تختلف عنها في الحضارات الاخرى ، ومن ثم يصبح فلسفيا ان تعتبر كل هذه الحضارات متعاصرة بدلا من انتظامها على خط زمني متصاعد ٠ فتوينبي مثلا يدرس الحروب الصليبية من القرن ١١ الى القرن ١٣ ميلادي بجانب حركات الاستقطان اليونانية من القرن الثامن الى التاريخ ٠

ما هو هذا المنهج وماذا يعتمد محورا له ؟

محور هذا المنهج هو الحضارة ويعادلها المجتمع ، وعند توينبي ان العامل الذي يحتوي المجتمع او الحضارة في اطار واحد هو الثقافة العامة ويعتبر توينبي الدين اوضح مظهر لها .

على خلاف شبنجلر يعتقد توينبي ان الحضارات لا تنبثق من العدم وانما تأثر بعضها ببعضها الاخر . فهو مثلا يجمع الحضارتين اليونانية والرومانية في وحدة واحدة يسميها (الحضارة الهيللينية). بل انه يجمع ما بين حضارتين تفصل بينهما الاف السنين كجمعه حضارة الهند مع حضارة التبتو - بورميه .

كيف تولد الحضارة وتتطور ؟

القانون الذي يراه توينبي متحكما في ولادة وتطورات واضمحلال الحضارات هو قانون (التحدي والاستجابة) وهو يبدأ بدراسة الحضارات من المجتمع الخامل الذي يواجه بمشكلة ما ، اي بتحد معين يستلزم مجهودا ليتم التغيير في الاوضاع القائمة ، ويضع مواصفات ذلك التحدي بأن يكون وسطا ، فلا يكون شديدا متطرفا بحيث يقضي على كل امل في الخلاص ولا يكون ضعيفا بحيث لا يحس وبالتالي لا يحدث الاستجابة المطلوبة . هذا هو قانون الوسط الذهبي عند توينبي .

بعد قيام الحضارة تأتي فترة النمو والارتقاء ويصور توينبي هذه الفترة على انها سلسلة من التحديات النشطة ، تواجهها المجتمعات استجابة ناشطة من خلال الاقلية الخلاقة التي تقود عموم المجتمع .

وفكرة الاقلية الخلاقة فكرة اساسية عند توينبي ، فالمجتمع في رأيه حقل يفعل فيه الافراد العباقرة الذين يكونون الاقلية الخلاقة التي بدورها تقود المجتمع . وهؤلاء بنظر توينبي هم الانبياء والقديسون والشعراء والساسة والقواد العسكريون والفلاسفة ومختلف المفكرين .

بعد فترة النمو والارتقاء تأتي مرحلة سقوط الحضارة ويرى

توينبي ان السقوط يأتي نتيجة خطأ مميت في مواجهة احدى التحديات الهامة ، وعلى الرغم من ان حالة السقوط لا ترجع بالحضارة الى الوراء مباشرة بل قد تستمر على حالتها عدة قرون فانه لا مناص من ان تؤول في النهاية الى زوال ٠ فمثلا يحدد توينبي الخطأ الجسيم الذي ادى الى سقوط الحضارة الجريكو رومان (الهللينية) بأنه كان بداية حرب البيلوبنيز وهو يسمي هذا السقوط (انتحار الحضارة) ٠

وسقوط الحضارة بنظر توينبي يعود الى اسباب داخلية في المجتمع لا الى اسباب خارجية ، فاذا دهمت الحضارة اخطار خارجية ادى الصراع الناشيء الى سقوطها فلن تكون الاخطار الخارجية هي السبب الحقيقي للسقوط ، بل ان السبب الحقيقي يكمن في نوع الاستجابة التي جوبهت بها التحديات ٠

ويؤدي سقوط الحضارة الى سحقها في النهاية ٠ والامر ذو الدلالة في سحق الحضارةهو ان الاقلية الخلاقة عندما يسقط في يدها تكف عن ان تكون مثلا يحتذى فتفقد اقناعها وتلجأ للقوة بديلا عن الاقناع فلا تنقاد الاغلبية لها عن طيب خاطر بل تتمرد ، وهكذا تنشق الحضارة على نفسها وتنهار ٠ ولكن فترة الانهيار قد تطول وقد تشهد الامم خلالها فترة رخاء وازدهار ٠ لكنها لا تكون الا نذير الضياع وسكرات الموت ، حيث يقول توينبي بأن الامر ينتهي بها الى وقت الازمات او ما يسميه الوقت العصيب ٠ الذي تسوده الحروب الاهلية وتبدو اثار الانشقاق على الحياة الروحية فيما يشعر به الناس من احساس بالخطيئة والتشاؤم وفي سوقية الفن والافلاس الروحي ٠ وكل تلك معالم تظهر على الافراد وتشير الى ان الحضارة باسرها قد بدأت تلفظ انفاسها ٠

هذا الكتاب

عندما ينتحر اديب كتيسير سبول احتجاجا على التشوه والقمع والهزيمة ، فانه يذهب الى الاقصى . ان انتحاره يذكرنا بانتحار ماياكوفسكي الذي صرخ تحت ظلام الخيبة وانكسار الحلم : اليد تنزع الى السكين والرصاصة تنزع نحو القلب .

جاء موت تيسير سبول في سياق هزيمة الامة وموتها ، في عصر لا مكان فيه للشعراء المتشحين بالبروق وشفافية البحر . وكما ينكسر غصن اخضر ليذهب عميقا في الارض ، انكسر تيسير الحزين ، الطفل ، اللامع ، وبانكساره ترك للاغصان التي ما تزال عالقة بأشجارها ، سؤالا : متى يأتي دورنا ؟

لقد عاصر تيسير عصر الهزائم والانكسارات المتتالية للامة ، لكنه نجا بموته من معاصرة هذا الراهن ، الاسود والبربري الذي نعيشه : القتل الفردي والجماعي واستباحة دم الانسان العربي .

ان شحنته السوداوية الداخلية والشبيهة بكتلة ديناميت ، زودتها هزيمة الـ ٦٧ ومجازر ايلول الاسود بالصاعق الذي سيضيء جسده قبل ان تهل الهزيمة الرابعة على الامة .

كالشهاب في ليلة ظلماء ، ودونما وداع ، غادرنا . ونحن نحييه اليوم في استعادة كلماته ، الشفافة والجارحة ، انما نضع على وسادته الحجرية باقة من الريحان الاخضر ، عزاء لنا ، ووفاء لليد التي كتبت بالشجاعة نفسها التي اطلقت فيها الرصاصة .

حيدر حيدر

دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان
كورنيش المزرعة - بناية موسى - ت ٣٠٣١١
ص.ب : ١٤ / ٥٥٣٧

السعر ٢٠ ل.ل اوما يعادلها